رسائل شوق وحنين
(٢)

رسائل إلى رسول الله

أربعون رسالة في الشوق للجمال المحمدي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

تهدف هذه الرسائل إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيان كمالات رسول الله ﷺ في المجالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ــ رد الشبهات والتحريفات عن رسول الله ﷺ، ذلك أنها تتنافى مع الكمال، وقد تسيء إليه، وقد تكون هي الحجاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول الله ﷺ لتحقيق ما يرتبط بالكمال من سلوك وأخلاق وغيرها، وقد جعلنا ذلك في خاتمة كل رسالة، مثلما يقدم للدعاء بالثناء على الله، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هدفنا من التوسل طلب الحاجة فقط، وإنما كان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثر السلوكي لمحبة رسول الله ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيدة التي لا تثمر عملا عقيدة الكسالى والمدعين، لا المجدين والصادقين.

وقد جمعنا في هذه الرسائل أربعين صفة من صفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتها المختلفة من خلال تلك الخطابات الموجهة إليه.

(2)

رسائل إلى رسول الله ﷺ

أربعون رسالة في الشوق للجمال المحمدي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2019 ـ 1440

دار الأنوار للنشر والتوزيع

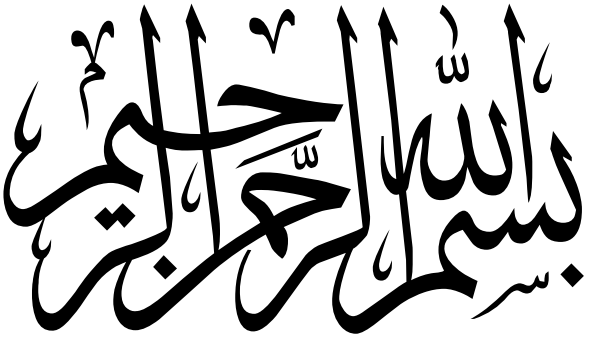

فهرس المحتويات

المقدمة	5
النبأ العظيم	8
السراج المنير	12
الوسيلة العظمى	16
أسوة المتألمين	20
الرحمة المهداة	26
القرآن الناطق	31
العالم الراسخ	35
العارف المحقق	44
الإمام الممكّن	49
القائد الملهم	55
المبلغ الأمين	63
الواعظ الخطيب	71
البشير النذير	77
الحكيم البليغ	84
المعلم الناصح	92
الشهم الشجاع	101
المخلِص المخلَص	108
رسول العالَمين	117
النبي المعصوم	127
خاتم النبيين	135
المخلّص الموعود	141
المؤيد بالمعجزات	156
المنبأ بالنبوءات	167
مجاب الدعوات	179
مهبط البركات	190
المستبصر المتوسم	208
المبجل المكرم	222
المحبوب المعظم	230
المتبتل العابد	245
العفيف الزاهد	253
المقاوم المجاهد	264
التقي النقي	277

المتواضع الأبي 282
المؤدب الحيي 291
الذاكر النجي 299
العفو الحليم 315
الجواد الكريم 320
الصادق الأمين 327
الملهم الخبير 333
الهادي البصير 345
هذا الكتاب 348

المقدمة

هذا الكتاب محاولة للتقرب من رسـول اللـه ﷺ، من خلال رسـائل موجهـة إليـه، تخاطبـه مباشـرة، ومن غـير حـواجز، فلا حـواجز ولا حجب تحـول بيننـا وبين رسـول اللـه ﷺ غـير تلـك الأوهام التي صنعناها بأنفسـنا، وإلا فـإن رسـول اللـه ﷺ أقـرب إلينا منا، ويمكننا أن نتواصل معه متى نشاء.

وكيف لا يمكن ذلك، وعلاقته بأمته ـ كما يـذكر في أحاديثـه الكثـيرة ــ علاقـة ممتـدة، لا منقطعـة.. والقطيعـة إن حصـلت ليست من النبـوة، وإنمـا من المتعـاملين معهـا، ذلـك أنهـا مثـل الشمس، لا تحتجب إلا على من يشاء أن يحجب نفسه عنها.

وبمـا أن أجمـل نجـوى مـع اللـه هي الحـديث في تنزيهـه وتقديسـه وحمـده؛ فـإن أجمـل حـديث مـع رسـول اللـه ﷺ هـو الحديث عما آتاه الله من أصناف الكمال والجمال.. حتى يكـون ذلك بمثابة الترياق الذي يزيل الشـبهات، والإكسـير الـذي يـزرع المحبة في القلب.

فنحن مطالبون في علاقتنا برسول الله ﷺ أن تكون علاقة محبـة، لا مجـرد طاعـة، ذلـك أن المحب لا يكتفي بالطاعـة الظـاهرة، وبـأداء التكـاليف، وإنمـا يضـيف إلى ذلـك التعامـل الوجداني معها، وهو ما يجعلها في أرقى مراتب الكمال.

ولهذا، فإن هذه الرسائل تهدف إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيان كمالات رسول الله ﷺ في المجالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ـ رد الشبهات والتحريفات عن رسـول اللـه ﷺ، ذلـك أنها تتنافى مع الكمال، وقد تسيء إليه، وقد تكون هي الحجـاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول الله ﷺ لتحقيق ما يرتبـط بالكمـال من سـلوك وأخلاق وغيرهـا، وقـد جعلنـا ذلـك في خاتمـة كـل رسـالة، مثلمـا يقـدم للـدعاء بالثنـاء على اللـه، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هدفنا من التوسل طلب الحاجة فقط، وإنما كـان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثر السلوكي لمحبة رسول اللـه ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيـدة الـتي لا تثمـر عملا عقيـدة

الكسالى والمدعين، لا المجدين والصادقين.

وقد جمعنا في هذه الرسائل أربعين صفة من صفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتها المختلفة من خلال تلك الخطابات الموجهة إليه.

وتلك الصفات هي: السراج المنير.. الوسيلة العظمى.. أسوة المتألمين.. النبأ العظيم.. الرحمة المهداة.. القرآن الناطق.. العالم الراسخ.. العارف المحقق.. الإمام الممكّن.. القائد الملهم.. المبلغ الأمين.. الواعظ الخطيب.. البشير النذير.. الحكيم البليغ.. المعلم الناصح.. الشهم الشجاع.. المخلِص المخلَص.. رسول العالمين.. النبي المعصوم.. خاتم النبيين.. المخلّص الموعود.. المؤيد بالمعجزات.. المنبأ بالنبوءات.. مجاب الدعوات.. مهبط البركات.. المستبصر المتوسم.. المبجل المكرم.. المحبوب المعظم.. المتبتل العابد.. العفيف الزاهد.. المقاوم المجاهد.. التقي النقي.. المتواضع الأبي.. المؤدب الحيي.. الذاكر النجي.. الجواد الكريم.. العفو الحليم.. الصادق الأمين.. العبقري الخبير.. الهادي البصير.

وننبه إلى أنا تعمدنا ذكر أكبر عدد من النصوص والأحاديث، لأن الهدف من الكتاب هو التعريف برسول الله ﷺ، وتقريبه، وتعميق الإيمان به، ولذلك كان لتلك النصوص دورها الكبير في إعطاء تلك الصورة الجميلة، لأنها وحدها من يمكنه نفي تلك الصورة المشوهة التي رسمها له أعداؤه القدامى والمحدثين، من الذين يشعرون أو لا يشعرون.

وننبه ـ كذلك ـ إلى أنا ابتعدنا في الكثير من تلك الروايات على النقل الحرفي لها، إما بسبب احتوائها للكثير من التفاصيل التي لا تغنينا، أو لكونها تحتوي على بعض التشويهات التي نرى أنها دست على النبوة.

وهذا بناء على تصورنا للتعامل مع الحديث، والذي تحدثنا عنه بتفصيل في كتاب [سنة بلا مذاهب]، وهو عدم رمي الحديث بسبب بعض ألفاظه أو جمله، إذا ما كان فيه بعض المعاني الصحيحة، ذلك أن الجزء المرفوض قد يكون من تصرف الرواة، وليس من أصل الحديث، كما روي عن أبي هريرة أنه حدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول.

تقول المرأة: إما أن تطعمني وإمـا أن تطلقـني، ويقـول العبـد: أطعمني واستعملني، ويقـول الابن: أطعمـني، إلى من تـدعني) (1)

وعندما سئل بعد روايته للحديث، فقيل لـه: يـا أبـا هريـرة، سمعت هـذا من رسـول اللـه ﷺ؟ قـال: (لا، هـذا من كيس أبي هريرة) (2)

فالجزء الأول من الحديث صحيح، لكن الجزء الثـاني، وهـو قوله: (تقول المرأة: إما أن تطعمني وإمـا أن تطلقـني، ويقـول العبـد: أطعمـني واسـتعملني، ويقـول الابن: أطعمـني، إلى من تدعني)، فإنه واضح في كونه من تصرف الراوي، ولذلك لا يصح رمي الحديث جميعا بسبب تصرف الراوي في بعض أجزائه.

1() رواه أحمد 2/ـ 252 (7423) وفي 2/ـ 476 (10175)، والبخاري: 5355 وأبـو داود: 1676...

2() التخريج السابق.

النبأ العظيم

سيدي يا رسول الله.. أيها النبأ العظيم الذي هم فيه يختلفون.

لقد بحثت في تاريخ البشرية، وقلبت صفحات عظمائها، فلاسفتهم، وعلمائهم، وقادتهم، وزعمائهم، ورجال دينهم.. فلم أجد شخصا كان له ذلك التأثير الذي كان لك على الرغم من أنك عشت في بيئة صحراوية بدوية متخلفة عن ركب الأمم التي كانت تعاصرها.

وعلى الرغم من كونك لم تكن مؤيدا بقيصر ولا بكسرى ولا بفرعون.. ولا بأي حاكم يمدك بما تتطلبه الشهرة والجاه من فنون الإشهار.

وعلى الرغم من كونك تعرضت للكثير من الهجمات من قومك الأدنين، ومن غيرهم من الأبعدين.. الذي اجتمعوا جميعا على حربك وتشويهك.. فكتبوا القصائد، ونشروا الجنود، وأعدوا كل أنواع العدة لإطفاء نورك.. ومع ذلك لم تزد الأيام نورك إلا تألقا واشتعالا ولمعانا.

ولم يكن ذلك وحده ما أثار عجبي.. وإنما ذلك التسجيل العجيب لكل مجريات حياتك.. بل حتى لمن حظي بالجلوس إليك وموالاتك، أو خسر بالابتعاد عنك ومعاداتك.. كلهم حفظت أسماؤهم وأنسابهم والكثير من تفاصيل حياتهم.

أما أنت، فقد حفظت لنا حركاتك وسكناتك.. وأقوالك وأفعالك.. حتى ابتسامتك التي كنت ترسلها كل حين.. حفظت لنا، فعرفنا متى ابتسمت، ومتى غضبت.. وما الذي فعلت، وما الذي لم تفعل.

وقد جُند لذلك جنود كثيرون من الرواة والمحدثين والعلماء في كل المجالات.. لا دور لهم إلا ذلك..

وعندما عدت لتاريخ غيرك من الزعماء والعلماء وحتى الأنبياء.. لم أجد إلا شيئا قليلا لا يكاد يذكر أمام ما هيء لك.

فموسى عليه السلام على الرغم من كونه كان محاطا بالكثير من الكتبة، لا نعلم عن حياته ـ حسب الأسفار الخمسة من التوراة ـ إلّا قتاله وقيادته في الحرب وبسالته فيها، ثم لا نرى بعد ذلك شيئا كثيرا يتعلق بحياته، وكيفية التعامل مع

أحوالها المختلفة.
وهكـذا لا نجـد في الأناجيـل تفاصـيل كثـيرة ترتبـط بحيـاة المسيح عليه السلام، وكيف كان يتعامل مع القضايا المختلفة..
وهكذا لا نجد في سيرة بـوذا إلا هجرتـه لأهلـه وعيالـه إلى الصحاري والغابات؛ وكونه لم ير ولده الوحيد مرةً أخرى، وكونه تـرك عن كاهلـه أعبـاء الحُكْم، وارتضـائه للمـوت أخـيرا طريقـا للخلاص.
وهكذا عندما عدت للفلاسفة الكبار والقادة العظام لم أجد من اهتم بتفاصيل حياتهم مثلمـا وجـدت من اهتم بكـل تفاصـيل حياتك.
وعندما رحت أبحث عن أكثر الأسماء شهرة وترديـدا، وفي جميع أنحاء العالم، وجدت اسمك هو الاسم الوحيـد الـذي يـردد كل يوم وعلى جميـع مـآذن العـالم، وبصـوت عـال، وهـو ينـادي (محمد رسول الله)
أسمعه من على المنـارات، وفي القنـوات الفضـائية، وفي البث الإذاعي.. وأسـمع معـه ملايين، بـل ملايـير الحنـاجر، وهي تصلي وتسلم عليك كلما ذكرت..
عندما سمعت كل هذا رحت أقرأ تلك الكلمات التي أوحاها الله إليك، وأنت في مكة المكرمة، تُكـال لـك كـل ألـوان التهم، وتُقذف بكـل أنـواع السـباب، وتُـرمى بالحجـارة، ويسـخر الكـل منك.. لكن الله تعالى كان يقول لك حينها مطمئنـا: ﴿أَلَمْ نَشْـرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْـرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْـرِ يُسْـرًا (5) إِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـرًا (6) فَـإِذَا فَـرَغْتَ فَانْصَـبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَـارْغَبْ (8)ـ ﴾ [الشرح: 1، 8]
ثم يقول لك، وأنت في المدينة، وبعد أن تحزبت عليك كـل الأحزاب، واجتمع لحربك كل الحاقدين: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَـافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُشْـرِكُونَ ﴾ [التوبة: 32ـ 33]، ويقـول: ﴿يُرِيـدُونَ لِيُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُـورِهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَـافِرُونَ (8) هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: 8، 9]
لقد علمت بعد هـذا كلـه المـدد الـذي كنت تُمـد بـه.. وأنـه

ليس من الشرق ولا من الغرب.. ولا من العرب ولا العجم.. ولا من المحدثين ولا من الفقهاء.. وإنما من الله.. فالله هو الذي أراد لاسمك أن يقترن باسمه، حتى لا يصل إليه إلا من وصل إليك.

لقد أراد الله أن يسمع بك العالم أجمع.. وأن يبحث عنك العالم أجمع.. ذلك أن من وصل إليك وصل إلى الحقيقة والسراط المستقيم، وفاز بسعادة الأبد.

ولذلك حاول الشياطين أن يسيئوا إلى اسمك، فربطوا ذلك الشعار العظيم [محمد رسول الله] الذي أقض مضاجعهم، بأولئك المغفلين الحاقدين الذين ورثوا دين الفئة الباغية، وأصحاب الملك العضوض.

لقد راحوا يرسمون اسمك على راياتهم السوداء كسواد قلوبهم، والملطخة بالدماء، ليسيئوا إليك، وإلى القيم النبيلة التي تمثلها..

وراح غيرهم يرسمون الرسوم الساخرة، أو ينتجون الأفلام الوقحة، أو يكتبون الروايات البذيئة.. لينزلوك عن ذلك المقام الرفيع الذي أنزلك الله إياه.

ولن يفلحوا في ذلك.. كما لم يفلح القرشيون واليهود والمنافقون ومرضى القلوب.. وكما لم تفلح كل تلك الترسانة من الرواة الذين جندهم سلاطين الفئة الباغية.

فأنت ـ يا سيدي ـ نور الله الذي سيبقى مشعا حتى تنمحي جميع الظلمات.. وحتى يهيمن دينك على الدين كله.. وحتى يتساقط أمامك كل أولئك الدجالين والمشعوذين الذين راحوا يتلاعبون بالحقائق، ويشوهونها.

سيدي رسول الله..

أنا العبد الضعيف الذي يتشرف بأن يكون خادما لنعلكم، بل للتراب الذي تمشون عليه.. أسألك أن تقربني منك، حتى أحظى بنورك الحقيقي الذي يطفئ جميع ظلماتي.. فقد راح الكثير من الدجالين يخلطون نورك بنيران الشياطين ليشوهوا جمال النور الذي جئت به.. فيجعلوا منه نيرانا يحرقون بها الحقائق، ويهدمون بها القيم.

وأسألك ـ سيدي ـ أن أعرفك كما أنت، لا كما صوروك.. فأنت الصفاء والنور والجمال.. وأنت الأخلاق الرفيعة، والقيم السامية.. وأنت الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وسراط

الله المستقيم.. وأنت أنت..

السراج المنير

سيدي يا رسول الله.. يا من وصفك ربك، فقال: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46]

أنت ـ سيدي ـ سراج منير بكل المقاييس، وما وصفك ربك به حقيقة لا مجال فيها للشك، ولا للمبالغة، بل هي تصوير إلهي بديع لحقيقتك، وحقيقة الوظائف العظيمة التي وُكلت لك.. والتي يرتبط بها ذلك العالم الجميل المغيب الذي لا نراه.. لكننا بواسطتك يمكننا أن نراه ونعيشه ونتواصل معه، ونصبح جزءا منه.

فكما أن حكمة الله تعالى ولطفه بعباده ورحمته بهم اقتضت أن يجعل لهذه الأرض شمسا تمدها بالنور.. ولولاها لعاشت الأجساد في الظلمات المدلهمة، لا ترى ربيعا، ولا تسمع تغاريد العصافير، ولا تقطف ثمار الأشجار، ولا تتذوق طعما لأي شيء، كما وصف الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ [النبأ: 13 - 16]

فالجنات الملتفة، والنباتات المتنوعة، والثمار اللذيذة، والألوان الباهية، والنسيم العليل، والدفء الذي تستشعره الأجسام، وتنتشي له.. كل ذلك فيض من كرم تلك الشمس التي أودعها الله لتكون سراجا لعالم الأجساد.. ولذلك لا يمكن أن تقوم الحياة من دونها.

وهكذا أنت ـ يا رسول الله ـ في عالم الأرواح.. فلولاك لم نر إلا الأشباح المخيفة، والشياطين المرعبة.. ولولاك لعشنا في سجون التشاؤم المطبق، والحزن الشديد، والكآبة التي لا علاج لها.

ولولاك لم نر أشجار الحقائق الممتلئة بكل ثمار الجمال.. ولولاك لم نتمكن من قطف أي ثمرة منها.. وكيف نقطفها، ونحن لا نهتدي إليها، ولا نراها، ولا نسمع بها.. وهل يمكن لأحد أن يهتدي لشيء، وهو يعيش في ذلك العالم المظلم الذي وصفه الله تعالى، فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور: 40]

ولـذلك كنت أنت النـور الـذي أمـدنا اللـه بـه، لـنرى ربيـع الحقائق، ونشم أريج عطرها الفواح الـذي لم نكن لنهتـدي إليـه لولا ذلك الضياء الذي جعلـك اللـه مصـدرا لـه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40]

أنت سيدي منبع الأنـوار الحقيقيـة الـتي لم تختلـط بنـيران الشياطين.. فلذلك من لجأ إليك، واحتمى بنورك، واسـتمد منـه، واكتفى به، لم يضل عن السراط المستقيم.

وعندما يأتي في ذلك الموقف الذي تنكشف فيه الحقـائق، ويرتفـع التمويـه يجـد نفسـه ممتلئـا بـأنوارك، فلـذلك لا يـرى الظلمات، ولا ترعبه الأشباح، ولا يقع في تلك الحفر الكثيرة، بل سيكون صـاحب نـور عظيم، وبصـيرة قويـة.. كمـا قـال تعـالى: {يَـوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ يَسْـعَى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: 12]

وكيف لا يكون كذلك، وهو لم يكن يخلط نورك بالظلمـات، ولا بالنيران.. بـل كـان مكتفيـا بـك، يعيش في عالمـك الممتلئ بالجمال.

أما أولئك الكذبة المخادعون، والذين لم يكتفـوا بسـراجك، أو رأوا أن سراجك أدنى من أن يضـيء لهم الظلمـات، فراحـوا إلى غيرك، وخلطـوا الحـق بالباطـل، وأكلـوا الثمـار المسـمومة التي نهوا عن أكلها..

في ذلك الموقف الشديد.. تختلط عليهم الأمـور.. ويـذهب كل ذلك النور الكاذب الذي لم يكن يستمد من سراج الله الـذي نصبه لعالم الأرواح، بل كان يستمد من نـيران الشـياطين الـتي كانت تخدع البشر..

لقد ذكر الله تعالى ذلك الموقف الشديد، وحذرنا منه أبلغ تحذير، فقال: ﴿ يَوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُـوا نُـورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَـذَابُ (13) يُنَـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْـتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَـانِيُّ حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)﴾ [الحديد: 13، 14]

هؤلاء ـ سيدي ـ الذين أعرضوا عنك، وعن وصاياك، وراحوا يتصـورون أنهم يمكنهم أن يحولـوا من أهـوائهم سـرجا بديلـة لسراجك، فخدعتهم أحوج ما كانوا إليها.

لقد كذبوا على أنفسهم في الدنيا، فلذلك كذبت عليهم أنفسهم هناك..

هناك ــ سيدي ــ يمتلئ بالحزن والأسى والألم كل من أعرضوا عن سراجك المنير، وراحوا لتلك السرج المزيفة يستضيئون بها، فأكلوا من ثمارها سموما، وربوا في حقول نفوسهم حيات وعقارب.. سرعان ما كشرت لهم عن أنيابها عندما أزيل ستار التمويه، ورأى الخلق الحقائق.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، وحذر منه أبلغ تحذير، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166، 167]

هؤلاء ـ سيدي ـ هم أولئك الذين أعرضوا عن نورك، وعن سراجك المنير، وراحوا يقيمون أندادا وأصناما وطواغيت ركنوا لها، وهجروك، وتصوروا أنها تعسفهم عندما يحتاجون إليها، فتخلت عنهم، وهم أحوج ما يكونون إليها.

سيدي رسول الله.. أنا العبد الفقير الحقير الذي تشرف بأن يكون فردا من أمتك..

أسألك أن تنقذني من كل تلك السرج الكاذبة.. فلا تطيق نفسي أن تحترق بلهيبها.

ضمني إلى نورك، واجعلني أعيش في ربيعك، وفي الحقول الجميلة التي نضجت من أنوار سراجك..

اجعلني زهرة من أزهارها.. وثمرة من ثمارها.. ونورا من أنوارها.

واجعلني أتجول في تلك الجنات الفسيحة التي تنعمت بأن تكون سراجها المنير، فحياتي التي يملؤها البرد القارس لا يمكن أن تجد لذة الدفء من دونك.

وحياتي التي تلمؤها الظلمات لا يمكن أن تبصر الجمال، وتتنعم بالتواصل معه من دون أن تكون أنت نورها وضياءها وعينها.

فاجعلني أفنى عن نفسي بك.. لأبصر العالم بعينيك.. وأعيش الحقائق بروحك..

الوسيلة العظمى

سيدي يا رسول الله.. يا من جعلك الله الوسـيلة العظمى، والحبل الممدود، وسفينة النجاة..

كيف لا نشتاق إليك، وأنت أشد ضرورة لنا من الهواء الذي نتنفسه، والماء الذي نشربه، والروح التي نعيش بها؟

بل لولاك لكانت أرواحنا مثل أجسـادنا.. مجـرد طين ومـاء وحمأ مسنون..

كيـف لا نشـتاق إليـك، وأنت الـذي أعطيت الحيـاة طعمهـا ولونها وجمالها..

فلولاك ما أزهر الربيع، وما أشرقت الشمس.. ومـا تـبينت لنا حقائق الأشياء المخبأة في سراديب الظلمات.

لولاك لكان كل شيء مقبرة وموتا، وأشباحا مخيفة..

أنت لنا مثـل العيـنين اللـتين لا يمكن أن نـرى الألـوان، ولا جمال الأشياء من دونهما.

بل أين العينان منـك.. ومـا أبعـدهما عنـك.. فهمـا وسـيلتنا لذلك الجمال المحدود الذي سرعان ما يذبل.. أما أنت فوسيلتنا إلى الجمال الكامل الحقيقي الدائم الـذي لا تسـتطيع الأيـام أن تغيره، ولا الحوادث أن تبدله.

ولذلك أنت لنا العينان الحقيقيتـان اللتـان لا يمكن أن نـرى الكون على حقيقته من دونهمـا.. فمن لم يـر الكـون بـك عـاش أعمى، حـتى لـو امتلـك من أجهـزة الإبصـار مـا يـرى بـه جميـع الأفلاك.. دقيقها وجليلها.

وأنت لنا الأذنان اللتان نسـمع بهمـا حقـائق الوجـود.. ومن مصدر الوجود.. ولولاك لعشنا في عالم الصمت المطبق..

يا رسول الله.. كم يصيبنا الألم عندما نشعر بأولئـك الـذين تخلو حياتهم منك.. ويلهم كيف يمكنهم أن يعيشوا، وهم لا يرون السراج المنير الذي يضيء لهم في مدلهمات الظلمات؟

وكيــف يمكنهم أن يهتــدوا إلى حقــائق الوجــود.. وهم لا يتأملون في صحيفتك الـتي جعلهـا اللـه مـرآة صـقيلة لتعـرفهم بالوجود.. وحقائقه وقوانيه؟

لقـد خـرجت اليـوم إلى المقـبرة.. وكـانت موحشـة جـدا، وعنـدما رأيتهـا، وتصـورت نفسـي في قـبر من قبورهـا.. رأيت

الحياة مجرد مزحة ثقيلة.. وأصابني اكتئاب وألم شديد.
لكني عندما توسلت بـك.. ورحت أنظـر إليهـا من خلالـك.. بدت لي شيئا آخـر تمامـا.. وبـدا لي ذلـك القـبر المـوحش جنـة غناء.. وبرزت لي آفاق جديـدة في الحيـاة لم يكن عقلي لـولاك ليحلم بهــا، ولا ليعرفهــا، ولا ليصــلها.. حــتى الخيــال لم يكن ليتطاول للوصول إليها.
بعد أن عـدت من المقـبرة، ورحت أنظـر إلى الحيـاة كلهـا من عينيك الجميلتين.. رأيتها شيئا آخر تماما..
لقـد كـانت سـابقا في عيـني مفـازة للتنـافس على المـال والجاه والسلطان.. لكنها بفضل عينيك تحولت إلى مفازة للقيم النبيلة والأخلاق الرفيعة والحقائق السامية.
كنت قبل أن أرى الحياة بعينيك أحسد كل أمير أو وزيــر أو ملك أو صاحب قصر فخم، أو مركب فاره.. لكني عنـدما رأيتهـا بعينيك استحالت كل تلك الأشياء مجرد لهو ولعب لا يختلـف عن لهو الأطفال ولعبهم.
لقـد كـانت جـل مطـالبي من دونـك خدمـة تـرابي ومـائي وخلايـاي وأنسـجتي.. لكـني بعـد أن عرفتـك تـرقيت عن عـالم الطين إلى عـالم العقـل والقلب والـروح والسـر وكـل المعـارج التي أرحل بها إلى ذلك العالم الأسمى..
بفضلك سيدي.. صرت أشـعر أني أتحـرك بحركـة جوهريـة نحو عوالم الكمـال الـتي كنت محجوبـا عنهـا عنـدما كنت بعيـدا عنــك، ولم تكن أنت وســيلتي، ولم تكن ســفينتك مركــبي، ولا دربك دربي.
لكني بعد أن سرت خلفك، ومددت يدي إليك، وإلى حبـك.. وامتطيت ســفينتك.. رأيت الخلــق جميعــا غــرقى في طوفــان الأهواء، يعيشون مثل الصغار، ويموتون مثل تلك البهائم الـتي لا ترى الحياة إلى في المرعى إلى أن يأتي الجزار ليسلبها منها.
بفضلك سيدي تغيرت نظرتي للكون.. ولنفسي.. وللحياة.. وللعالم.. ولكل شيء..
بفضلك سيدي زالت كآبتي وتشاؤمي ويأسـي.. لأن الحيـاة بعينيك أجمل بكثير.. هي كلها ربيع.. لأن سراجك المنـير يضـيء عليها..
بـل يملؤهـا بـالألوان الـتي لا يمكن لعيوننـا أن تراهـا.. فلا يمكن أن نراها إلا بعينيك.. مثل ذلـك الفلكي الـذي لا يمكنـه أن

يرى الكواكب البعيدة من دون مرصاده..

وأين مرصـاد الفلكي منـك.. فهـو لا يريـه إلا حجـارة في السماء، أما أنت فنرى بك من العوالم ما لا تطمع جميع مراصد الدنيا في اكتشافه.

وأنت فوق ذلك كله لا ترينا الحقـائق فقـط، بـل تـدلنا على الطريق الذي نصل به إلى السعادة الأبدية..

تلك السعادة التي تاهت عنها كل العقول التي تكـبرت عن أن تنظر إلى الحياة من منظارك.

فأنت لذلك ـ سيدي ـ منارتنا التي نهتدي بها في الظلمات، وأنت سراطنا المعبد الذي يقينا من الوقوع في المهالك الكثيرة التي وضعت في غير طريقك..

وأنت الـذي تمـد يـديك لمن شـاء أن يمسـك بهمـا، حـتى يعيش معك، ومع ذلك العالم الجميـل الـذي دللتنـا عليـه، وكنت تحزن حزنا شديدا عندما ترى الخلائـق معرضـين عنـك، مكتفين بتلك العيون التي لا يرون بها إلا المراعي والمقابر.

ولذلك ـ سيدي ـ أنت لنا الروح الحقيقيـة.. فلـولاك لكـانت أرواحنا مثل أجسادنا مجرد طين وماء وحمأ مسنون.

وأنت لنـا العقـل الـذي نبصـر بـه الحقـائق.. ولـولاك لكنـا مجانين.. لأنا نرى الحقائق خلاف ما هي عليه في الواقع.

وأنت لنا القلب الطاهر الذي نعشق بـه الحقـائق.. ولـولاك لغرقنـا في حمـأة الحب المـدنس الـذي يرمينـا في مسـتنقعات الأهواء.

ولذلك أنت لنا الحياة الحقيقيـة.. الـتي لولاهـا لعشـنا حيـاة مزيفة، مثل أولئك الذين يعمرون دهـرا طـويلا، ويتمتعـون بمتـع كثـيرة.. ثم يخرجـون من الحيـاة، قبـل أن يكتشـفوا أجمـل مـا فيها..

ولذلك صدق ربك عندما اعتـبرك مصـدرا للحيـاة، فقـال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24]

فأنت سيدي ذلك الـداعي الـذي ينفخ الحيـاة الحقيقيـة في كل من آمن به وأحبه واتبعه.. وبقدر المحبـة تكـون روح الحيـاة الجديدة.. الـتي لا يمكن للإنسـان أن يولـد الـولادة الحقيقـة من دونها.

أسوة المتألمين

سيدي يا رسول الله.. يا أسوة كـل المضـحين والمتـألمين والمتعبين..

أكتب هـذه الرسـالة إليـك بعـد أن أصـابني بعض الإرهـاق، نتيجة أعمال بسيطة، تصورت أني قمت بهـا في خدمـة دينـك.. وتوهمت معها كذبا وزورا أني قدمت بعض التضحيات أثناء ذلك.

لكني عندما تركت النظر في مرآة نفسي الأمارة بالسـوء، ورحت أنظر إلى مرآتك الصقيلة، ورأيت كل تلك الآلام العظيمة التي مرت عليك طيلة حياتـك.. وتلـك التضـحيات الـتي لا نـزال نعيش آثارهـا.. اسـتحييت من نفسـي، وامتلأت خجلا من ذلـك الذي سميته تعبا وألما وتضحية..

فأين تعبي وألمي وتضحيتي.. بل أين تعب الملايين وآلامهم وتضحياتهم مما حصل لك في حياتك.. أنت الذي قضـيت حياتـك كلها في خدمة رسالتك ومبادئك والقيم العظيمة التي جئت بها.

لقد تذكرت ـ سيدي ـ كيف أمرك ربك أن تنزع الدثار عنك، وتخـرج لإنـذار أولئـك الأجلاف الغلاظ المسـتكبرين.. الـذين لم يراعوا حرمتـك، ولا كرامتـك، ولا نبلـك، ولا نبوتـك.. وهم الـذين كانوا يعرفون دماثة أخلاقك، وسماحة طبعك..

بمجرد أن جاءك الأمر الإلهي رحت مسرعا تنفذه من دون أي تردد، أو أي حساب لأي أذى يمكن أن تتعرض لـه.. مـع أنـك كنت تعلم أن الكل سيقف في وجهـك.. وأنهم سـيرددون عليـك ما ردده الجهلة على أنبيائهم.

لكنك ـ سيدي ـ لم تبـال بكـل مـا يقولونـه لـك.. فليقولـوا: ساحر أو كاهن أو مجنون أو ابن أبي كبشـة.. أو مـا شـاءت لهم لغتهم من ألفاظ البذاءة، ومـا شـاءت لهم نفوسـهم من سـموم الحقد.

لقد كنت مترفعا عليهم، لأنك لم تكن تسـتمع إلا إلى ربـك، وهو يسليك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُـونَ (97) فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّـاجِدِينَ (98) وَاعْبُـدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجـر: 97 -ـ 99]، ويقـول لـك: ﴿ فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَـعُ الْمُـؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 54، 55]

لم تكن تسمع إلا إلى ربك، وهو يحكي لك قصص الأنبياء، وهم يعانون مثلما تعاني، ويتألمون مثلما تتألم.. ليكون ذلك الألم، وتلك التضحية علامة الصدق الأكبر.. فهل يمكن للكاذب والمدعي أن يضحي أو يتألم أو يرضى بأن يواجه بمثل تلك المعاملات القاسية؟

ولم تكن تلك المعاملات القاسية قاصرة على الكلمات البذيئة الممتلئة بالحقد.. بل كانت تتحول كثيرا إلى أفعال، تنم عن حقد عظيم..

لقد سجل لنا الرواة بعض مشاهد تلك الآلام.. حيث ذكروا لنا أنك ـ سيدي ـ كنت تصلي بفناء الكعبة، ومع علمهم بحرمتها إلا أن بعضهم جاء إليك، وأخذ بمنكبك، ولوى ثوبه في عنقك، وخنقك خنقا شديدا(1)..

ورووا أنهم كانوا يطرحون عليك أحشاء الذبائح، وأنت تصلي.. بل كانوا يضعونها في طريقك، وأمام بيتك.. ولم تكن تملك إلا أن تقول لهم: أي جوار هذا(2)؟.. ثم تستمر في دعوتهم إلى الله، وبأسلوبك الهادئ الممتلئ بالحكمة والرحمة والتواضع.

ولم يكن ذلك ألمك الوحيد ـ سيدي ـ بل كنت تسير على قدميك المسافات الطويلة، وأنت تبشر وتنذر، وهم خلفك يستهزئون بك، ويحذرون منك.. وأنت لا تبالي بما يقولون، ولا ما يفعلون.

ولم تكتف في سيرك بأسواق عكاظ، ولا ذي المجاز ولا غيرها من الأسواق.. بل كنت تقطع المسافات الطويلة.. حتى أنك سرت إلى الطائف رجاء أن تجد فيهم من اللين ما لم تجده في قريش..

لكنهم استقبلوك ـ لا كما يستقبلون الدعاة عندنا بالهدايا والتحف ـ وإنما بالحجارة التي أدمت قدميك.. فرحت تفر منهم، وتشكو إلى ربك ما نزل بك من الهموم والآلام من غير ضجر ولا انزعاج.. بل كانت شكواك شكوى المحبين.. تقول له فيها: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي،

1() صحيح البخاري، 4/1814.

2() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 463)

إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكتـه أمـري؟ إن لم يكن بك علي غضـب فلا أبـالي، ولكن عافيتـك هي أوسـع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت لـه الظلمـات، وصـلح عليـه أمــر الــدنيا والآخــرة من أن تــنزل بي غضــبك، أو يحــل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)(1)

وهكذا كانت حالك مـع أولئـك الأجلاف الغلاظ الـذين كـانوا يهمون كل حين بقتلك إلا أن الله عصمك منهم..

وكنت تعلم كل ذلك.. وتعلم كل التهديدات التي توجـه لـك كـل حين.. وتعلم معهـا كـل الإغـراءات الـتي تقـدم لـك إن أنت تركت دعوتك، وسرت في طريقهم.. لكنك لم تفعل.. ولم تهم.. ولم يخطر على بالك.. بل كنت ترسل لهم بـذلك الشـعار الـذي صار علما ورايـة لكـل الأحـرار: (واللّه لـو وضـعوا الشـمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حـتى يظهـره اللّه أو أهلك فيه ما تركته)(2)

ولم يكن ذلـك ــ سـيدي ــ ألمـك الوحيـد.. بـل إن قومـك وإمعانا في استعمال كـل الوسـائل لصـدك عن دعوتـك، راحـوا يواجهونــك بعشــيرتك.. حيث حاصــروك معهم في الشــعب، ومنعــوهم الأقــوات أن تصــلهم، حـتى اسـتبد بـك وبهم الجـوع الشديد.. وكنت ترى كل ذلك، وتتألم له ألمـا شـديدا.. لكنـك لم تكن لتترك دعوتك مهما كلفك الثمن..

ثم قدر الله لك أن تهاجر من تلك البلاد التي آذتك.. لتذهب إلى المدينة التي تنورت بنـورك.. وتقطـع في رحلتـك إليهـا كـل أنواع التعب والألم، وأنت تتخفى من تلـك العيـون الـتي تترصـد لك، والسيوف التي تهم بقتلك.

وفي المدينة لم تركن للراحة.. بل كنت تواجه آلاما لا تقـل عن تلك الآلام التي واجهتها في مكة.. فقد كان هناك المنافقون واليهود ومرضى القلـوب.. والـذين راحـوا يتفنـون في إيـذائك.. ولم تكن تملـك معهم إلا الصـبر الجميـل.. ولم تكن تعـاملهم إلا بتلك الرحمة التي ملأت كيانك كله.

ولم يكتف الحاقـدون بالكلمـات يحاربونـك بهـا.. بـل كـانوا يرسـلون كـل حين جحافـل جيوشـهم، لضـربك وضـرب الثلـة

1() سيرة ابن هشام (1/ 420)

2() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 327)

المؤمنة معك.. فكنت تقطع المسافات الطويلة كل حين لصد كل عدوان، ومواجهة كل مؤامرة..

وأنت أثناء ذلك كله تسمع الكلمات الجارحة من المنافقين ومرضى القلوب.. فكنت تواجهها بالابتسامة والهدوء، والصفح الجميل، كما علمك ربك، فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]

وهكذا ـ سيدي ـ كانت حياتك جميعا.. مملوءة بالمتاعب والآلام، ومع جميع أصناف المعتدين الظالمين..

وفي الليل وعندما يركن المتعبون إلى الهدوء والراحة، أو إلى الحديث والسمر.. كنت أنت تتوجه إلى القبلة، وتفترش جبهتك، ساجدا لربك.. لا تكتفي بالركعات المحدودات، ولا بالدقائق المعدودات.. وإنما كنت تقوم أكثر الليل، لقد قال ربك يذكر ذلك عنك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: 20]

هذه ـ سيدي ـ أمثلة عن بعض المتاعب والآلام التي مررت بها.. ولا يمكنني أن أعددها.. فالرواة لم يسجلوا إلا بعض مشاهداتهم..

ولو أن العقلاء تأملوا فيها.. ورأوا أنك في حياتك جميعا لم تكن سوى المضحي والمتألم الذي كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع.. ثم عندما مات لم يترك دينارا ولا درهما.. بل كان يعيش حياة بسيطة جدا.. لو تأملوا في ذلك وحده، لعلموا مدى صدقك وإخلاصك.. وأنك لم تكن تمثل سوى الحقيقة، وبأجمل صورها.

ومما يزيد في تأكيد ذلك ـ سيدي ـ أنه كان يمكنك أن تنال ما تشاء من قومك وغيرهم إن أنت تركت دعوتك، واستسلمت لرغباتهم.. لكنك لم تفعل.. بل لم تطلب من الذين اتبعوك أو غيرهم جزاء ولا شكورا.. وإنما كانت حياتك كلها لله، ولم تكن تطلب شيئا إلا من الله.

اعذرنا ــ سيدي ــ فنحن الذين كان ينبغي لنا أن نتخذك أسوة لم نفعل.. فالدعاة عندنا أثرياء وجهاء.. تتنقل بهم السيارات الفخمة، ويملكون من كل شهوات الدنيا.. وبعضهم يملك حرسا خاصا.. والكثير منهم يتأفف لكلمة نقد بسيطة، ليس فيها تجريح ولا أذى.. في نفس الوقت الذي يتحدث فيه

عنك وعن سلا الجزور التي طرحت عليك..

فاعذرنا سيدي عن سوء خلافتنا لك، واعـذرنا في تشـويهنا لدعوتك الممتلئة بالصدق والتضحية، والتي حولناها إلى مصـيدة نصطاد بها الأموال والقلوب، لنهدم كل مـا بنيتـه، ونقضـي على كل تلك القيم الجميلة التي جئت بها.

الرحمة المهداة

سيدي يا رسول اللـه.. يـا من وصـفك ربـك، فقـال: ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـاعَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128]

لقـد رحت أبحث عن أكـبر وصـف أو لقب يعـبر عنـك، فلم أجد مثل هذه الآية الكريمة التي تصفك، وتصـف المصـدر الـذي صدرت منه، والمظهر الذي ظهرت به.

فأنت ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ رحمـة إلهيـة مهـداة إلى خلقـه، ليخـرجهم من عـالم الظلمـات الممتلئـة بـالآلام والكآبـة والحزن إلى عالم الأنوار الممتلئ بكل ألوان السعادة والسـرور والفرح.

أنت مثل ذلك الطبيب الذي وجد شيخا كبيرا مقعـدا مرميـا على الأرض، يلتــف بــه البعــوض والــذباب، وتنهشــه الحيــات والعقارب.. وتفترسه كـل ألـوان الآلام.. ظـاهرا وباطنـا.. فـراح يضع يد كرمه وشفائه عليه، فحوله من الشيخوخة إلى الشباب، ومن المـرض إلى الصـحة، ومن القعـود إلى النشـاط.. ثم أبعـد عنه كل ما يؤذيه ظاهرا وباطنا.. وملأه بكل ما يسـعده، ويملـؤه فرحا وأملا.. فتحول من حال إلى حال.

وهذا فعلك بنا، وبكل البشرية يا سيدي يا رسول الله..

فلولاك لعاش البشـر جميعـا في شـيخوخة الآلام، مقعـدين متألمين حزانى.. تحيط بهم الشياطين، وتسقيهم من كل ألـوان السموم..

ولـولاك لم نعـرف حقيقتنـا، ولا مصـيرنا.. ولا سـر الكـون الذي نعيش فيه، ولا سر الحياة التي نعيشها..

ولولاك لعشنا بما تمليـه علينـا أهواؤنـا، لا بمـا تمليـه علينـا حقائق الوجود.

أنت ــ سـيدي ــ هديـة اللـه لعبـاده، وحبلـه الـذي أرسـله لإنقاذهم.

وأنت ـ سيدي ـ ذلك الـداعي الـذي سـار في الأرض يبشـر بما أعد الله لعباده من فضله إن هم أطاعوه.

وأنت ــ سـيدي ــ ذلـك الحـريص الـذي كـان يمتلئ ألمـا لإعراض المعرضين، لا لأجلـه، وإنمـا لأجلهم.. فقـد كنت تـراهم

يتهـافتون في النـار تهـافت الفـراش، وأنت تـذبهم عنهـا، لكنهم يأبون إلا الوقوع فيها.

لقد عـبرت عن ذلـك بلسـانك البليـغ، فقلت: (مثلي كمثـل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولهـا جعـل الفـراش وهـذه الـدواب الـتي في النـار يقعن فيهـا، وجعـل يحجـزهن ويغلبنـه فيتقحمن فيها، فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النـار، هلم عن النار، هلم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها)(1)

وشـبهت حالـك وحـال قومـك، فقلت: (إن مثلي ومثـل مـا بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومـه، فقـال: يـا قـوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريـان فالنجـاء فأطاعـه طائفـة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم، وكـذبت طائفـة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتـاحهم، فـذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به، ومثـل من عصـاني، وكـذب ما جئت به من الحق)(2)

كان في إمكانك ـ سيدي ـ أن تكتفي بتبليغ الرسـالة، وأداء ما كلفت به كما تعود الناس أن يبلغوا الرسائل، ويؤدوا ما كلفوا به.. لكنك ـ ولكونك رحمة مهداة ـ لم تكن كذلك..

فقد كان الحزن الشـديد يعتريـك عنـد كـل إعـراض عنـك، وعن الهدي العظيم الذي جئت به، لأنك تعلم جيدا المصير الذي يصير إليه من أعرض عنك..

لقد ذكر الله تعالى ذلـك عنـك، ونهـاك عنـه، فقـال: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فـاطر: 8]، وقـال: ﴿ وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًـا وَكُفْـرًا فَلَا تَـأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 68]

بل إنه شـبه حالـك بحـال الـذي يهلـك نفسـه من الأسـف، فقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَـكَ(3) أَلَّا يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ ﴾ [الشـعراء: 3] وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]

1() صحيح مسلم 4/1789 ح(2284).

2() صحيح مسلم 4/1788 ح(2283).

3() قال الزمخشري [الكشاف عن حقائق غوامض التنزيـل (3/ـ 298)]: (البخـع: أن يبلغ بالذبح البخـاع بالبـاء، وهـو عـرق مسـتبطن الفقـار، وذلـك أقصـى حـدّ الـذبح، ولعـل للإشفاق، يعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مـا فاتـك من إسـلام قومـك ألّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا)

بل إنه ذكر أن حرصك الشديد عليهم، بلغ إلى درجة وددت فيها لو يجابون لكل آية يطلبونها، فقال:﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: 35](4)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تصور حالك، وأنت تدعوهم بكل ما أوتيت من قوة، ليعرضوا عن أهوائهم، ويتبعوا الحق الذي جئت به، لتتحقق لهم النجاة والفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

وقد كنت ــ سيدي ــ تتحمل في سبيل ذلك كل ألوان الغلظة والجفاء التي يبدونها لك.. وكنت تسمع كل ألفاظ البذاءة والشتائم.. لكنك لم تكن تبالي بنفسك.. بل كان حرصك عليهم، وخوفك على المصير الذي ينتظرهم يدعوك لتحمل كل شيء منهم.

لقد وصف الله تلك الرحمة العظيمة التي كانت تكسوك ظاهرا وباطنا، وأنت تتعامل مع جميع أصناف الناس، بل مع أغلظهم طباعا، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

ولذلك كنت نعم الصاحب لهم.. تفرح لفرحهم، وتحزن لحزنهم، وتشاركهم في كل شيء.. وتعيش معهم كأحدهم.. بل كنت ــ سيدي ــ خادما لهم، تسعى في مصالحهم، وتقضي حوائجهم، بكل لين ولطف وتواضع.

هكذا كنت ـ سيدي ــ مثالا للقيم النبيلة، والأخلاق العالية التي جئت لتتممها.

فاعذرنا سيدي.. فقد أصبح الذين يدعون أنهم يهتدون بسنتك، ويحيون حياتك، من أكثر الناس قسوة، وأغلظهم طباعا..

4() قال الزمخشري في تفسيرها [الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (2/ 19)]: (والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يودّ أن يجابوا إليها لتمادى حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون)

لقد حولوا الرحمة التي جئت بها إلى سكين حادة يذبحون بها الناس.

وحولوا ذلك اللين والصفاء واللطف الذي كنت عليه صراخا وصياحا ونهيقا.. دونه نهيق الحمير.

وحولوا كل البشارات التي جئت بها، لتملأ القلوب أملا في رحمة الله وعيدا وإنذارات.. لا بالحقائق، وإنما بالزيف الذي حرفوا إليه دينك، والذي عجنوه بأحقادهم وأهوائهم.

نعتذر إليك ـ يا سيدي يا رسول الله ــ من هؤلاء الذين حذرتنا منهم، وأعلمتنا بأنهم سيشوهونك، ويشوهون الهدي العظيم الذي جئت به، فقلت: (سيخرج قوم في آخر الزمان، حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)(1)

لكن قومي لم يبالوا بتحذيرك.. بل راحوا يسمونهم أهل سنة، وأهل حديث، وأنهم السنة تمشي.. وأنه لولاهم لضاع هديك..

ولو أنهم فتحوا أعينهم على غلظتهم وقسوتهم وجفائهم وألسنتهم البذيئة وقلوبهم المملوءة بالأحقاد، لعرفوا أنه يستحيل أن تجتمع سنتك مع القسوة.. وعرفوا أن معرفتك وحبك يملآن القلوب بالرأفة والرحمة.. وأنه يستحيل أن يحل في قلب مليء بالأحقاد معرفتك وحبك..

فمعرفتك وحبك ــ سيدي ــ لا تتنزل إلا على القلوب الطاهرة الممتلئة بكل المعاني السامية.. أما من عداها، فادعاؤها للحب والمعرفة، كادعاء المجرمين والمختلسين واللصوص للشرف والنبل والكرم.

1() رواه البخاري (3611) ومسلم (1066) وأبو داود (4767) والنسائي (7/ 119)..

القرآن الناطق

سيدي يا رسول الله.. أيها القرآن الحي الناطق..

لقد شاء الله برحمته، ولطفه بعباده، أن يجعلك نموذجا أسمى لكل تلك المعاني المقدسة التي تنزلت في آخر وصاياه وعهوده للبشر.. فمن شاء أن يقرأها قرأها في حروفه.. ومن شاء أن يشاهدها شاهدها في سلوكك وأخلاقك وتلك القيم النبيلة التي كنت تتحرك بها في الأرض، وتتحرك معك فيها حروف القرآن الكريم.

فإن شاء أن يرى عباد الرحمن، أولئك الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾ [الفرقان: 63 ـ 67] إلى آخر الآيات الكريمة.. وجد كل هذه المعاني متمثلة فيك، وبدرجاتها العالية التي تصلح أسوة لجميع الخلق، وفي جميع الأزمنة.

وهكذا إن شاء أن يرى المخبتين، أولئك الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الحج: 34ـ 35]، وجدك أولهم وسيدهم، فأنت صاحب القلب الرقيق الخاشع، الذي تدمع عيناه كلما ذكر ربه.. وقد حدث صاحبك الصادق المخلص ابن مسعود أنك طلبت منه أن يقرأ عليك بعض القرآن، فقال لك: أقرأ عليك وعليك أنزل؟، فقلت له: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري.. فراح يقرأ من سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 41]، التفت إليك، فوجد عيناك تذرفان بالدموع(1).

وإن شاء أن يرى أولئك الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

1() البخاري- الفتح 8 (4582). ومسلم (800)

[الذاريات: 17 -ـ 19]، وجدك في السحر.. بل قبله.. بل في أكثر الليل قائما لربك تناجيه، وتبكي بين يديه ممتلئا بكل قيم الروحانية.

وقد حدثت عائشة عنك، عندما طلب منها أن تحدثهم بأعجب شيء رأته منك، فبكت، وقالت: (كل أمره كان عجبا، أتاني في ليلتي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: (ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190، 191])[1].

وهكذا كنت تمثل الحقائق القرآنية بسلوكك وأخلاقك وروحانيتك.. حتى يراها الصادقون، فيزدادون طمأنينة وإيمانا.. وحتى يراها المشككون والمرتابون، فيزول عنهم كل ألوان الشك، ووساوسه إن كانوا صادقين في طلبهم.

وكيف لا تزول وساوسهم، وهم يرونك أول من يسارع لتطبيق أحكام ربه.. فإن صام الناس وجاعوا وعطشوا.. لم تكتف أنت بذلك، وإنما تواصل صومك بعد أن يفطروا.. وجوعك بعد أن يأكلوا.

وإن انصرف الناس إلى بيوتهم ليرتاحوا انصرفت أنت إلى ربك تناجيه وتعبده، وتمكث أكثر الليل في صحبته، حتى تورمت قدماك من كثرة القيام، وأشفق عليك أصحابك من طول سهرك في عبادة ربك.

وقد حدث ابن مسعود قال: صليت مع النبي ﷺ ليلة، فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء! قيل: وما هممت به؟

1() البخاري- الفتح 3 (6463)، ومسلم (2816)

قال: هممت أن أجلس وأدعه(1).

وحدث حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا: إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: (سبحان ربي العظيم) فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: (سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد) ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: (سبحان ربي الأعلى) فكان سجوده قريبا من قيامه (2).

وهكذا كنت في كل المواطن.. أحسن ممثل للحقائق القرآنية التي لا يمكن لأحد أن يتناولها من دونك، أو يزعم أنه يمكن أن يظفر بها من غير أن يمر على بابك.. فأنت باب القرآن.. وأنت الممثل لحقائقه..

وقد عرف من عاش مع ذلك، ولذلك كان أحسن تعريف مختصر لك عندهم هو أنك نفس قيم القرآن وأخلاقه ومعانيه؛ فيكفي من أراد أن يراك أن يقرأ ما ورد في سور القرآن الكريم عن المؤمنين وأخلاقهم وقيمهم.

وقد سئلت عائشة عن خلقك، فقالت في كلمة مختصرة: (كان خلقه القرآن)(3)، ثم قالت للسائل: (أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4])

وقرأ ابن مسعود الوصايا الواردة في آخر سورة الأنعام، ثم قال: (من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات)(4)

ولذلك كان القرآن الكريم أحسن معرف بك، وأفضل مؤرخ لك.. وكان المرجع الوحيد في الرد على كل الدسائس التي حاول أصحاب الملك العضوض إلصاقها بك لتشويه الدين وتحريفه، وتحويلك من ذلك المقام السامي الذي وصفك به القرآن الكريم إلى تلك الهوة السحيقة التي أنزلوك إليها

1() البخاري 2/ 64 (1135)، ومسلم 2/ 186 (773) (204)

2() رواه مسلم 2/ 186 (772) (203)

3() رواه مسلم: 1/ 746.

4() تفسير ابن كثير (3/ 359)

بأهوائهم وأمراضهم وتدليسهم.

العالم الراسخ

سيدي يـا رسـول اللـه.. يـا من علمـه ربـه من علـوم كـل شيء، فكانت علومه كلها لدنيـة وهبيـة، لا يحتـاج علم شـيء إلا وكان بين عينيه ويديه كما هو في حقيقته، لا يتطرق إليه الوهم، ولا يتسلل إليه الخطأ.

وكيف يتطرق إليه الوهم، أو يتسـلل إليـه الخطـأ، والمعلم هو الله الذي أحاط بكل شيء علما.. والذي لا يغيب عنه شــيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الدنيا ولا في الآخرة؟

وكيف يتطرق إليه الوهم، أو يتسلل إليـه الخطـأ، والتلميـذ هو أنت ـ يا سيدي يا رسـول اللـه ــ يـا صـاحب القلب الطـاهر، الذي هو كالمرآة الصافية، تتـنزل عليـه الحقـائق، فيتقبلهـا كمـا هي، وتفيض عليه العلوم؛ فيستوعبها جميعا من غير معاناة؟

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت سيد ولد آدم.. وقد أخبر اللــه أن آدم عليــه السـلام عُلم الأسـماء كلهـا.. وأن الملائكـة سلموا له بالخلافة بسبب ذلك.. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُـبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 31 - 33]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن منصب الخلافة الرفيـع، والذي كنت أنت ممثله الأعلى، ونموذجه الأسمى، يقتضي تـوفر علوم كثيرة جدا إلى الدرجة التي سـماها اللـه تعـالى [الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا]، بل إلى الدرجة الـتي عجـزت الملائكـة عليهم السـلام أن يعرفوها.. وهم من هم.. فإذا كان هـذا عظمـة العلم الـذي لقن لآدم عليـه السـلام، فكيـف بـالعلم الـذي لقن لـك يـا سـيدي يـا رسول الله؟

وكيف لا تكون كذلك، وقد أخبر الله تعالى أنه علم إبراهيم عليه السلام علوم الكون، وأراه حقائقها عيانا لا تلقينا، فقال: ﴿وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]

فهـذه الآيــة الكريمــة تشـير إلى أن علــوم الأنبيــاء عليهم

الصلاة والسلام علـوم رؤيـة ومشـاهدة، وليسـت علـوم تلقين.. لذلك لا يعتريها الخطأ، ولا يصـيبها الـوهم، ولا يـدركها القصـور.. فهل يمكن أن يكون ذلك لإبراهيم عليه السلام، ثم لا يكون لك، وأنت سيد الأنبياء جميعا، بل سيد الخلق جميعا؟

وهل يمكن أن يحصل ذلـك، وقـد أخـبر اللـه تعـالى أن من هم دونك بكثير، ومن هم دون إبراهيم عليه السـلام، وغـيره من الأنبيــاء، ومن الــذين أوتــوا بعض علم الكتــاب، اســتطاعوا أن يقهـروا كـل القـوانين الكونيـة الـتي نعرفهـا، وأن يطلعـوا على القوانين الخفية فيها، ويستخدموها، فقال عن صـاحب سـليمان عليه السلام: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْـلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40] فـإذا كـان هـذا علم صـاحب من أصـحاب سـليمان عليـه السـلام، وهـو علم مرتبـط ببعض الكتاب، فكيف بعلمك يا سيدي يـا رسـول اللـه، وهـو علم بكـل الكتاب؟

وهل يمكن أن يحصل ذلك، وقد أخبر الله تعالى أن مصـدر علمك لدني، وأنك لا تحتاج إلى أستاذ من البشر، يلقنك الحقيقة والأوهام المرتبطة بها، قال تعالى ـ يذكرك ـ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]؟

بل إنـك ــ يـا سـيدي يـا رسـول اللـه ــ أخـبرت بـذلك عن نفسك، فقلت ـ مخاطبا أصـحابك، ومعهم الأمـة جميعـا ــ: (إنِّي أرى ما لا ترَون، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماء أطت، وحـقَّ لها أن تئط، ما فيها موضـع أربـع أصـابع إلا وملـك واضـع جبهتـه سـاجدًا للـه، واللـه لـو تعلمـون مـا أعلم لضـحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)(1)

فمن تأمل هذا الحديث العظيم اكتفى بـه.. فـأنت الصـادق الأمين، تشهد لنفسك بما آتاك الله من فضله، بأن علومك أكـبر من أن يستوعبها أهل جيلـك أو غـيرهم، لـذلك كنت ترفـق بهم، فلا تلقي لهم من العلم إلا مـــا يمكن أن يفهمـــوه، وتســـتوعبه عقولهم، ولا يكون فتنة لهم.

وقد شهد أصحابك لـك بـذلك، فقـد أخـبر أبـو ذر عن بعض

1() رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

العلوم التي كنت تحدثهم عنها، فقال: (ولقد تَرَكَنا رسول الله ﷺ وما يُقَلِّب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه عِلمًا)(1)

وحدث أبو زيد الأنصاري قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)(2)

وحدث حذيفة قال: (قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)(3)

وهكذا وردت الروايات الكثيرة عنك، تخبر عن الحقائق العلمية التي كنت تبثها إلى الأمة، وفي المجالات المختلفة النفسية والاجتماعية.. بل والطبية والفلكية والجيولوجية وغيرها.. وما غاب عنا أكثر بكثير..

وكلها تتناسب مع مرتبتك العظمى التي بوأك الله إياها، فأنت ـ يا سيدي يا رسول الله ـ الإنسان الكامل الذي جعله الله قدوة ونموذجا للبشرية جميعا.. وعلوم الإنسان الكامل لا تحدها التخصصات، ولا تقيدها.. لأنها إن كانت كذلك كانت علامة جهل كبير.. فالمتخصص مقيد في سجن اختصاصه، ولذلك لا يفسر الأشياء إلا على ضوئها.. فالمسجون في سجن علم الاجتماع في سجن مدرسة من مدارسه يبني مواقفه على أساسها.. والمسجون في سجون علم النفس، والمسجون في سجون التخصصات المختلفة.. حتى التخصصات الدقيقة منها..

أما علومك أنت يا سيدي يا رسول الله، فهي تختلف عن تلك العلوم جميعا، لأنها تستقي من محيط صبت فيه جميع بحار العلوم والمعارف، أو كانت هي مصدر جميع العلوم والمعارف؛ فعلومك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ علوم ربانية تنبع من بحار علم الله الواسع، كما شهد لذلك قوله تعالى: لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

1() تفسير عبد الرزاق 1/200) وتفسير الطبري (11/348)

2() رواه ابن سعد.

3() رواه أبو داود.

شَهِيداً (النساء: 166)

فهل يمكن أن ينزل الله عليك شيئا من القرآن الكريم، ثم يحجب عنك علومه ومعارفه.. معاذ الله، وكيف يكون ذلك، وأنت المكلف ببيان القرآن الكريم، وهل يمكن أن تبين ما لا تعلم تفاصيل علومه؟

وما دمت كذلك ـ سيدي ــ وما دام القرآن الكريم حاويا لأصول علوم كل شيء، كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (النحل: 89)، فأنت ــ بلا شك ولا ريب ــ تحمل فروع تلك الأصول، وحقائق تلك المعاني، وتفسير تلك المجملات.

لقد غابت كل هذه الحقائق عن المستغرقين في عوالم أنفسهم الأمارة بالسوء؛ فراحوا يتوهمون أن قابليتك للعلوم تشبه قابليتهم، وأن قدرتهم المحدودة تشبه قدرتك.. وأنك لذلك لست بتلك الأوصاف التي وصفك بها ربك، أو وصفت بها نفسك.

وقد دعاهم إلى هذا ما يرونه من العلوم الكثيرة.. والتي ألفت فيها آلاف.. بل عشرات الآلاف من المراجع الضخمة.. وقد جعلهم ذلك يتوهمون أنهم إن نسبوا لك ما ذكره القرآن الكريم عنك من الرسوخ في العلم؛ فإن ذلك يستدعي أن تكون حافظا لكل تلك المراجع..

ما أعظم وهمهم ـ سيدي ــ فتلك المراجع الكثيرة يمكن تلخيص ما يفيد منها في كلمات معدودات.. هم يرون ذلك.. ويعلمون أن كل العلوم، وعلى مدار تاريخها الطويل، والممتلئ بالكثير من الأوهام، تخرج بقوانين ونظريات محدودة، تعبر عنها بكلمات أو رموز معدودة.

هم يعلمون أن المعادلة التي تنص على العلاقة بين كتلة جسيم وطاقته، والتي تعتبر الطاقة مساوية للكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء.. كتب من أجل الوصول إليها آلاف الأوراق، وبذل من الجهود ــ طيلة تاريخ البشرية ــ ما بذل من أجل التحقق منها.. ولم يكن ذلك في علم واحد.. بل في علوم كثيرة.. ولهذا فإن من وصل إليها لن يكون مضطرا للتعرف على كل تلك التفاصيل التي أدت إليها.

وهكذا يمكن أن يكتفي من يريد أن يصل إلى حقائق علم الفلك جميعا، بعيدا عن كل الأوهام التي تسربت إليها عبر

التاريخ أن يشاهد فلما واحدا يريه المجرات والنجوم والكـواكب وغيرها.. ليبز بعلمه حينها كل من مـر في التـاريخ، وهـو متعلـق بأوهام كثيرة.

فإذا كان هذا حال من يشاهد فلما.. فكيف بمن كـان قلبـه مرآة ومرصدا يرى الكون والإنسان والمجتمـع وكـل شـيء كمـا هو بالفعل، لا كمـا يوصـف لـه.. وهـل يحتـاج المبصـر لشـرح أو توضيح أو إطالة تفصيل.. وهل الخبر كالعيان؟

ليت الأمر توقف عند هؤلاء.. بل إن بعضهم ممن يزعمـون أنهم يعرفوك، راحوا يشكلون على هذا الوصف فيك.. ويضربون جميع تلك الآيات القرآنية، والأحـاديث القطعيـة، بحـديث وضـعه أعداؤك الذي آلمهم ألا تكـون مثلهم في جهلهم وضـلالهم، حيث رووا أنك لما قـدمت المدينـة، وجـدتهم يلقحـون النخـل، فقلت: (ما تصنعون؟) قـالوا: كنـا نصـنعه، فقلت: (لعلكم لـو لم تفعلـوا كان خيرا)، فتركوه، فتأثرت محاصيلهم لذلك، فذكروا ذلك لـك، فقلت: (إنما أنا بشر، إذا أمـرتكم بشـيء من دينكم فخـذوا بـه، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر)(1)

ولم يكتفوا ـ لجهلهم ـ بهذه الرواية، بل عضدوها بالروايات الكثيرة، وذكروا أن الحادثة متعددة، أي أنـك مـررت على نـاس متعددين، وأخبرتهم جميعـا بـأن التـأبير لا منفعـة فيـه.. ثم تـبين للجميـع أن أخـذهم بنصـيحتك أضـر بهم، فكنت أنت سـبب مـا حصل لهم ولمحاصيلهم، وفي أول دخولك للمدينة.

فهل يعقل هذا، وهل يعقـل أن تكـون أول نصـيحة تقـدمها للفلاحين نصيحة تضر بهم، وبمنتوجهم الذي يعتمـدون عليـه في حياتهم؟

لقد راح كل أولئك يتعلقون بهذه الرواية المدسوسة عنـك، ليشيعوا بين الناس مسلمهم وغير مسـلمهم، بـأن علومـك غـير المرتبطة بالشريعة، هي نفس علوم قومك، وأن الأخطـاء الـتي كانت لديهم، كانت لديك.

لقد قال بعض المعاصرين يذكر ذلك، ولا يستحيي منـه: (لا يجب أن يكون اعتقاده ﷺ في أمور الدنيا مطابقا للواقع، بل قد يقع الخطأ في ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا، بـل قـد يصـيب غـيره حيث يخطئ هـو ﷺ.. وليس في ذلـك حـطّ من منصـبه العظيم

1() رواه مسلم..

الـذي أكرمـه اللـه بـه؛ لأن منصـب النبـوة مُنصـب على العلم بـالأمور الدينيـة: من الاعتقـاد في اللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليوم الآخر، ومن الأمـور الشـرعية. أمـا إن اعتقـد دواء معينـا يشفي من مـرض معين، فـإذا هـو لا يشـفي منـه، أو أن تـدبيرا زراعيا أو تجاريـا أو صـناعيا يـؤدي إلى هـدف معين، فـإذا هـو لا يؤدي إليه، أو يؤدي إلي عكسه، أو أن تـدبيرا عسـكريا أو إداريـا سينتج مصلحة معينة، أو يدفع ضررا معينا، فإذا هو لا يفعل، فإن ذلك الاعتقاد لا دخـل لـه بـالنبوة، بـل هـو يعتقـده من حيث هـو إنسان، له تجاربه الشخصية، وتأثراتـه بمـا سـبق من الحـوادث، وما سمع أو رأى من غيره؛ مما أدى إلى نتائج معينة. فكل ذلـك يؤدي إلى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشـر، ثم قـد ينكشـف الغطاء فإذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد)(1)

وقال آخر، وهو من القدامى، يتهم ما جـاءت بـه الروايـات عنك في حفظ الصحة، والنصائح العظيمة المرتبطة بها: (الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيـل، وليس من الـوحي في شيء، وإنما هو أمر كـان عاديـاً للعـرب، ووقـع في ذكـر أحـوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلـة، لا من جهـة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمـل، فإنـه ﷺ إنمـا بعث ليعلمنـــا الشـــرائع، ولم يُبعث لتعريـــف الطب ولا غـــيره من العاديات. وقد وقـع لـه في شـأن تلقيح النخـل مـا وقـع، فقـال: (أنتم أعلم بـــأمور دنيـــاكم...)؛ فلا ينبغي أن يُحمـــل شـــيء من الطب الـذي وقـع في الأحـاديث المنقولـة على أنـه مشـروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إذا اسـتعمل على جهـة التـبرك وصدق القصد الإيماني، فيكون له أثر عظيم النفـع، وليس ذلـك في الطب المزاجي)(2)

وقال آخر: (أما أحوالـه ﷺ في أمـور الـدنيا؛ فنحن نسـبرها على أسلوبها المتقدم بالعقد والقول والفعـل؛ أمـا العقـد منهـا، فقد يعتقد في أمور الدنيا الشـيء على وجـه ويظهـر خلافـه، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع - ثم ذكر حديث تأبير النخل - ثم قال: وهذا على ما قررنـاه فيمـا قالـه من قبـل نفسـه في أمـور الـدنيا وظنـه من أحوالهـا لا مـا قالـه من قبـل

1() انظر ملفا بعنوان [الطب النبوي.. رؤى نقدية أحاديث "الطب النبوي".. هـل يُحتج بها] على إسلام أون لاين وغيره من المواقع.

2() مقدمة ابن خلدون: ص493.

نفسه واجتهاده في شرع شرعه وسنة سنها.. فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة، ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيها ما ذكرناه، إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية)(1)

وغيرها من الأقوال الكثيرة التي ألغي بها القرآن الكريم تعلقا بالحديث الذي يسمونه حديث [تأبير النخل]، والذين محوا به كل ما ورد في القرآن الكريم من أنك لا تنطق عن الهوى، وكل معارفك وعلومك لدنية.

ولو أنهم اكتفوا بقراءة قوله تعالى في حقك: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3ـ 4]، لعلموا أن هذه الآيات وحدها كافية لتكذيب كل رواية تخالفها، لكنهم لا يرجعون للقرآن، بل ينسخون معانيه بما يصلهم من الروايات التي دسوها عليك، حتى يقللوا من شأنك.

ولو أنهم رجعوا إلى الأحاديث التي يعتبرونها نفسها، لوجدوا الحقيقة، وعلموا أنه يستحيل عليك أن تقول شيئا يخالفه الواقع، وكيف يكون ذلك، وهل ذلك إلا الكذب المحض؟

لو أنهم ـ يا سيدي يا رسول الله ـ رجعوا لتلك الرواية التي حدث بها عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء؟ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق)(2)

هل رأيت سيدي المصدر الذي أخذوا منه ذلك الموقف، إنها قريش التي استكبرت عليك، وعادتك، وبعد أن رأت انتصاراتك المتوالية، لم تجد إلا أن تتبعك، وفي قلبها كل تلك الأحقاد عليك؟

لا نملك ـ يا سيدي يا رسول الله ــ إلا أن نحزن على تلك

1() الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 2 /183- 185.

2() رواه أبو داود.

العقول التي لم تعرفك.. والـتي امتلأت بالأوهـام والجهـل الـذي حجبها عن أن تستوعب فضل الله عليك..

فنسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ــ يـا من يجـير من التجـأ إليه، ولا يرد من اسـتغاث بـه، أن تجيرنـا من تلـك الفهـوم، وأن تحفظ عقولنا وتغيثها من أن تتسـرب إليهـا تلـك الأوهـام، حـتى نزداد حبا لك، وتقديرا لما وهبك الله من فضله العظيم.

العارف المحقق

سيدي يا رسول الله.. يا أعرف الخلق بالله، وأعلمهم به، وأقربهم منه، وأكثرهم ذكرا له، وأهداهم في الدلالة عليه.

ما عسى مثلي أن يتحدث عن معرفة مثلك بالله، وبحقائق الوجود، وأنت الذي قلت لأولئك الذين أرادوا أن يتخذوا لسلوك طريق المعرفة منهجا غير منهجك: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)(1)

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي تنزل عليك القرآن الكريم، وهو دائرة المعارف الكبرى لكل حقائق الوجود.. وما تنزلت عليك آية إلا وقد عشتها، وذقتها، وتنزل عليك من فهمها ومعانيها وأسرارها ما لا تطيقه الخلائق؟

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي كنت تبصر بعيني بصرك وبصيرتك ما لا يطيق غيرك أن يبصره، أو يدركه، وقد كنت تقول في ذلك: (أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وملك واضع جبهته لله ساجدا)، ثم عقبت على ذلك بقولك: (والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، وما تلذّذتم بالنّساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله)(2)

وكيف لا تكون ذلك، وأنت الذي سماك الله عبدا.. ولا ينال حقيقة العبودية إلا من نال شرف المعرفة بالله.. فكمال العبودية دليل على كمال المعرفة.

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي أراك الله من آياته الكبرى، وعرج بك في السموات العلى، وما بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى

1() رواه البخاري- الفتح 13 (7301) واللفظ له. ومسلم (2356)

2() الترمذي (2312) وقال: حديث حسن واللفظ له، وابن ماجة (4190) وقال محقق جامع الأصول (4/ 13): إسناده حسن. وأحمد في المسند (5/ 173)

(12) وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرَى (13) عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّـدْرَةَ مَـا يَغْشَـى (16) مَـا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)﴾ [النجم: 1 - 18]

فهــذه الآيــات الكريمــة تــدل على أن معارفــك باللــه، والملائكة، والأنبيـاء، وجميـع حقـائق الوجـود، معـارف مشـاهدة وعيان، لا لبس فيها.. وليست مجـرد معلومـات ألقيت إليـك من غير أن تكون قد رأيتها أو عشتها.

ولهذا، فإن من ذكر رؤيتك للـه لم يكن كاذبـا في ذلـك؛ فلا يمكنـك أن تكـون دليلا على اللـه وأنت لم تـره.. وكيـف لا تـراه أنت، وقد قال تلميذك الأكبر الإمـام علي لمن سـأله: هـل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: (ويلك ما كنت أعبـد ربّـا لم أره)، قـال: وكيـف رأيتـه؟ فقـال: (ويلـك لا تدركـه العيـون في مشـاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)(1)

وكيف لا تراه، وأنت الذي ذكرت مقام الإحسـان الـذي هـو دون مقامك بكثير، فقلت لمن سألك عنه: (أن تعبـد اللـه كأنّـك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)(2)

وكيــف لا تكــون معارفــك كلهــا معــارف رؤيــة وشــهود، وتلاميذك الذين هم أدنى منك بكثير كانوا يرزقون رؤية بعض ما ترى، وقد روي عن صـاحبك الحـارث بن مالـك الأنصـاري قـال: مررت بالنبي ﷺ فقال: (كيف أصبحت يا حارث؟) قال: أصـبحت مؤمنا حقا. فقال: (انظر ما تقول؟ فإن لكل شيء حقيقـة، فمـا حقيقة إيمانك؟) فقال: قد عزفت نفسـي عن الـدنيا، وأسـهرت لذلك ليلي، واطمأن نهاري، وكأني أنظر إلى عـرش ربي بـارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: (يا حارث عرفت فالزم)(3)

لم تكن معارفك ـ سيدي يا رسول اللـه ــ معـارف قاصـرة عليك، بل كنت تبثها بأبلغ عبارة، وأجمـل بيـان، حـتى يعيش من يسمع كلماتك الحقائق كما هي من غير تبديل ولا تحريف.

وقـد ذكـر بعض صـحابتك تـأثير كلماتـك فيهم، فقـال: (يـا

1() أصول الكافي، 1، 98..

2() البخاري- الفتح 1 (50) واللفظ له. ومسلم (90)

3() مصنف ابن أبي شيبة 6/ 170 ح (30425)، المعجم الكبير للطبراني 3/ 266 ح (3367)

رسول الله، نكـون عنـدك تـذكّرنا بالنّـار والجنّـة، حتّى كأنّـا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضّيعات، نسينا كثيرا)، فقال رسول الله ﷺ: (والّـذي نفسـي بيـده إن لـو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم)(1)

ولهذا، فإن الثروة العظيمة من كلماتـك الممتلئـة بـالأنوار، وأدعيتك ومناجياتك التي تدل على كل حقائق الوجود ومعانيه لا يمكن مقارنتهـا بكـل تـراث البشـرية.. فلـو جمعنـا مـا كتب في جميع الديانات، وما تنزلت به جميع الكتب المقدسة، ومـا تفـوه به كل القديسين على مدار التاريخ سابقه ولاحقه، ما وصل إلى جزء بسيط من تلك الثروة العظيمة التي لا نزال نتنـور بنورهـا، ونتزود بمعانيها.

ولو قارنا ما تركته لنا من حيث المعنى بمـا جـاءت بـه كـل الـديانات، ومـا ذكـره كـل القديسـين.. لوجـدنا الفـروق الهائلـة العظيمة.. فأنت كنت تغترف من البحر الـذي لم يكـدر، والمنبـع الذي لم يبدل..

ولو أضفنا إلى تلك الثروة العرفانية العظيمـة الـتي تركتهـا مـا تركـه لنـا ورثتـك وعترتـك الـذين لم ينهلـوا إلا من منهلـك العذب.. لمـا كـان لغـيرك ظهـور معـك.. وهـل يمكن للكـواكب البعيدة أن تظهر مع الشمس الساطعة التي لا يحجبها شيء؟

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمـل كلماتـك وأدعيتـك وحـديثك عن ربك وحديثك عن الوجود، فعشت معان سامية لا يمكن أن يعـبر عنهـا إلا من ذاقهـا من كأسـك، فـأنت الـذي تسـقي أمتـك من حوضك في الدنيا قبل أن تسقيهم في الآخرة.. ومن لم يشـرب من حوضك في الدينا، فلن يشرب منه في الآخرة.

ما عساي أن أقول لك ـ سيدي رسول الله ـ وأنا أرى أمتك تعرض عن كثير مما تركته لهم من معارف صافية خالصة نابعـة من بحر حقائق الوجـود المقـدس.. إلى أنهـار مدنسـة بـالأهواء، ممتلئة بوحي الشيطان.

لقد تركوا ـ سيدي ـ أدعيتك ومناجياتك التي قلتها، أو قالهـا عترتـك الطـاهرون الوارثـون لـك، واخـترعوا كثـيرا من الأدعيـة البديلة.. وبألفاظ ركيكة، وبمعـاني ممتلئـة بـالغموض.. ليتقربـوا

1() مسلم (2750)

بها إلى الله، فلم يزدادوا منه إلا بعـدا.. فمـا عـرف اللـه من لم يعرفك، وما عرف الله من سلك غير سبيلك، وما عرف الله من زهـد فيمـا جئت بـه، وراح يطلب الحكمـة من غـير مـدنها ولا أبوابها.

يا سيدي يا رسول الله.. هم لم يكتفـوا بـذلك.. بـل راحـوا إلى الإسـرائيليات والغنوصـيات الشـرقية والغربيـة.. ولكـل من هب ودب ينهلـون منـه حقـائق الوجـود، وكـأن المعـارف الـتي جئتهم بها نقية خالصة لم تكن كافية لتروي ظمـأهم المعـرفي.. فراحــوا يمزجــون العســل المصــفى الــذي جئتهم بــه بميــاه المستنقعات المكدر.. فاختلط الدين عليهم.. وأصبحت المعرفة بالله مجموعـة من الطلاسـم الـتي تصـرف عن اللـه أكـثر ممـا تعرف به، أو تقرب إليه.

يا سيدي يا رسول الله.. فأسألك أن تنقـذني من كـل تلـك الأوهام التي نشرها المؤثرون لغيرك، حـتى تكـون أنت أسـتاذي ودليلي وشيخي..

وأسألك أن تزج بي في بحر المعارف الخالصة النقية الـتي جئت بهـا، ودعــوت إليهـا، حـتى لا يتسـرب إلى عقلي، ولا إلى قلــبي، ولا إلى حقيقــتي تلــك الأهــواء الممزوجــة بوســاوس الشياطين.. فأنت صاحب الشفاعة العظمى، والجاه العظيم.. لا ترد من سألك، ولا تخيب من طلبك.. ولا تصد من استجار بــك.. بـل تؤويـه وتطعمـه وتسـقيه من طعامـك الـذي ذكرتـه، فقلت: (وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)(1)

1() البخاري- الفتح 13 (7241) واللفظ له، ومسلم (1104)

الإمام الممكّن

سيدي يا رسول الله.. يا من بوأه الله بعد النبوة والرسالة منصب الإمامة الإلهية الرفيع، ومكن له في الأرض، ونشر اسمه في العالمين، فصار إمام العالم ظاهرا وباطنا، من عرفه واتبعه وسلك سبيله وصلى خلفه كان من الناجين الفائزين السابقين، ومن راح يبحث عن غيره، أو رضي بسواه بدلا كان كأولئك الذين طلبوا الذلة بعد العزة، والسراب بعد الماء، والظلمات بعد النور.

وكيف لا يكون أمرهم كذلك، وقد أخبر الله تعالى عن الرسل عليهم السلام، وأنهم مع مكانتهم الرفيعة، أخذ عليهم الميثاق باتباعك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81ـ 82]، وقد ورد في تفسيرها عن تلميذك الأكبر الإمام علي قوله: (ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه)(1)

ولهذا كان التبشير بك، والدعوة لاتباعك جزءا من دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد أخبر الله تعالى عن المسيح عليه السلام قوله لقومه: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]

ولا يزال في أناجيلهم إلى اليوم قول المسيح عليه السلام موصياً تلاميذه: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع

1() تفسير ابن جرير الطبري (2/ـ 236)، وتفسير ابن كثير (1/ـ 386)، وتفسير البغوي (1/ 322)

منزلاً.. الذي لا يحبني لا يحفـظ كلامي، والكلام الـذي تسـمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأمـا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهـو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل مـا قلتـه لكم.. قلت لكم الآن قبـل أن يكون، حتى متى كـان تؤمنـون، لا أتكلم أيضـاً معكم كثـيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء) (يوحنـا 14/ـ 15 - 30)

ولهذا كنت أنت إمام الأنبيـاء الـذين تشـرفوا بلقائـك، وقـد ورد في حـديث الإسـراء قولـك: (وقـد رأيتـني في جماعـة من الأنبياء.. فحانت الصلاة فأممتهم)(1)

ولهـذا ورد في الأحـاديث الكثـيرة أنـك في ذلـك الموقـف الشـديد الـذي تقفـه الخلائـق يـوم الحسـاب، وبعـد أن يجهـدوا للبحث عمن يكــون إمــامهم وقائــدهم وواســطتهم إلى اللــه للشـفاعة بتعجيـل الحسـاب، تكـون أنت إمـام ذلـك الموقـف وسيده.. ولو أنهم بادروا إليك من أول الحسـاب لمـا ظلـوا فيـه لحظة واحدة.

لقـد كنت تغضـب سـيدي عنـدما تـرى من يريـد أن يـأتم بغـيرك، أو ينهـل الحقـائق والقيم من سـواك، ولم يكن غضـبك لنفسك، فأنت أرفع وأعظم من أن تغضب لها، وإنما كان غضبك لترك المنبع الصـافي الممتـد لمصـدر الحقيقـة، والاغـتراف من الروافد الصغيرة، الممتلئة بالدنس، وقد روي أن بعضهم جاءك، فقال: (يا رسول الله، إني مررتُ بأخ لي من قُرَيْظَة، فكتب لي جَوَامـعَ من التـوراة، ألا أعرضـها عليـك؟)، فقلت لـه: (لـو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى)(2)

كان غضبك سيدي كغضب الطبيب من المريض الذي يترك العلاج عنده، ويذهب إلى المشـعوذين والـدجالين ليـدمر صـحته باتباعهم، وتـرك من جعلهم اللـه واسـطة لحفـظ صـحته، وعلاج أدوائه.

ولذلك كنت أنت يا رسول الله ولا تـزال ترياقـا يعـالج كـل هموم الأمة ومشـاكلها.. وكنت ولا تـزال الإكسـير الأحمـر الـذي يحــول حالهــا من أســوئها إلى أحســنها.. وكنت أنت المنقــذ

1() مسلم (172)

2() رواه أحمد (3/ـ 387، رقم 15195) قـال الهيثمى (1/ـ 174): رواه أحمـد، وأبـو يعلى، والبزار.

والمغيث للأمة والمخلص لها من كل الأزمات.

وقد شهد لك بذلك من عرفوك ولو لم يتبعوا سبيلك، وقد قال المفكر والأديب الإنجليزي [جورج برنارد شو] عنك: (ما أحوج العالم الى محمد ليحل مشاكل العالم وهو يحتسي فنجان قهوة)

وقال [ليتسين] مخاطباً لك بأبيات من الشعر يقول فيها: (يا ابن مكة ويا نسل الأكرمين.. يا معيد مجد الآباء والأمهات.. يا مخلص العالم من ذا العبودية.. إن العالم ليفتخر بك.. ويشكر الله على تلك المنحة العزيزة.. ويقدر لك مجهوداتك كلها.. يا نسل الخليل إبراهيم.. يا من منحت السلام الى العالم.. ووفقت بين قلوب البشر.. وجعلت الخلاص شعارك.. يا من قلت في شريعتك: إنما الأعمال بالنيات.. لك منا جزيل الشكر)

وقال [ساديو لويس]: (لم يكن محمد نبي العرب بالرجل البشير للعرب فحسب. بل للعالم. لو أنصفه الناس. لأنه لم يأت بدين خاص بالعرب. وأن تعاليمه الجديرة بالتقدير والإعجاب تدل على أنه عظيم في دينه. عظيم في أخلاقه. عظيم في صفاته. وما أحوجنا الى رجال للعالم أمثال محمد نبي المسلمين(

لكن الكثير من أمتك سيدي ـ مع كل هذا الكمال والجمال الذي كنت عليه، وجئت به ــ أعرضوا عنك، وراحوا يعملون أهواءهم، ويقتبسون من الشرق والغرب، ويخلطون ذلك ببعض هديك كما يفعل من يخلط السم بالعسل.. فأوهمهم العسل أنهم على هديك، وأنك إمامهم لكن السم كان يسري في حقائقهم ليدمرها، ويشوهك، ويشوه هديك.

لقد ذكرت سيدي ذلك، وحذرت منه، ودعوت إلى صفاء المنبع، فقلت: (والّذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقّ فتكذّبوا به أو بباطل فتصدّقوا به، والّذي نفسي بيده لو أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كان حيّا ما وسعه إلّا أن يتّبعني)(1)

وقد أخبرت سيدي عن ذلك الدخن الذي يختلط فيه هديك بغيره، فقلت لمن سألك: (هل بعد ذلك الشّرّ من خير؟)، فأجبته قائلا: (نعم، وفيه دخن)، فسئلت: وما دخنه؟ فقلت:

1() رواه أحمد (3/ 387)، والدارمي برقم (441)

(قوم يستنّون بغير سنّتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر)(1)

ولذلك كنت تحذر من البدع، واتباعها، وتعتبرها أكبر من يصرف الناس عن إمامتك، ليتخذ الناس بعدك أئمة جهلة يضلون ويُضلون، وكنت تقول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)(2)

بل إن القرآن نطق بذلك، ودعا إليه، وحذر من تركك إلى غيرك، وقد ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

وقد حدث ابن مسعود عن تفسيرك للآية، واستعمالك لبيانها ما يوضحها أحسن توضيح، فقال: خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا فقال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطا عن يمين الخط ويساره وقال: (هذه سُبل، على كل سبيل منه شيطان يدعوه، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153] يعني الخطوط التي عن يمينه ويساره)(3)

فهذا الحديث يبين أن سبيل الحق واحد، وسبل الشيطان متعددة، وأن الحق قد يختلط بالباطل حتى يتوهم الناس أنه الحق.. ويبين فوق ذلك كله أنك أنت مصدر الحق وإمامه.. ومن ينهل الحق من غيرك ضل.

ولهذا كان ورثتك الصادقون يحذرون من أولئك الذين تركوك، وراحوا يأتمون بغيرك، وقد قال الإمام علي، لمن رآهم يهجرونك، ويتبعون غيرك: (أيُّها الناس إنّما بَدْءُ وقوع الفتن، أهواءٌ تُتَّبع، وأحكام تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله، يتولى فيها رجال رجالاً، فلو أنّ الباطل خلص لم يُخف على ذي حجى، ولو أنّ الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)(4)

1() مسلم (1847)

2() البخاري الفتح 5 (2697) واللفظ له. ومسلم (1718)

3() أحمد (1/ 435، 465) رقم (4141)، (4436) والحاكم (2/ 318)

4() الكافي، 1/ 55.

وقال: (إنّ من أبغض الخلـق إلى اللـه عـزّ وجـلّ لـرجلين: رجل وكلّه الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشـغوف بكلام بدعة، قد لهج بالصـوم والصـلاة فهـو فتنـة لمن أفتتن بـه، ضال عن هَدي من كان قبلـه، مضـل لمن اقتـدى بـه في حياتـه وبعد موته، حمّال خطايا غيره، رهنٌ بخطيئته) (1)

وقال: (وأما أهل السُـنّة فالمتمسـكون بمـا سـنّه اللـه لهم ورسـوله، وإن قلّـوا، وأمـا أهـل البدعـة فالمخـالفون لأمـر اللـه تعالى وكتابه ولرسوله، والعاملون برأيهم وأهوائهم، وإنْ كـثروا، وقد مضى منهم الفـوج الأول، وبقيت أفـواج، وعلى اللـه فضُّـها واستئصالها عن جدبة الأرض)(2)

وسـأله رجـل عن السُـنّة، والبدعـة، والفرقـة والجماعـة، فقـال: (أمّـا السُـنّة: فسـنّة رسـول اللـه ﷺ وأمّـا البدعـة، فمـا خالفها، وأمّا الفرقة، فأهـل الباطـل وإنْ كـثروا، وأمّـا الجماعـة، فأهل الحق وإن قلّوا)(3)

فنسألك يا سيدي يا رسول الله، يـا عظيم الجـاه، بمـا لـك من وسـيلة عنـد اللـه، أن تجعلنـا من المـؤتمين بـك في كـل شؤوننا، وأن نسير على هديك، وعلى سراطك المسـتقيم الـذي لم يغـير ولم يبـدل، حـتى نلقـاك، وأنت راض عنـا، فـرح بنـا، لتسقينا بيدك الشريفة ماء الاستقامة والطهارة الذي لا نضل ولا نظمأ بعده أبدا.

1() الكافي، 1/ 55.

2() كنز العمال، 16/ 184 | 44216.

3() تحف العقول، 211.

القائد الملهم

سيدي يا رسول الله.. أيها القائد الملهم الحكيم الذي استطاع من غير جيوش جرارة، ولا إرث حضاري عريق، أن يخرج أمة من البدو والأعراب، وفي فيافي ومفازات مجدبة قاحلة، من كل آثار التخلف والبداوة، إلى كل قيم التقدم والحضارة.. وفي سنين معدودات، على الرغم من كل ألوان المواجهات التي تعرض لها.. ولم يكتف بذلك، بل استطاع أن يؤسس لدولة صارت لها القدرة على مواجهة أكبر الإمبراطوريات وتحديها.

ولم يحصل ـ سيدي ـ مثل هذا في التاريخ جميعا.. لا للقادة التاريخيين، ولا للأنبياء والمرسلين.. وكان ذلك وحده كافيا للعقول الجادة الصادقة أن تبحث عن سر ذلك المدد الإلهي الذي أمددت به، والإلهام العظيم الذي ألهمك الله إياه، لتسير في ركاب النصر، متحديا كل العقبات إلى أن بلغت أمتك أوجها بين الأمم.. وكان ذلك كله بقيادتك الحكيمة.

وقد كان في إمكان الأمة لو التزمت هديك، ولم تخالف وصاياك، أن تنشر علم الهداية في الأرض جميعا، ومن غير جيوش ولا سيوف.. لكن داء الأمم من قبلها تسرب إليها، فخالفت ما عاهدتك عليه، فحاق بها ما نزل بكل المخالفين لرسلهم، وكنت البريء، وكانوا الضحايا.

لا أزال أذكر سيدي كيف كنت في مكة المكرمة، وبين قومك الممتلئين بالقسوة، وأنت تقول لهم، بعد أن عرضوا عليك أن تملكهم، وتقودهم بما يرغبون، لا بما ترغب الحقيقة مخاطبا عمك الولي الصالح: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) (1)

ولا أزال أردد معها ما أنزل الله عليك حينها يأمرك بأن تخاطب الكافرين، وتتبرأ من كل الجرائم التي يدعونك إلى تأييدها حتى تنال القبول عندهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ

1() الروض الأنف (3/ 45)

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿6﴾ [الكافرون: 1 - 6]

لقد كنت حينها ـ سيدي ـ وكان أتباعك في منتهى الضعف والفاقة والحاجة، وكانوا يُضربون بكل السياط، ويُسلط عليهم كل ألوان البلاء.. لكنك كنت تأبى أن تضحي بالمبادئ من أجل المصالح.. أو أن تبيع شريعة الله بشريعة الأهواء.

كان بعض المشركين حينها قد رأى فيك مخايل النجابة والعبقرية، وعلم أنه سيكون لك شأن عظيم، وأن دعوتك ستنتصر؛ فلذلك راح يبتهل الفرصة، ويقول لصاحبه، وهو يحاوره: (والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب)، ثم راح يساومك في تلك الأوقات الصعبة، قائلا: (أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟)، فقلت له، بكل هدوء، مع أنك محتاجا لمن ينصرك، ويعينك على قومك المناوئين لك: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)، فقال لك: (أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك) (1)

وهكذا كنت ــ سيدي ــ تحمي دعوتك من كل المندسين والانتهازيين الذين يريدون تشويه المبادئ لحساب المصالح.. لا كما يفعل أولئك القادة الذين يتركون كل قيمهم من أجل مصالح محدودة.

ولم يكن هذا الجانب الفريد في قيادتك.. بل كنت مدرسة للقيادة، وفي أجمل صورها، وأكمل معانيها.. ولو أن البشر جميعا تخلوا عن كل ما درسوه في القيادة، وراحوا يتأملون حياتك، وكيف كنت ولا تزال القائد المخلص، لنهلوا القيادة من أعذب مواردها.

إنهم يرون القادة، يتبجحون، ويستكبرون، وقد يصلون إلى بعض أهدافهم المحدودة، بعد أن يذيقوا من كان معهم أصناف الهوان.. لكنهم عندما يتأملون قيادتك الحكيمة، يرون تواضعك لأصحابك، ورأفتك بهم، ومخالطتك لهم، وكأنك أحدهم، لا تتميز عنهم بشيء، وقد قال بعضهم يصفك: (والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى

1() سيرة ابن هشام (1/ 424)

نــبي اللــه ﷺ لقيــه، كــان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده)(1)

ووصـفك آخـر، فقـال: كـانت في رسـول اللـه ﷺ خصـال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمـر، ولا أسـود، إلا أجابـه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بهـا إلى فيـه، وإنـه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يـركب الحمـار عريـا، ليس عليه شيء) (2)

وعنـدما لقيـك بعضـهم، وتـوهم أنـك تشـبه كـل القـادة والزعماء أصـابته رعـدة، فقلت لـه مهـدئا: (هـون عليـك، فـإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)(2)

وعندما رآك بعض الأعـراب جاثيـا على ركبتيـك، كمـا يجثـو العبيد، مع أنك كنت حينها في قمة قوتـك، قـال لـك: يـا رسـول الله ما هذه الجلسـة؟ فقلت: (إن اللـه عـز وجـل جعلـني عبـدا كريما، ولم يجعلني جبارا عنيدا)(3)

لقد أشـفق حينهـا بعض أصـحابك عليـك من كـثرة ازدحـام الناس ومخـالطتهم، وقـال لـك: (يـا رسـول اللـه إني أراهم قـد آذوك، وآذاك غبارهم، فلـو اتخـذت عريشـا تكلمهم فيـه)، فقلت لــه: (لا أزال بين أظهــرهم يطئــون عقــبى وينــازعوني ثــوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم) (4)

ولهـذا كنت تعتـبر الحجـاب نوعـا من الاسـتبداد، وقـد قلت محذرا من يتولون القيادة في أمتـك من الاحتجـاب عن الرعيـة: (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين، فاحتجب دون حــاجتهم وخلتهم وفقـرهم، احتجب اللـه دون حاجتـه وخلتـه وفقـره يـوم القيامة) (5)

وهم يـرون القـادة ــ مـع ضـعفهم وقصـورهم ــ يسـتبدون بــالرأي، ولا يشــاورون رعيتهم، ولا من يكونــون معهم.. لكنهم يرونك بخلاف ذلك؛ فمع أن الله تعـالى أمـدك بإلهامـه ووحيـه..

1() رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر ـ وقال: هذا حديث مرسل ـ وقـد جـاء معنـاه في الأحاديث المسندة.

2() رواه ابن سعد.

3() رواه ابن ماجه.

4() رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

5() رواه أبو داود، والترمذي.

ومـع أنـك في ذاتـك في قمـة العبقريـة والحكمـة إلا أنـك كنت تستشيرهم، وتنزل عند رأيهم، ولو خالف رأيـك، وقـد قـال اللـه تعالى يثـني عليـك بـذلك، ويـدعوك إلى الاسـتمرار عليـه، حـتى يكون ذلك قدوة لكل القادة:﴿فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد غزوة أحد، والتي خـالفت فيها رأيك، ونزلت فيها عند رأيهم، وكـان ذلـك سـبب مـا حصـل من انتكاسـة، وكأنهـا تقـول لـك: (اسـتمر على مشـاورتهم، ولا تتراجع بسبب ما حصل.. ففي ذلك الخـير والبركـة، وإن جـاءت النتيجة في إحدى المرات على غير ما تحب، فالعبرة بالعاقبة)

ولذلك تروي كتب السيرة والسنن الكثـير من مشـاوراتك؛ فقد شاورتهم في غزوة بدر، قبـل القتـال، وفى أثنائـه، وبعـده. ولم تدخل المعركة إلا بعد أن اطمأننت على رضا جمهورهم.

وشاورتهم في غزوة أحـد؛ فـنزلت إلى رأى الأكثريـة الـتي تخالف رأيك، وخرجت إلى المشركين، مع أنك كنت ترى البقـاء والقتال داخل المدينة.

وشـاورتهم في الخنـدق، وقـد أشـار عليـك حينهـا سـلمان الفارسي بالاقتداء بما كان الفرس يفعلونه للـدفاع في الحـرب، وقال لك: (يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خنـدقنا علينـا)؛ ففعلت ما ذكره، ورحت كواحد من الناس تشتغل بالحفر معهم، وكلما صعب عليهم الحفر في موضع، انتدبوك لتقوم بذلك.

لقد كـانت تلـك الغـزوة الـتي اجتمعت فيهـا كـل الأحـزاب لتستأصل الإسلام من جذوره، أعظم دليل على قيادتك الحكيمة للأمـة، فقـد أنقـذت المسـلمين من تلـك المـؤامرة بصـبرك وحكمتك، وارتد المشركون والمنـافقون واليهـود وغـيرهم ممن تألبوا عليك فارغي الوفاض، لا يقـدرون على شـيء.. بـل زادت مهابتك في قلوبهم، فلم يتجرؤوا على أن يجتمعوا مجددا.

لقد ذكر الله تعـالى تلـك المواقـف الحرجـة الـتي مـر بهـا المسـلمون، وكيـف كنت السـبب في خلاصـهم، فقـال: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالًا شَـدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: 10 - 13]

وهكذا كان الجميع يتذرعون للفرار من المعركة.. لكنك بحكمتك استطعت أن تنتصر، ومن غير سفك للدماء.

وفوق ذلك كله كانت قيادتك لمجتمع متنوع، فيه كل أصناف التمييز والطبقية والعنصرية، ومع ذلك استطعت أن تملأ حياتهم بالانسجام، وأن تخلصهم من تلك العصبيات، وأن تنشر بينهم قيم الأخوة، لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

لقد استطعت ـ سيدي ـ في ظل قيادتك الحكيمة أن تمحو كل تلك الفوارق الاجتماعية التي كانت تملأ حياة المجتمعات جميعا، فقد كنت تردد عليهم كل حين: (إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى وفاجر شقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن) (1)

وهكذا كانت قيادتك ــ سيدي ــ على خلاف قيادة غيرك، ممتلئة بالتواضع والرحمة واللطف والقيم.. وفوق ذلك كله كانت ممتلئة بالزهد والعفاف والنبل.. فلم تكن تطلب من وراء تلك الخدمات العظيمة التي قدمتها للأمة أي أجر.. وقد أمرك الله تعالى أن تقول: ﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام:90)، وأن تقول: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:57)، وأن تقول: ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ:86)

ولهذا اعتبر من أدلة صدقك لكل المناوئين والمشككين، عفافك عن الأموال والمصالح، قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:40)، وقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً

1 () رواه أحمد (2/ 523، رقم 10791)، وأبو داود (4/ 331، رقم 5116)، والبيهقى (10/ 232، رقم 20851). وأخرجه أيضا: الترمذى (5/ 735، رقم 3956)

فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المؤمنون:72)

فأنت ـ سيدي ـ لم تكن لتنال على تلك الوظيفة الخطيرة التي كلفت بها، والتي جعلتك مشغولا في كل الأوقات، لا ترتاح ليل نهار، أي أجر سوى الأجر الذي أعده الله لك.

بل إن الله تعالى فوق ذلك أمر بأن تعيش جميع حياتك ـ مهما فتح الله عليك من الدنيا ـ بتواضع وزهد وبعد عن الملذات التي يتهافت عليها الناس، قال تعالى: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر:88)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:131)

هذه سيدي بعض ملامح قيادتك للأمة.. وهي كافية لأن تجعلك أسوة صالحة للقيادة الحكيمة، التي لا تريد جزاء ولا شكورا، وإنما تهدف إلى تحقيق العدل والرحمة، ونشر الخير والبركة.

ولو أن الأمة استنت بسنتك.. لما حصل لها هذا التخلف والاستبداد الذي نعانيه، ذلك أنها تركتك، وتركت وصاياك، وراحت تستن بسنة كسرى وقيصر، وحولت دينك من دين العدالة إلى دين الجور، ومن دين الرحمة إلى دين الاستبداد والقسوة.

فنسألك يا سيدي يا رسول الله، وأنت وسيلتنا العظمى، أن تكون أنت قائدنا وقدوتنا، حتى لا تمزقنا الطوائف، ولا تشتتنا المذاهب، ولا تفرقنا الملل.

واجعلنا سيدي تحت لوائك في الدنيا والآخرة، حتى ننال شرف الجندية ضمن جنودك الذين لا ينقطعون، وفي جميع الأزمنة.

ونعوذ بك أن نفرق صف أمتك، أو نخلفك فيها بسوء، أو نسيء إلى تعاليمك المقدسة، أو يدب إلينا داء الأمم من قبلنا.. إنك تجير من استجار بك، وتحمي من التجأ إليك، وتجيب من سألك، فجاهك العظيم عند الله، ومقامك الرفيع عنده أرفع من أن يرد يدي خائبتين.

المبلغ الأمين

سيدي يا رسول الله.. يا من اختاره الله لتبليغ آخر كلماتـه المقدسة للبشر، فبلغها كما سمعها، لم يغير ولم يبـدل.. وبلغهـا لكل الناس بجميع طبقاتهم، فلم يستثن منهم أحدا.. وبلغهـا في كل الظروف اللينة والقاسـية.. وكـان أمينـا في كـل ذلـك.. فلم تختلط كلماته بكلمات اللـه، ولا الهـدي الـذي نطـق بـه بالهـدي الذي أنزل عليه مع أن المنبع واحد، والسراج واحد.

ولو أن أولئك المتحذلقين المـدعين للعقلانيـة، صـدقوا مـع عقـولهم، واكتفـوا منـك بهـذا البـاب من أبـواب الدلالـة عليـك، لأوصلهم إليك، ولكان مقدمة لهم ليعرفوك.

فلو أنهم نظروا إلى الظروف التي كانت تتنزل عليك فيهـا كلمات ربك، وقارنوها بالظروف التي كتب فيها كل العباقرة مـا كتبوه لوجـدوا أن الكلمـات الـتي بلغتهـا يسـتحيل أن تكـون من عندك.

فالعبـاقرة أو من يظنـون أنفسـهم كـذلك، كـانوا يكتبـون كلماتهم في ظل التمجيد والتعظيم والتقـديس، بينمـا كنت تبلـغ كلمات ربك، وأنت محاط بأولئك القساة الذين كـانوا يسـخرون منك ومنها، ويستعملون كل وسائل الإيذاء والتنفير التي وصـفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَسْـمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26]، وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَـا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْـهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 4، 5]

وقد كان الوحي حينها يتنزل عليك بكل أصناف الحجج التي ترد عليهم، وتـبين لهم أن مصـدر الكلمـات الـتي جئتهم بهـا من الله، وليس من عندك، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقـان: 6]، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَـا تُبْصِـرُونَ (38) وَمَـا لَا تُبْصِـرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَـا تُؤْمِنُـونَ (41) وَلَا بِقَـوْلِ كَـاهِنٍ قَلِيلًا مَـا تَـذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيـلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيـلِ (44) لَأَخَـذْنَا مِنْـهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَـا مِنْـهُ الْـوَتِينَ (46) فَمَـا مِنْكُمْ مِنْ أَحَـدٍ

عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: 38 - 47]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تخبر أنك مبلغ عن الله، وأن الذي جئت به ليس من عندك..وقد كان في إمكانك ـ سيدي لو كنت كما يذكرون ــ أن تنسب تلك الكلمات إليك، وحينها سينبهرون بك، وببلاغتك المعجزة، وسيصبحون جميعا من أتباعك، وليس أولئك العبيد والفقراء فقط.. وحينها كان يمكن أن يتوجوك بتاج الملك عليهم..

وهذا وحده كاف للعقول في كونك رسولا لله، وأن ما جئت به ليس من عندك.. وإلا فإنهم لو لاحظوا كل الشعراء والأدباء والفلاسفة وغيرهم، وحرصهم على نسبة كل كلمة أو جملة إليهم، وفرحهم بما يكتبونه أو يذكرونه، لعرفوا أنه يستحيل أن تكون تلك الكلمات النورانية المعجزة من عندك.

وكيف تكون من عندك، وهي تدعوك، وفي تلك الظروف القاسية، أن تترك الأمر لله، ليعذبهم، أو يرحمهم، لأنك مجرد مبلغ عن الله، ولست مكلفا بهدايتهم أو السيطرة عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:41)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى:6)، وقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (قّ:45)، وقال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:22)، وغيرها من الآيات الكريمة التي تنزع عنك كل مسؤولية على العباد، وتجعل الأمر لله وحده.

ولو أنهم ـ سيدي ــ نظروا في تلك الآيات التي تدعوك لمقابلة سخرية الساخرين واستهزاءهم بالعفو والصفح والحلم، لعلموا أن الأمر خارج عن عالم البشرية، وأن الذي قال تلك الكلمات أقدس من أن تؤثر فيه البيئة أو الظروف المختلفة.. فقد كان القرآن حينها ينزل ليقول لك: ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: 88،ـ 89]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: 97 - 99]

ولو أنهم ـ سيدي ـ تأملوا في تلك الآيات التي تعاتبك، بل تشتد عليك، لعلموا أنه يستحيل أن يعاتب الشخص نفسه،

وبتلك الشدة، وقد قالت عائشة تخبر عن بعض تلك الآيات، وأنها دليل على كونك لم تكتم شيئا من الوحي الذي أنزل عليك: (لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا مما أنزل الله عليه، لكتم هذه الآية على نفسه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37])(1)

وقد جاء بعدها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، وهو يدل على أنك ــ سيدي ـ لحرصك على إيمان الناس كنت تتمنى أن توافقهم في بعض ما يطلبونه من الشؤون الخاصة بك، حتى لا يكون ذلك فتنة لهم.

لكن الله تعالى كان ينهاك عن ذلك، ويخبرك أن الفتنة ضرورية للتمحيص، حتى يتبين الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 60]

ولذلك ورد في القرآن الكريم بعض الشؤون الخاصة بك، والتي لا يزال الناس يُمحصون بها.. فالله تعالى في القرآن الكريم يعاتبك قائلا: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 1 - 3]

ويقول لك فيه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ

1() رواه أحمد (43/ 166)، و الترمذي (3208)

يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 50]

وغيرها من الآيات الكريمة التي كان يمكن ألا ينزل فيها القرآن الكريم، ولكن الله شاء أن يتنزل بها، حتى تكون فتنة وتمحيصا لأولئك الذين يزعمون أنهم يُعملون عقولهم، ثم يعطلونها بما تشاء لهم أهواؤهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 124 - 126]

ولذلك كنت المبلغ عن الله الأمين في تبليغك؛ فلم تراع حرصك على إيمان الناس، وإنما راعيت ما كُلفت به، حتى لو كنت خائفا من أن يكون ذلك فتنة لبعض من اتبعوك، وقد قال الله تعالى يأمرك بالبلاغ في شأن إمامة الإمام علي من بعدك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:67)

وحين نزلت عليك هذه الآية الكريمة، وكنت تعلم أن تبليغ ما كلفت بتبليغه سيكون فتنة عظيمة، لكنك فعلت تنفيذا لأمر الله.. وقد ورد في الحديث المتواتر أنك بعد نزولها عليك طلبت أن يقام لك من حدائج الإبل، فصعدت عليه، ثم قلت: (إنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي مسئول، وأنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟)، فقالوا: نشهد أنّك قد بلّغت، ونصحت وجهدت فجزاك الله خيرا.. ثم قلت لهم: (ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ، وأنّ ناره حقّ، وأنّ الموت حقّ، وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور...)، فقالوا: بلى نشهد بذلك، فقلت: (اللهمّ اشهد)، ثم قلت: (إنّي فرط على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبصرى، فيه أقداح عدد النّجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلّفوني في الثّقلين؟.. الثّقل

الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللّطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا)

ثمّ أخذت يد الإمام علي بيدك الشريفة، ثم رفعتها، حتى بان بياض إبطيهما، ثم قلت مخاطبا الجموع الكثيرة: ((أيّها النّاس، من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟)، فأجابوا: الله ورسوله أعلم، فقلت: (إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه)، ثم كررت ذلك، وأكدته، ثم ختمه بقوله: (اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشّاهد الغائب)(1)

لقد كنت تعلم تأثير ذلك في الناس، وخاصة في القرشيين الذين كانوا يتوهمون أن الإمامة منصب دنيوي، وأنه كما كان لبني هاشم النبوة، كان لغيرهم من القرشيين الإمامة، لكنك مع ذلك بلغت أمر الله، ولو أنك كنت تعلم أنهم لن ينفذوه..

ولذلك أثنى الله تعالى عليك، وأنك كنت المبلغ لكل حقائق الدين وقيمه، وبأحسن صورة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: 39]

هذه بعض جوانب أمانتك في التبليغ، وحرصك عليه.. ولا يمكننا أن نحيط بها جميعا.. فقد كنت القرآن الناطق الذي لم يكتف بتبليغ الكلمات، وإنما أعطى النموذج الدال عليها، والشارح لها.. فكانت حياتك كلها بلاغا عن الله، وبكل جزئياتها وتفاصيلها.

وكانت كذلك على الرغم من ثقل التكليف الذي كلفت به، والذي جعلك لا ترتاح ليلا ولا نهارا.. وقد قال تعالى يخبر عن تلك المشقة التي كنت تلقاها، والتعب الذي كان يصيبك: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (

1() ما أوردناه هنا هو من روايات متفرقة وردت في الصحاح والسنن وغيرها، انظر: صحيح مسلم (2408) والترمذي (3788) واللفظ له. وغيرهما كثير.

5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 1 - 6]

لقد كان ذلك البلاغ الذي كلفت به غير خاص بالخلق فقط، وإنما كان يبدأ بك، بل كانت أشد التكاليف تتنزل عليك، وتعفي غيرك، فمع أن غيرك من المؤمنين أعفي من قيام الليل إلا أنك كنت مطالبا به على الرغم من تعبك الطويل في النهار، ومشقة الأعمال الكثيرة التي كنت تقوم بها.. لقد قال تعالى يأمرك بذلك: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

وكنت لذلك تسهر أكثر الليل قائما لله إلى أن تفطرت قدماك.. ثم إذا استيقظ الناس لصلاة الفجر كنت أولهم، بل موقظهم.. ثم تقضي بعد ذلك سائر النهار في تلك الأعباء الكثيرة التي كلفت بها.. وفي وسط مملوء بالمعاندين والمنافقين والمشاغبين الذين لا يكاد أحد يطيقهم، وهم متفرقون، لكنك أطقتهم وهم مجتمعون.

ولم تكن تطلب من ذلك التعب الكبير جزاء ولا شكورا، بل إن الوحي كان يتنزل عليك حينها ليأمرك بالزهد في كل المتاع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131]

وحينما اشتكى أزواجك تلك الحال التي كانوا يعيشون عليها من الفاقة، وطلبوا منك تحسين وضعية معيشتهم أنزل الله عليك قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 28، 29]

وقد ورد في التفسير أنها بمجرد أن أنزلت عليك، رحت تدعوهن ليخيرنك أو يخيرن زهرة الحياة الدنيا، فاخترنك جميعا.. وهل يمكن لعاقل أن يختار غيرك.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ـ أن تتوسل إلى الله بأن أكون وارثا لك في البلاغ؛ فأصبر كما صبرت، وأدعو كما دعوت، وأتحمل كما تحملت، ولا ألين كما لم تلن.. حتى أكون من أهل قولك: (نضر الله عبدا سمع مقالتي هذه فحملها، فرب حامل الفقه فيه غير فقيه، ورب حامل الفقه إلى من هو أفقه منه)

(1)

وحتى أحشر مع الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يخـافون فيـه لومـة لائم.. وحـتى أكـون تحت لـواء الصـادقين معـك يـوم القيامة.. فلا ينال شرف الدخول تحت ذلك اللواء في الآخرة إلا من كان تحته في الدنيا.

وأسـألك ألا أكـون من الـذين يبلغـون مـا لا يفهمـون، أو يدعون إلى ما لا يسـتوعبون، أو يخـالفون بأفعـالهم مـا يبلغونـه بأقوالهم، حتى لا يكون بلاغي فتنـة وتشـويها لـدينك ورسـالتك.. فإنك يا سيدي يا رسـول اللـه لا تـرد من اسـتجار بـك، أو طلب شفاعتك..

1() رواه أحمد (21/ 60)، وابن ماجه (236)، والبيهقي في الشعب (7514)

الواعظ الخطيب

سيدي يا رسول الله.. يا من جعل الله كلماتك البليغة ترياقا للقلوب، وشفاء للصدور، ومحركا للجوارح.. فلا يسمعها صادق إلا تخلى عن كسله، وأخذ كتابه بقوة، وتحول من متمرد معارض إلى مؤمن مسالم.

لقد رحت أتأمل كلماتك ومواعظك التي بلغتنا، وقارنتها بكل مواعظ البلغاء والخطباء والأئمة، من المسلمين وغيرهم، فوجدت أنك ملك الخطباء والوعاظ، وأصدقهم، وأكثرهم تأثيرا.

ووجدت أن كلماتك لا تبليها الأيام، ولا تؤثر فيها السنون، ولا يجعلها التكرار مملة، بل هي دائمة الجدة والحياة، وتؤثر في كل الأوقات.. لأن معانيها تنبع من بحر الحقيقة الذي لم تكدره دلاء الأهواء والوساوس.

وكيف لا تكون مواعظك كذلك، وأنت الذي لم تعظ إلا بالإذن الإلهي الخاص، الذي دعاك إليه ربك، فقال: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء:63)، والله ما دعاك لذلك إلا بعد علمه بتوفر كل القدرات المرتبطة به لديك..

ولذلك لم تكن مواعظك سيدي مطربة للآذان ببلاغتها فقط، وإنما كانت مطربة أيضا للأرواح والأنفس، حيث تتسلل إليها بكل رفق، لأنها تنطلق من تلك المعرفة اللدنية التي وهبك الله، والتي جعلتك ترى الحقيقة الإنسانية أمامك بكل لطائفها وجوانبها، فتخاطبها جميعا، لتثير أشواقها لسلوك طريق الحقيقة المستقيم.

وكيف لا تكون مواعظك كذلك، وأنت الذي تنزل عليك القرآن الكريم بحروفه ومعانيه، والقرآن الكريم هو كتاب المواعظ الأكبر، الذي يخاطب كل اللطائف، وبجميع اللغات التي تفهمها، كما قال تعالى يصفه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:57)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (النور:34)، وقال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 138)

وكيف لا تكون مواعظك كذلك، وأنت الذي اجتمعت لديك

كل المعاني والأدوات التي لم تجتمع للخطباء جميعا.. فأنت مثل ذلك الذي يصف شيئا يراه، ويدعو إليه، عن عيان، لا عن سماع، ولذلك كانت مواعظك ممتلئة بالحياة، وقد عبرت عن ذلك، فقلت: (إن اللّه لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب)(1)

بل إن الله تعالى وصفك بذلك، ووصف معه حرصك الشديد على إيمان الناس وصلاحهم، لأنك ترى رأي العين النيران التي يقحمون فيها أنفسهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]

وكيف لا تكون كذلك، وأنت عين من عيون رحمة الله لعباده، بل أنت الرحمة الكبرى، بل شمس الرحمة التي تفيئ إلى دفئها جميع الخلائق؟

ولذلك كانت كلماتك ترياقا يعالج النفوس، ومعراجا تعرج به الأرواح، وإكسيرا تتحرك فيه الذوات أسمى حركة جوهرية عرفها الوجود..

لا أزال أذكر سيدي تلك الموعظة البليغة التي وعظت بها شابا صغيرا هو ابن عمك ابن عباس.. وقد ملأني ذلك انبهارا وإعجابا وتأثرا؛ فأنت تعظ الجميع، وفي كل المحال، ولا يعنيك أن تنصب لك المنابر، أو يجتمع الناس حولك..

لقد ذكر ابن عباس موعظتك له، فقال: كنت خلف النبي ﷺ يوما فقَالَ:(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعَنْ باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(2)

ما أجمل هذه الكلمات، وأعظم تأثيرها، فهي تتسلل إلى

1() رواه أحمد، وأبو يعلى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (7/ 210)

2() رواه أحمد (1/ـ 307)، والترمذي (2518) مختصرا، وقال حديث حسن صحيح، وفي رواية غير الترمذي:« احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ».

النفــوس والقلــوب لتملأهــا بالحكمــة والجــد.. فهي لا تــذكر المطــالب فقــط، وإنمــا تعــد بــالمواهب.. لعلمهــا أن النفس الإنسانية مثل ذلك التاجر الـذي لا ينشـط إلا حيث يجـد الأربـاح، ولا يتكاسل إلا حيث يفقدها..

ولذلك ذكرت له أن كـل معاملـة يعامـل بـه الإنسـان ربـه، سيعامله ربه بها.. فإن حفظ الله حفظه.. وإن سأل الله أجابه.. وإن توكل على اللـه أعانـه.. وإن رجـا اللـه حقـق رجـاءه.. وإن خاف الله أمنه من كل مخافة.. وهكـذا كـان يمكن لابن عبـاس، ولكل من سمع هذه الموعظة البليغة أن يبحر فيهـا إلى معـاني كثيرة جدا، لا تفيد عقله فقط.. إنمـا تفيـد قلبـه وروحـه ونفسـه وكل لطائفه، لتحركها جميعا نحو شمس الحقيقة، وتجعلـه مقبلا عليها برغبته وكليته.

وهكذا كانت كل مواعظك، ولذلك كان الجالسون إليـك، أو إلى مواعظـك الـتي لا نـزال نحفظهـا، لا يجـدون أنفسـهم إلا وأعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق.

وقد وصف بعض أصحابك ذلك، فقال:(وعظنا رسـول اللـه ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب..)(1)

وهــو لا يريــد من كونهــا بليغــة مــا يتوهمــه المتكلفــون والمتنطعون والمتقعرون من كثرة محسناتها البديعية، وسجعها، وغـريب ألفاظهـا، فـأنت أبعـد النـاس عن ذلـك، وبلاغتـك الـتي استفدتها من الوحي المنزل عليك أعظم من أن تسـجن نفسـها في سجون الألفاظ والـتراكيب.. ولـذلك كـانت بلاغـة موعظتـك في قــدرتها على التوصــل إلى إفهــام المعــاني، وإيصــالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة وأجملها وأحلاها وأكثرها تأثيرا.

أما ذلك التكلف الممقوت الـذي راح بعض الخطبـاء يشـوه به المعاني التي جئت بها، فقد كنت تنهى عنه، وتحذر منه، وقـد قلت في ذلك: (إنّ الله عزّ وجلّ يبغض البليغ من الرّجـال الّـذي يتخلّل بلسانه تخلّل البقرة بلسانها)(2)

وكنت تعتبر أولئك المتكلفين المتنطعين أبعد النـاس عنـك، وعن الهدي الذي جئت بـه، وقـد قلت في ذلـك: (إن من أحبكم

1() رواه أبو داود (4607)، وابن ماجـة (42)، أحمـد (4/ـ 126ـ 127)، الحـاكم (1/ 96/ 97).

2() أبو داود (5005) واللفظ له، الترمذي (2853) وقـال: حـديث حسـن غـريب من هذا الوجه.

إليّ وأقربكم مجلساً مني يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون)[1]

ولذلك كانت مواعظك ـ سيدي ـ مرسلة سهلة بسيطة، ولكنها مع ذلك عميقة دقيقة، لا يمكن تغيير لفظة عن محلها، ولا تبديلها بأخرى.

وكانت لذلك قصيرة يمكن لمن شاء أن يحفظها، ليرددها كل حين ويتأثر لمعانيها.. فالكلام الطويل يؤثر بعضه على بعض، وينسخ بعضه بعضا، وقد ورد في الحديث أنك لم تكن تطيل الخطبة يوم الجمعة، وقد ذكر ذلك آخر، فقال:(إن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه)[2]

وكنت سيدي في مواعظك تنتهج ما أمرك به القرآن الكريم من الموازنة بين التبشير والإنذار؛ فأنت المبشر النذير الذي يعرف النفوس ودوافعها، فيحركها بكل لطف، لتهذب نفسها بنفسها، وبلين ولطف من غير إكراه وعنف.

وكنت سيدي في مواعظك تستعمل كل ما آتاك الله من الأساليب.. فتقص عليهم القصص، وتذكر لهم الأمثال، وتبين لهم أنواع العبر التي يمكن أن يعتبروا بها.

وأنت في ذلك تنفذ ما أمرك به ربك من تلك الأساليب التي لا يزال البشر يعتبرونها أرقى أساليب التأثير والتربية، وقد قال لك ربك: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: 176)

بل إن الله تعالى هو الذي تولى تعليمك فن القصص التربوي، فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف:3)، وأخبر عن تأثير القصص في نفس المتلقي، فقال: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود:120)

وهكذا كنت تضرب في مواعظك الأمثال، وتعبر لهم عن معانيها، تأدبا بما علمك ربك؛ فالقرآن الكريم هو مدرسة الأمثال الكبرى، وأنت تلميذه الأكبر، ولذلك لا غرابة أن تكون أمثالك مدرسة لهذا الفن العظيم من فنون المواعظ.

1() رواه أحمد (6/ 446) وأبو داود (4799)

2() رواه البخاري (4/231) ومسلم (7/167)

لست أدري ما أقول لـك سـيدي.. وكيـف أشـكو لـك حـال المواعظ بعدك، وكيف تحولت إلى بضاعة يتاجر بهـا المتكلفـون المتنطعـون لاسـتدرار العواطـف من غـير أن يكـون لهـا تـأثير حقيقي.. حيث يكون همهم ذلك التأثير العاطفي المحـدود الـذي لا ينبني عليه أي عمل.. بخلاف مواعظـك سـيدي، والـتي تصـف الداء والدواء.. وتتسلل إلى النفـوس والقلـوب والجـوارح، وتملأ الحياة بالحركة الإيجابية النافعة الممتدة، التي لا يتوقف تأثيرهـا على تلك اللحظات المحدودة.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ وأتوسـل بـك إلى ربي أن يجعلـني من المسـتنين بسـنتك في الوعـظ والهدايـة.. حـتى تكـون كلمـاتي دواء لا داء.. وترياقـا لا سـما.. ومعراجـا يصـعد بالإنسان، لا هاوية يسقط فيها.. فإن قوما من الـواعظين الـذين زعموا أنهم يستنون بسنتك راحوا يعظون باسمك؛ فملأوا الـدنيا خرابا، وملأوا حياة الناس شقاء.. وشوهوك وشوهوا دينك أعظم تشويه.

البشير النذير

سيدي يا رسـول اللـه.. يـا من أرسـله اللـه ليحمـل أعظم الحقـائق للبشـر، وأكثرهـا تعلقـا بسـعادتهم وشـقاوتهم، فكـان البشـير الـذي يبشـر بالسـعادة وأبوابهـا ومفاتيحهـا في الـدنيا والآخرة، وكان النذير الذي يحذر من كل ما يحرم من السـعادة، ويجلب الشقاء، وفي كل الشؤون، وكل الأزمنة.

لقد تأملت كل المبشرين والمنـذرين في الـدنيا؛ فوجـدتهم أقزاما بجنبك، وبجنب ما جئت بـه.. فـالطبيب يبشـرنا بالصـحة، ويحذرنا من المرض.. لكن الصحة سرعان مـا تتهـدم، والمـرض سرعان ما يتغلب.. والنشوة التي حصلت بهـا البشـارة سـرعان ما تزول.

والأسـتاذ يبشـرنا بالنجـاح، ويحـذرنا من الرسـوب.. لكن نشوة النجاح تذهب مع الأيام.. والسرور الذي صاحبها يتلاشـى.. ولا تبقى منه إلا الذكريات التي قد تنسـى حلاوتهـا، وقـد تتحـول إلى مرارة.

وهكذا.. فإن كل المبشرين أو المنـذرين غـيرك.. يبشـرون بشؤون قاصرة محدودة.. أو ينذرون من أمور يفيد إنذارهم فيها زمنـا محـدودا، لا ممـدودا.. ولـذلك يتلاشـى التبشـير والإنـذار بتلاشيها.

أما أنت يا سيدي يا رسول الله.. فتبشـيرك وإنـذارك يمتـد للأبد.. فأنت جئت لذلك الإنسان البسـيط المحـدود الـذي ينظـر إلى تعاقب الليل والنهار كل حين، لينتظر اللحظـات الـتي يحـل عليه فيها العجز والمرض والموت.. وهو ممتلئ بـالخوف منهـا.. ومن المصير الذي سيصير إليه..

جئت إليه لتخبره أنه لا داعي لكل تلك الآلام.. فمـا يعيشـه في الـدنيا ليس سـوى مرحلـة اختبـار.. وأنـه بعـد نجاحـه في الاختبار سيتحول إلى عالم مملوء بالجمال، تتحقق لـه فيـه كـل الأمنيات.. فـالفقير يغتـني.. والمـريض يشـفى.. والشـيخ يصـير شابا.. والمبتلى يصير معافى.. والذي فقد أحبابه يعودون إليـه.. والذي فقد مسكنه أو لم يجد أين يلجأ سـيجد القصـور في تلـك الـدار الـتي لا يصـيبها المـوت، ولا الفنـاء.. ولا تـنزل بأرضـها الزلازل.. ولا تتنزل من سمائها حمم البراكين.

ولم تأت لتخبره بذلك فقط.. وإنما جئت تذكره بالطريق المستقيم المختصر الذي يوصله إلى تلك المحال الشريفة الممتلئة بالسعادة من غير معاناة ولا ألم.

وجئت لتخبره بالعقبات التي تقف بينه وبين تلك المحال السعيدة.. والشقاوة التي تنتظره إن هو لم يتجاوزها، أو سكن إليها، أو سكن إلى أعدائه ووسوستهم.

وكل هذه المعاني لا يمكن أن تكون لغيرك ـ سيدي. فكل المبشرين أو المنذرين السائرين على غير طريقك، لم يتجاوزوا هذه الدنيا، وما يرتبط بها من سعادة ورفاه.. ولذلك كانت بشاراتهم وإنذاراتهم محدودة قاصرة، لا تلبي حاجات النفس التي لا تنتهي.. وطمعها الذي لا يملؤه إلا الخلود.

لذلك كنت ـ سيدي ـ باب السعادة الأكبر.. فمن وصل إليك دخل مدينة السعادة التي لن يخرج منها أبدا..

ولا أقصد بالسعادة ـ سيدي ــ سعادة الآخرة فقط.. بل سعادة الدنيا أيضا.. فأنت لم تبشرنا بالجنان فقط، وإنما بشرتنا بربنا.. وأخبرتنا أننا لسنا مهملين على هذه الأرض، وإنما لنا رب رحيم كريم لطيف، نحن نأوي إلى كنفه، ونأكل من رزقه، وننهل من خيره، فكل مفاتيح سعادتنا بيده.. فلذلك كانت صلتنا به هي الجنة، وكان تواصلنا معه هو الحياة الحقيقية التي لا يحلم بها من لم يعرفه، أو يعرف لذة وصاله.

سيدي يا رسول الله.. لم تكن تلك المعاني العظيمة التي ملأت قلوبنا بشارة بها مجرد أماني أو أحلام أو أفكار فيلسوف، أو خيالات أديب.. وإنما كانت حقائق مؤيدة بالمعجزات الباهرة، والدلائل الواضحة.. فأنت لم تكن تنطق من عند نفسك، وإنما من وحي ربك.

فربك هو الذي أمرك بأن تخبر عبادك عنه، وتعرفهم به.. وربك هو الذي قال لك: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:49 ـ 50)، وهو الذي قال لك: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (لأعراف:156)، وهو الذي قال لك:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم:7)

ولذلك كان من وظائفك التي ندبك لها، وسماك بها، كونك بشيرا ونذيرا، قال تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: 119)، وقال:﴿ وَمَا

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (سبأ:28)، وقال على لسانك: إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (لأعراف:188)، وقال: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (هود:2)

وهكذا، فإن كل تفاصيل البشارات والإنذارات التي جئت بها، والتي تملأ الدنيا والآخرة بالسعادة الحقيقية لم يكن مصدرها إلا الله.. فالله هو الذي أعطاك البشارة، وهو الذي أعلمك بمصير المبشرين، وبالإعمال التي عليهم القيام بها ثمنا للبشارة.. قال تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:25)، وقال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)، وقال: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة:112)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تبين حقيقة البشارة، ومظاهرها، ووسائطها التي تكفل تحققها، أو التي لا تتحقق من دونها.. ولذلك لم تكن بشاراتك مجرد نشوة أو فرح زائل، وإنما كانت مصدرا لهمة عظيمة، وتغيير يرتبط بالحياة جميعا..

ولهذا كان المؤمنون بك، الصادقون معك، لا يفرحون بشيء كما يفرحون بتلك البشارات التي تزفها إليهم، لتنسيهم كل همومهم.. فقد كانت سلوى آل ياسر لمواجهة ما أعد لهم الطواغيت من عذاب هو ما ذكرته لهم، وأنت ترى عظيم ما يعانونه.. لقد قلت لهم: (صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة)[1].. فما إن سمعوها منك حتى طارت نفوسهم شوقا إلى الجنة، وخرجوا من الدنيا، وهم يبتسمون.

وفي معركة بدر، حين اشتدّ البلاء على المسلمين، ورأيت قلة عددهم، وضعف عتادهم، كانت جائزتك العظمى التي

1() رواه الحاكم 3 / 388.

حولت كل واحد منهم إلى جبل من جبـال العزيمـة، وحصـن من حصون القـوة قولـك لهم: (قومـوا إلى جنـة عرضـها السـموات والأرض، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليـوم رجـل فيقتـل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة)(1)

حينهـا هـزت البشـرى قلـوب أصـحابك؛ فقـام عمـير بن الحمام، وقـال مندهشـا:(عرضـها السـموات والأرض؟)، فقلت: (نعم)، فقال، والفرحة تكاد تطير به:(بخ بخ)، فقلت: (ما يحملك على قولـك بخ بخ؟)، قـال:(رجـاء أن أكـون من أهلهـا)، فقلت مبشرا، وقد علمت صدقه:(فإنك من أهلها)

فتقـدم الرجـل حين سـمع تلـك البشـارة ممتلئـا سـرورا؛ فكسر جفن سيفه، وأخرج تمـرات فجعـل يأكـل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وهو يقول: (لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة)، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

وهكذا عندما كنت في مكة المكرمة، حيث فقـدت الناصـر والمعين.. ولم يكن بجـوارك إلا عمـك، كنت تـذهب إلى أسـواق عكاظ ومجنة، وفي المواسم، وأنت تخاطب النـاس قـائلا: (من يؤويني؟ من ينصـرني؟ حـتى أبلـغ رسـالة ربي ولـه الجنـة)(2).. فقد كانت الجنة هي بشارتك لهم.. لا الدنيا.. ولا الرفاه.. ولا أي شيء آخـر.. وهـل هنـاك شـيء أفضـل من الجنـة؟ وهـل هنـاك طريق للرفاه والحياة السعيدة أفضل من الإيمان بالجنة؟

وهكذا عنـدما رحـل إليـك السـبعون الـذين التقـوا بـك في شـعب العقبـة، وقـالوا:(يـا رسـول اللـه علام نبايعـك؟)، فقلت: (تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسـل، والنفقـة في العسر واليسر، وعلى الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وأن تقولـوا في اللـه لا تخـافوا في اللـه لومـة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسـكم وأزواجكم وأبنـاءكم)، فقـالوا: (يـا رسـول اللـه إن بيننـا وبين الرجال حبالاً وإنـا قاطعوهـا، وإنـا نأخـذك على مصـيبة الأمـوال وقتل الأشراف، فما لنا بـذلك يـا رسـول اللـه إن نحن وفينـا؟)، فقلت:(الجنة)، فقالوا:(ابسط يـدك)، فبسـطت يـدك الشـريفة،

1() رواه البخاري (فتح الباري 7/ 306 الحديث 3985)

2() رواه أحمد (22/ 347)

وبايعوك(1).

وهكذا كنت تحفز على كل أعمال الخير بتلك البشارات العظيمة التي أتاحها الله لك.. فحولت من المجتمع المسلم إلى مجتمع صالح من غير أن تقدم لهم أي جائزة مادية، أو تعدهم بأي وعود كاذبة.. بل كان وعدك الأعظم، وبشارتك الكبرى جنة الله التي لا يشقى من دخل إليها.

لقد كنت تحثهم على شد العزم على العمل الصالح، وتقول لهم: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا أن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة)(2)

ولهذا كانت تلك الجائزة أعظم محفز للصلاح والتقوى وتجاوز كل العقبات، وتحدي كل الهموم، فمن يعلم أن مصيره الجنة جد واجتهد وضحى ونسي كل شيء في سبيلها..

حتى أنك استطعت سيدي أن تهذب أولئك الجفاة الغلاظ من الأعراب بسبب ذكرك للجنة، وحديثك عنها، وعن النعيم الذي أعد فيها.. وقد روي أن بعض الأعراب جاءك، فقال: (ما ثمن الجنة؟)، فقلت:(لا إله إلا الله)(3).. وجاء أعرابي آخر فقال:(يا رسول دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة)، فقلت:(تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان)، فقال:(والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه)، فلما ولى قلت:(من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)(4)

وهكذا استطعت أن تهذب أمة من الناس.. لا في ذلك الجيل فقط.. بل في الأجيال جميعا بتلك البشارات الإلهية التي أتاحها الله لك.. وبتلك الإنذارات التي ملأت القلوب بالمخافة والحذر والحيطة، وجعلتها تلجأ إلى التقوى والاستقامة، لتقهر كل دواعي النفس الأمارة.

فيا سيدي يا رسول الله.. يا وسيلة الله العظمى لعباده.. فكما بشرت أصحابك وأحبابك.. فبشرنا.. وكما ملأت قلوبهم بالسرور، فاملأ قلوبنا.. وارزقنا رؤيتك في الدنيا والآخرة..

1() رواه أحمد (25/ 93)

2() رواه الترمذي رقم (2452)

3() رواه أبو نعيم الأصبهانى في صفة الجنة (48)

4() رواه البخاري (1397)، ومسلم (14)

فروحك الجميلة، ونورك الساطع، وسراجك المنير أعظم بشارة تتلقاها قلوبنا.. فمن رآك في الدنيا رآك في الآخرة.. ومن سعد بك هنا سعد بك هناك.. فاجعلنا من السعداء بك في الدارين.. لنعيش معك وفي صحبتك ننهل من بشاراتك ونتهذب بإنذاراتك..

واجعلنا يا وسيلة الله العظمى.. ويا صاحب المقام المحمود.. من الذي ورثوا منك البشارة والنذارة.. فصاروا من المبشرين المنذرين على أقدام الرسل وأوصيائهم وأوليائهم.. حتى لا تميل بنا الأهواء، ولا تزج بنا البدع فيما حذرتنا منه.

واجعلنا يا وسيلة الله العظمى من الذي يعطون للبشارة حقها.. فمن وفى للبشارة نالها، ومن قصر في الوفاء أو فرط فيه كان من الخاسرين.. فنعوذ بك من ذلك، ونسألك أن نكون من الناجين السعداء الفائزين..

الحكيم البليغ

سيدي يا رسول الله.. يا من آتاه الله فصاحة اللسان، وبلاغة البيان، واختصر له الكلام اختصارا.. فصارت كلماته دررا، يحفظها الحكماء، ويتتلمذ عليها العقلاء، ويجتنون من أطايبها كل فنون الحكمة.. فأنت سيد الحكماء، وأنت معلمهم وأستاذهم ومربيهم.

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وقد أخبر الله تعالى أن من فضائله عليك تعليمك الحكمة، من غير أستاذ تفد عليه، ولا معلم تتذلل بين يديه.. بل كان الله هو معلمك الذي أغناك عن كل معلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: 113]

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وقد أخبر الله تعالى أن من أوتي الحكمة أوتي خيرا كثيرا، وهل هناك من أوتي الخير الكثير مثلك، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 269]

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وأنت الذي أمرت بالدعوة إلى الله بالحكمة، وهل يمكن أن يأمرك الله بأمر ليس في طاقتك، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: 125]

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ــ وأنت الذي ذكر الله من وظائفك تعليم الحكمة، فأنت لست حكيما فقط، وإنما معلم الحكماء، قال تعالى ذاكرا دعاء جدك إبراهيم عليه السلام:﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]

ولهذا، فإنك سيدي ــ كما ذكرت عن نفسك ــ مدينة الحكمة، وأميرها، ومعلمها، وأستاذها، ومن شاء أن يلقن الحكمة، فإنه لا يمكن أن يجدها في غير مدينتك ولا مدرستك، لقد قلت في ذلك: (أنا مدينة الحكمة، وعلي بابها، فمن أرادها آتاها من بابها)(1)

ولذلك كانت كلمات الإمام علي ــ لطول صحبته لك،

1() الشريعة للآجري (4/ 2069).

وتلمذتـه على يـديك ــ من أفضـل مصـادر الحكمـة، وأوثقهـا، وأجملها.. وعندما تعجب بعضهم من كلامه، وقـال لـه: (يـا أمـير المؤمنين أفنبي أنت؟)، فقال لـه الإمـام علي: (ويلـك، إنمـا أنـا عبد من عبيد محمد ﷺ)(1)

لقد رجعت ـ سيدي ـ إلى كلماتك التي لم يؤثر فيها تدليس المدلسين، ولا عبث العابثين.. تلك الـتي تنـورت بنـور القـرآن.. وحفظت كما حفظ الذكر الحكيم.. ولم تمتد إليهـا يـد اللصـوص والأمـراء.. فوجـدتها ممتلئـة بالحكمـة.. كافيـة لأن تكـون زادا للعقلاء لينهلوا منها كل ما يفيدهم في دنياهم وأخراهم، فالكلمة الواحدة من كلماتك، تغني من تدبرها عن الأسفار الكثيرة.

وكيف لا تكـون كـذلك سـيدي، وقـد قلت عن نفسـك، ومـا وهبك اللـه من القـدرة على التعبـير عن الحقـائق، وفي أخصـر عبارة: (أعطيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا) (2)

لا أزال أحفظ سيدي من كلماتك تلك الـتي اختصـرت فيهـا أسباب هلاك المجتمعات وانحرافها وتسـلط المسـتبدين عليهـا، حيث قلت: (يا معشر المهـاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعـوذ باللّه أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتّى يعلنـوا بهـا إلّا فشـا فيهم الطّـاعون والأوجـاع الّـتي لم تكن مضـت في أسلافهم الّذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والمـيزان، إلّا أخـذوا بالسّـنين وشـدّة المؤونـة، وجـور السّـلطان عليهم، ولم يمنعـوا زكـاة أمـوالهم إلّا منعـوا القطـر من السّـماء، ولـولا البهـائم لم يمطـروا، ولم ينقضـوا عهـد اللّـه وعهـد رسـوله، إلّا سـلّط اللّـه عليهم عـدوّا من غـيرهم فأخـذوا بعض مـا في أيـديهم، ومـا لم تحكم أئمّتهم بكتاب اللّه، ويتخيّروا ممّا أنزل اللّه، إلّا جعـل اللّـه بأسهم بينهم)(3)

لقد رحت أتأمل هـذه الكلمـات الخمس، فوجـدتها الترياق الذي يعالج كل المصائب والمشاكل التي وقع فيها البشـر.. ولـو عملـوا بهـا، لصـلحت أحـوالهم جميعـا.. لكنهم يعرضـون عنهـا، ليذهبوا لأولئك الذين يضلونهم باسم الحكمة والعلم والدراسـات

1() التوحيد: 174/ 3.

2() رواه البيهقى فى شعب الإيمان (2/160، رقم 1436)، وروى أوله البخـاري 6 / 90، ومسلم رقم (523)

3() ابن ماجه (2/1332، رقم 4019)، وأبـو نعيم (8/333)، والحـاكم (4/583، رقم 8623)، والبيهقى فى شعب الإيمان (3/197، رقم 3315)، وابن عساكر (35/260)

العلمية.

وهكذا وجدت الكثير من درر الحكمة الواردة عنك، والتي ترتبط بسنن الله في المجتمعات، والتي تجعل المتأمل لها، المتدبر في معانيها، عالما من علماء الاجتماع الحقيقي لا المزيف، ذلك الذي اختلط فيه الحق بالباطل، والعلم بالأهواء.

ومن أمثلة ذلك سيدي تلك الحكمة العظيمة التي تبين فيها سبب هلاك المجتمعات، فقد قلت: (اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)(1)، ثم فسرت ذلك في حديث آخر، فقلت: (إياك والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا)(2)

فلو أن البشر جميعا التزموا بهذه الحكمة، وساروا على منهاجها، لما حصل الاستعمار والاستبداد والاستغلال والظلم؛ فكل ذلك نتيجة البخل الذي امتلأت به تلك النفوس التي لا تشبع، والتي راحت تسرق خبز غيرها، وتقهرهم، وتسخرهم لمصالحها.

ولو أن الخلق التزموا بتلك الحكم العظيمة التي تأمر فيها بالتحكم في اللسان، وعدم إتاحة الفرصة له ليعبر عما يريد من غير ضوابط تحكمه، لوقوا أنفسهم من فتن كثيرة، ومفساد لا نهاية لها.. فقد كنت تردد كل حين، وعلى مسمع كل الأجيال قائلا: (الصمت حكم وقليل فاعله)(3).. (الصمت زين للعالم وستر للجاهل)(4).. (الصمت سيد الأخلاق، ومن مزح استخف به) (5).. (قولوا خيرا تغنموا، واسكتوا عن شر تسلموا)(6).. (من صمت نجا)(7).. (رحم الله من حفظ لسانه، وعرف زمانه،

1() رواه أبو داود والحاكم.

2() رواه البخاري.

3() رواه القضاعي والديلمي في مسند الفردوس.

4() رواه أبو الشيخ.

5() رواه الديلمي في مسند الفردوس.

6() رواه القضاعي.

7() رواه أحمد والترمذي.

واستقامت طريقته)(1).. (من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر كذبه، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به)(2).. (من كف لسانه عن اعراض المسلمين أقال الله عثرته يوم القيامة)(3).. (لا تدخل حلاوة الايمان قلب امرئ حتى يترك بعض الحديث خوف الكذب وإن كان صادقا، ويترك المراء وإن كان محقا)(4).. (لا تقل بلسانك إلا معروفا، ولا تبسط يدك إلا إلى خير)(5).. (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له إلّا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر اللّه)(6).. (لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب، وإنّ أبعد النّاس من اللّه القلب القاسي)(7).. (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(8).. (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنّة)(9).. وغيرها من الحكم الكثيرة التي تحفظ من يلتزم بها من كل المصائب التي يجلبها له لسانه، كما تلقنه كل الثمار الطيبة للسان الذي التزم عبودية ربه، فلم ينطق إلا بما يرضيه.

وهكذا نجد ــ سيدي ــ درر حكمك في كل المجالات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية.. وكل ما يخطر بالبال، وما لا يخطر بالبال.. ومن اكتفى بها وقي من كل تلك التلبيسات التي ينصح بها من لا يعرفون حقيقة الإنسان، ولا روحه، ولا نفسه، ولا مصيره.. فينصحونه باقتحام الحياة بكل جرأة متخليا عن كل القيم.. لكنك سيدي تهدم كل ذلك بتلك المبادئ الأخلاقية العظيمة التي أسست لها، والتي تقوم على الحياء، ورعاية مشاعر الآخرين.. لقد قلت في ذلك: (استحيوا

1() رواه الحاكم في تاريخه.

2() رواه العسكري في الامثال.

3() رواه الديلمي.

4() رواه الديلمي.

5() رواه البخاري في التاريخ، وابن أبي الدنيا في الصمت والبغوي والباوردي وابن السكن وابن قانع وابن منده والبيهقي في الشعب وأبو نعيم وتمام وغيرهم.

6() رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة.

7() رواه الترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي.

8() رواه مالك في الموطأ والترمذي وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجة.

9() رواه البخاري واللفظ له. والترمذي.

من اللّه حقّ الحياء)(1)، ثم فسرت ذلك بقولك: (الاستحياء من اللّه حقّ الحياء: أن تحفظ الرّأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللّه حقّ الحياء)

وهكذا كانت حكمك تحض على الكرم والترفع، وتنهى عن الأنانية وكل ما يرتبط بها، فقد كنت تقول: (إنّ اللّه كريم يحبّ الكرم، ويحبّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها)(2)

وهكذا كانت حكمك تحض على مخالطة الناس، والصبر على أذاهم، فقد كنت تقول:(المؤمن مألف مألوف حيي ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس)(3)، وتقول: (إنّ أحبّكم إليّ أحاسنكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا، الّذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم إليّ المشّاءون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبّة الملتمسون للبراء العيب)(4)، وتقول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(5)

وهكذا كانت حكمك تحض على الرفق واللين، حيث كنت تردد كل حين: (إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شانه)(6).. وتقول: (اللّهمّ من ولي من أمر أمّتي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمّتي شيئا فرفق بهم فارفق به)(7).. وتقول: (إنّ اللّه إذا أراد بأهل بيت خيرا دلّهم على باب الرّفق)(8).. وتقول: (ألا أخبركم بمن يحرم على النّار، وبمن تحرم عليه النّار، على كلّ قريب هيّن سهل)(9).. وتقول: (يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفّروا)(10)..

1() رواه الترمذي وقال: غريب، ورواه أحمد والحاكم والبيهقي. وقال الحاكم: صحيح وأقره الذهبي.

2() رواه الحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني في الكبير.

3() رواه الديلمي في الفردوس.

4() رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه مسلم.

7() رواه مسلم.

8() رواه أحمد والبزار.

9() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

10() رواه البخاري ومسلم.

وتقـول: (من أعطي حظّـه من الرّفـق فقـد أعطي حظّـه من الخير، ومن حرم حظّه من الرّفـق حـرم حظّـه من الخـير)(1).. وتقول: (من يحرم الرّفق يحرم الخير)(2)

وهكــذا كــانت حكمــك تحض على الإحســان، وفي كــل المجـالات، حيث كنت تقـول: (إنّ اللّـه كتب الإحسـان على كـلّ شيء فـإذا قتلتم فأحسـنوا القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسـنوا الـذبح، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)(3)

وهكذا كانت حكمك ـ سـيدي ــ كافيـة لمن يريـد أن يسـير على سراطك المستقيم، الذي لم ينحـرف ذات اليمين، ولا ذات الشمال، ذلك السراط الذي ارتضاه الله لعباده، ولم يقبل منهم المرور على غيره.

وهي جميعــــا مدرســــة في الأخلاق والآداب والسياســــة والحضـارة.. ولا تلـتزم أمـة بهـا إلا، وتـرقت.. ولا نفس بهـا إلا تطهـرت.. ولا مجتمـع بهـا إلا كـان مجتمعـا متكـافلا متناصـرا متراحما ممتلئا بالحكمة.

فأسألك سيدي، وأتوسل بك إلى اللـه تعـالى أن أكـون من أولئك الذين تتلمذوا على كلماتك وهديك، فصار لهم من الحكمة ما يصلحون به شؤون دينهم ودنياهم.. حتى تتحكم عقــولهم في نفوسهم، ويتحكم دينهم في دنياهم.

وأسألك سيدي أن ترفع درجتي حتى أكون من الـدعاة إلى اللـه بالحكمـة والموعظـة الحسـنة، أولئـك الـذين سـاروا على هديك، وهـدي ورثتـك؛ فصـارت لهم من حكمـة القـول والفعـل والتدبير ما يجعلهم دعـاة إلى اللـه على بصـيرة، لا على هـوى، وعلى هدى، لا على ضلالة.

وأسألك سيدي أن ينالني بعض فضل الله عليك في البلاغة التي تيسر لي تبليغ الحكمة، والدعوة إليها، حتى يفهمني قومي، وحـتى أبلـغ لهم دين اللـه بمـا ييسـر بلوغـه لعقـولهم وقلـوبهم وأرواحهم.. فأنت وسيلة الله العظمى، وباب رحمته الأكبر.

1() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

المعلم الناصح

سيدي يا رسول الله.. يا معلم المعلمين، وأستاذ الأساتذة، وحكيم الحكماء.. يا من لا يتتلمذ على يديه صادق إلا ونال كل فنون العلم والحكمة والأدب والصلاح.

يا من لا يزال تعليمه مستمرا عبر الأجيال في مدرسته التي لا يتخرج منها إلا المخلصون والمخلَصون.. أولئك الذين استناروا بنور النبوة، واهتدوا بهديها.. فارتفعوا من ذلك التثاقل إلى الأرض والطين، وسموا بأرواحهم إلى آفاق السماء السامية.

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت صاحب الإذن الإلهي في أن تكون معلما، وأن يجثو بين يديك كل الخلق تلاميذ ومريدين.. وقد قال ربك مخبرا عن فضله على العباد بجعلك معلما لهم: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: 164]

ودعانا إلى شكر هذه النعمة العظيمة بإتاحة الفرصة لنا لتكون أنت معلمنا وأستاذنا ومربينا، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 151، 152]

وقد أخبرت عن نفسك بأن وظيفتك العظمى التي جئت بها، ليست ذلك العنف الذي توهمه المحجوبون عنك، وإنما وظيفتك التعليم، وكل ما يرتبط به من إصلاح وتربية، وقد ورد في الحديث أنك دخلت المسجد يوما، فإذا أنت بحلقتين، إحداهما يقرؤون القرآن، ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقلت: (كل على خير، هؤلاء يقرؤون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما)، ثم جلست معهم(1).

وقد كنت لذلك ـ سيدي ـ قدوة لكل المعلمين، بل مدرسة في فن التربية والتعليم، ولو أنهم تركوا أهواءهم، واتبعوك فيها، لما رسب تلميذ، ولا فشل أستاذ.

1() رواه ابن ماجه برقم 229.

لقد رحت أبحث عن منهجك في التعليم، وسر قدرتك على تحويل أولئك البدو البسطاء، الذين كان هم أحدهم قاصرا على غنائم يغنمها، أو سلب يحصل عليه، أو طعام يأكله، فوجدت عجبا عجابا.. فأنت أخرجتهم من تلك الحال من غير أن تعدهم بأي وعود مرتبطة بدنياهم، بل اكتفيت معهم بتلك الوعود الإلهية العظيمة التي رفعت هممهم.

لقد كان ذلك أول ما شد انتباهي في تعليمك.. فتلك الدوافع السامية التي وفرتها لتلاميذك، وفي كل الأزمنة، هي التي جعلتهم يضحون بكل راحتهم ومتعهم في سبيل التحصيل والتعلم، مع أنهم لا يحصلون من جراء ذلك على شهادة يفتخرون بها، أو مال يكسبونه، أو مناصب تضمن لهم حياة مستقرة.

فقد ربطت لهم العلم بالله، حتى يتجردوا عن الأهواء.. وربطت جوائزه بفضل الله حتى لا يصبح العلم وسيلة لتحقيق المآرب والمصالح المحدودة..

ولذلك كنت تعتبر المتعلم والعالم في أقصى درجات الصلاح.. وأن مدادهم كدماء الشهداء، وسهرهم كقيام القائمين، وصوم الصائمين..

وقد كنت تقول لهم مرغبا في التعلم: (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه

السعداء، ويحرمه الأشقياء)(1)

وكنت تخبرهم أنه يمكن بالتعلم أن ينالوا كل المناصب الإلهية الشريفة التي وفرها الله لعباده، لينالوا أنواع الجزاء العظيم.. فقد كنت تقول لهم: (أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)(2)، وتقول: (فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)(3)، وتقول: (قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه)(4)، وتقول: (ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه)(5)

وعندما رأيت حرص بعض أصحابك على النوافل، ابتغاء لأجرها العظيم، قلت له ناصحا: (لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)(6)

وعندما رأيت آخر حريصا على الصدقات، أخبرته أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، وقلت له: (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(7)

ويروى أنه ذكر عندك رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقلت: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قلت: (إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(8)

وهكذا كنت تخبرهم أن العلم ـ لفضله العظيم ـ يحتاج إلى الصبر والاجتهاد، وقد يتطلب الغربة والرحلة، وكل أنواع المتاعب، وقد كان من كلماتك في هذا قولك: (يا أيها الناس

1()) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

2()) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

3()) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

4()) الطبراني في الأوسط.

5()) الدارقطني والبيهقي.

6()) ابن ماجه بإسناد حسن.

7()) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

8()) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28])(1)، وقولك: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(2)، وقولك: (ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)(3)

وعندما جاءك بعضهم، وأخبرك أنه جاء يطلب العلم، قمت إليه فرحا مسرورا، وقلت له: (مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(4)

بل إنك سيدي كنت تخبر أن العلم لا حدود لطلبه، وأنه من المهد إلى اللحد، ولذلك كان أشرف الموت أن يموت المؤمن، وهو يطلب العلم، وقد كان من ترغيبك في هذا قولك: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)(5)، وقولك: (من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)(6)

بل إنك سيدي كنت تعتبر العلم من الأعمال التي لا ينقطع أجرها، ولو بعد الموت.. وقد كنت تقول لكل طالبي العلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(7)، وكنت تقول لهم: (إن مما

1()) الطبراني في الكبير.

2()) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

3()) أبو نعيم.

4()) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

5()) الطبراني في الأوسط.

6()) الطبراني في الكبير.

7()) مسلم وغيره.

يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(1)

لقد كانت هذه الأحاديث، وما تتضمنه من الترغيب في طلب العلم، ومهما اختلفت الظروف سببا في قيام أكبر حضارة علمية عرفها التاريخ، وهي تلك الحضارة المستندة لتلك التعليمات المقدسة التي كنت تبثها في تلك الأمة الأمية التي لم تكن تعطي العلم أي قيمة.

ولا تزال سيدي كلماتك حاضرة في كل الأجيال، يسمع لها كل الصادقين الذي يضحون بكل أهوائهم ومتعهم في سبيل أن ينالوا فضل المتعلمين والعلماء الذي وعدت به، وأخبرت عنه.

ولم يكن ذلك فقط ـ سيدي ما جئت به ــ بل إنك وضعت منظومة كاملة للتعليم، لا يتبعها صادق إلا وتحقق بالتلمذة الحقيقية، وأول مظاهر تلك المنظومة احترام العلوم، كل العلوم.. لأنها جميعا تؤدي إلى الله، وتهذب النفس، وتخدم المجتمع.. ولذلك كنت تعلم أصحابك من علوم كل شيء، وقد حدث بعضهم عنك قال: (ولقد تركنا رسولُ اللّه ﷺ، وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً) (2)

ومن أركان تلك المنظومة تلك الآداب التي كنت تدعو المتعلمين والمعلمين إليها، حتى لا يكون التعليم منفرا، وحتى لا يكون المعلم سببا لأي عقد نفسية يسببها لتلاميذه.. وقد روي في الحديث عن بعض أصحابك قال: (بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، بل قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة

1()) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله.

2() رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق، واللفظ لأحمد.

القرآن)[1]
ولذلك كنت تقول لهم: (إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا وميسِّرًا)[2]
وقد كنت ـ لأجل تحقيق ذلك ـ تمارس كل أساليب التعليم الذي يوصل المعلومة إلى العقل والنفس بكل هدوء.. وقد كان من ذلك تلك الأسئلة التي كنت تحفز بها عقولهم، لتعلمهم كيف يفكرون، ويعتبرون، فلا علم من دون تفكر ولا اعتبار..
فقد كنت تقول لهم متسائلاً:(أتدرون ما الغيبة)[3].. (أتدرون من المفلس)[4].. (أتدرون ما أخبارها؛ فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول علي عمل كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)[5].. (أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس)[6]
وكنت تلغز لهم أحيانا، حتى يتوفر لهم جو المنافسة في طلب العلم، وحتى يختلط العلم عندهم بالتسلية والمرح، ومن أمثلة ذلك قولك لهم: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثلها مثل المسلم فأخبروني ما هي؟)[7]
وكنت تستعمل معهم كل وسائل التوضيح الممكنة، ومن أمثلة ذلك استعمالك للغة الجسد، فقد كنت تقول لهم، وأنت تشير بالسبابة والوسطى: (أنا وكافل اليتيم كهاتين)[8]، وكنت تقول لهم، وأنت تشير بيدك إلى المشرق: (الفتنة من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان)[9]
وكنت أحيانا في سبيل توضيح المعلومة تستعمل الرسم للتبسيط والتيسير، وقد حدث بعض أصحابك قال: (خط رسول الله ﷺ خطا مربعا، وخط خطا في الوسط خارجا منه، وخط

1() رواه مسلم رقم (537)، وأبو داود رقم (930) و (931)
2() رواه مسلم برقم 1478.
3() رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.
4() رواه مسلم وغيره.
5() رواه الترمذي وأحمد والحاكم.
6() رواه أحمد.
7() رواه البخاري.
8() رواه البخاري وأبو داود.
9() رواه مسلم.

خططا صغارا، إلى هذا الذي في الوسـط، من جانبـه الـذي في الوسط، فقال: «هـذا الإنسـان، وهـذا أجلـه محيـط بـه ـ أو قـد أحاط به ـ وهذا الذي هـو خـارج أملـه، وهـذه الخطـط الصـغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا، نهشه هـذا، وإن أخطـأه هـذا، نهشـه هذا)(1)

وكنت تقص عليهم القصـص، وتضـرب لهم الأمثـال الـتي تبسط لهم الحقائق، ومن ذلك قولك لهم:(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فكان بعضـهم أسفلها وكان بعضهم أعلاها، وكان الذين في أسفلها إذا اسـتقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنـا في نصـيبنا خرقاً فلم نؤذ من فوقنـا، فـإن أخـذوا على أيـديهم نجـوا ونجـوا جميعاً، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً)(2)

وهكذا كنت تستعمل كل ما أمكنك وتوفر لـديك من فنـون البيان والتيسـير والتوضـيح، حـتى تصـل المعلومـة إلى العقـول والقلوب بكل يسر وسهولة..

ولم تكن تكتفي بإيصـال المعلومـات المجـردة، وإنمـا كنت تنصح المتعلمين، وتربيهم، وتهذب نفوسهم، حتى لا يكـون العلم سـببا لهلاكهم، وحـتى ينـالوا العلم النـافع الـذي لا ينـال أجـر المتعلمين والعلماء والمعلمين إلا من توفر لديه.

فأسألك يا سيدي يا رسول الله، وأتوسـل بـك إلى ربي أن يجعلني من المتعلمين في مدرسـتك، ومن كـل علومهـا وآدابهـا ومعارفها، حـتى أنـال شـرف التخـرج منهـا، بشـهادتك العظمى التي فيها توقيعك السامي، والتي لا تعدلها أي شهادة في الدنيا.

وأســألك، وأتوســل بــك إلى ربي أن يجعلــني من معلمي الخير، السـائرين على قـدمك، المهتـدين بهـديك، أولئـك الـذين نفعهم العلم، ولم يضــرهم، وأصــلح نفوســهم، ولم يفســدها، وقربهم منك، ولم يبعدهم.. إنك أنت الوسـيلة العظمى، فلا يـرد من توسل بك، ولا يخيب من توجه إلى الله بوجهك، وبجاهك.

1() رواه البخاري 14/11 و 12، والترمذي رقم (2456)

2() رواه البخاري.

الشهم الشجاع

سيدي يا رسول الله.. أيها الشهم الشجاع الذي اكتملت فيه كل أركان الشخصية القوية بجميع معانيها؛ فصار أنموذجها الأمثل، وقدوتها الأعلى، وأسوتها الحسنة.

عندما أتأمل مواقفك طيلة حياتك، وخاصة في تلك الفترة التي كلفت فيها بأعظم رسالة، وبين أشرس قوم، وفي أحلك ظروف.. أعلم يقينا أن القلب الذي استطاع تحمل تلك التكاليف الثقيلة لا يمكن إلا أن يكون في قمة الشجاعة والقوة.. وإلا فمن يجرؤ على مواجهة أقوام تجذر فيهم الشرك، وكل عادات الجاهلية، بذلك التحدي، وبتلك الدعوات التي جعلتهم ينهضون جميعا على بكرة أبيهم لمواجهته.

ولو أن أولئك المشككين المخدوعين عن الحقيقة، تأملوا في هذه الناحية وحدها، لهدتهم إليك، ولعرفوا أن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124]، فيستحيل على من كان كاذبا أو مخدوعا أو مخادعا أن يتجرأ على تلك الدعوات التي لن ينال منها إلا المواجهة والحرب والتشويه والتشويش.. مع أنه يمكن أن ينال كل أغراضه بمجرد أن يسمع قومه فصاحته وبلاغته وحكمته.

فالمواجهة ـ يا سيدي يا رسول الله ــ والشجاعة الأدبية المرتبطة بها أعظم من الشجاعة التي يبرزها المحاربون في حربهم، أو الشجعان في منازلاتهم..

ولذلك قلت مبينا عظم شهادة من قال كلمة الحق عند سلاطين الجور: (من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)(1)

لا تزال ذكريات شجاعتك في هذا الجانب ترد على خاطري، وتملؤني بالنشوة، وأنا أشعر بأن ذلك الحبيب العظيم الذي امتلأ قلبي حبا له وشوقا إليه، ليس عارفا، ولا عالما، ولا عابدا، ولا عبقريا فقط.. وإنما هو فوق ذلك يتربع على عرش الشجاعة الذي لا ينافسه فيه أحد.

فالشجاعة التي واجهت بها المشركين واليهود والمنافقين.. وكل المناوئين.. لم يكن ليجسر على الإقدام عليها

1() الترمذى (2174) وأبو داود (4344)

غيرك.. وغير من اهتدى بهديك.

لا أزال أذكر سيدي ذلك الموقف الذي وقفته على الصفا، وأنت تعلم خطورته، وتأثيره في قومك الحريصين على أصنامهم وأوثانهم.. لقد رحت تناديهم بكل قوة، وتقول لهم: (أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي)، قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقا.. فقلت لهم: (فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، حينها قام عمك أبو لهب غاضبا، وهو يقول: (تبّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟)(1)

لكن ذلك الموقف لم يؤثر فيك.. بل ظللت تنادي فيهم.. وهم يرمونك بالحجارة، ويحرضون الأطفال والمجانين عليك.. وأنت لا تبالي بهم.. ولا بسخريتهم.. ولا برميهم لك بكل أصناف السباب.

وعندما لم تجد منهم آذانا صاغية رحت تسير المسافات الطويلة إلى الطائف، وأنت تعلم أن قسوتهم وغلظتهم لا تقل عن قومك.. وواجهتهم بشجاعة، وطرحت لهم بكل قوة ما كلفك الله به.. وقابلت بكل شجاعة ما واجهوك به.. وعندما اضطررت إلى الشكوى، لتنفس عن قلبك بعض حزنك عليهم، لم تشك لهم كما يفعل الجبناء، وإنما شكوت إلى الله.. لا ما زجك فيه من بلاء.. وإنما شكوت له تقصيرك في حقه..

ولم تقتصر مواقف شجاعتك على ذلك، بل كانت كل حياتك مواقف شجاعة وبطولة نادرة.. وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي جعلت العرب جميعا مشغولين بك.. وبكيفية مواجهتك، وأنت فرد واحد.. ومعك الكثير من المستضعفين.

ولم تكن شجاعتك قاصرة على شجاعة الكلمة.. بل كانت تشمل كل أنواع الشجاعة ومجالاتها.. حتى الحربية منها.. فأنت في كل الحروب التي فرضت عليك كنت المقبل لا المدبر.. والثابت لا المتولي.. حتى كان الشجعان والأبطال يلوذون بك، ويحتمون، وقد قال بعضهم يذكر ذلك: (كنا إذا حمي البأس (القتال)، واحْمرَّت الحَدَق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)(2)

1() البخاري- فتح الباري 8/ 360، 609 (الاحاديث رقم 4770، 4971)

2() رواه الطيالسى، وابن أبى شيبة، وأحمد، وأبو عبيدة فى الغريب، والنسائى، وأبو يعلى، والحاكم، وابن جرير وصححه، والحارث، والبيهقى فى الدلائل، [كنز العمال 35463]

وقال بعض أصحابك يصف شجاعتك: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة عُرْي (مجرد من السرج)، وفي عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا (لا تخافوا ولا تفزعوا)، وقال عن الفرس: (وجدناه بحرا، وإنه لبحر)، قال الراوي: (وكان الفرس قبل ذلك يبطأ، فما سبق بعد ذلك) (1)

وقال آخر: (ما رأيتُ أشجع ولا أنْجد (أسرع في النجدة) من رسول الله ﷺ)(2)

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت القرآن الناطق الذي تمثلت فيه حروف قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146ـ 147]، فهذه الآيات الكريمة، وإن كانت تصف أتباع الأنبياء، فأنت أولى بها.. وكيف لا تكون كذلك، وأنت سيد الأنبياء، وسيد أتباعهم، ونموذجهم الأمثل، وقدوتهم العظمى.

وكيف لا تكون كذلك، وأنت صاحب الإيمان العظيم الذي يرى الحقائق رأي العين، فلذلك لا يؤثر فيه ذلك البهرج الكاذب الذي يؤثر في الجبناء.. فيملأهم بالمخافة والرهبة.

وكيف لا تكون كذلك، والله تعالى هو الذي أمرك بالثبات والغلظة على أولئك الذين يجاوزون حدودهم، فيظلمون الناس، ويعتدون على الحرمات، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]

ولذلك، فإنك ــ سيدي ــ كما كنت لينا رحيما لطيفا بالمؤمنين والمسالمين والصالحين، كنت في نفس الوقت شديدا على الطغاة والمجرمين والمحاربين.. فاكتملت لك بذلك الإنسانية في أجمل جوانبها.. واكتملت لك الشهامة في أروع صورها.

1() رواه والبخاري (2820) و (2866) و (2908) و (3040) و (6033)، ومسلم (2307) (48)

2() الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (1/ 116)

فقد كنت تحفظ شجاعتك بشهامتك، فلا تظلم، ولا تعتـدي، وإنما تكتفي بمواجهة من يظلم المستضعفين، أو يريـد التسـلط عليهم..

ولهذا كنت في كـل حروبـك الـتي فرضـت عليـك، صـاحب شهامة ونبل، تكتفي بقتال من قاتلك، وبحـرب من حاربـك، من دون أن تجاوز الحدود التي أتاحها الله لك.

وقد شهد لك كـل أصـحابك بأنـك في غزواتـك جميعـا كنت البطل الأكبر، ففي غزوة بـدر وأحـد وغيرهمـا كنت أنت القائـد، الـذي يقـدم على غمـار المـوت، بشـجاعة وبطولـة، حـتى شُـجَّ وجهك، وكُسِرت رَباعيتُك.

وفي يـوم حُنَيْن ثبت في وجـه الآلاف من هـوازن، بعـد أن تفرق عنك الناس خوفاً واضـطراباً من الكمين المفـاجيء الـذي تعرضوا له.. وقد وصف بعض صحابتك ثباتك، فقـال لمن سـأله: (أكنتم وليتم يـوم حـنين؟): (أشـهد على نـبي اللـه ﷺ مـا ولّى، ولكنه انطلق أخِفَّاء من الناس وحُسَّـر (من لا سـلاح معهم) إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرمـوهم برشـق من نبـل كأنها رِجْل (قطيع) من جراد فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول اللـه ﷺ وأبـو سـفيان بن الحـارث يقـود بـه بغلتـه، فـنزل ودعـا واستنصر وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)(1)

وذكر صحابي آخر بعض مواقـف شـجاعتك، فقـال: (غزونـا مع رسول الله ﷺ غَزَاة قِبَـلَ نَجْـد، فأدركنـا رسـول اللـه ﷺ في القائلة في واد كثير العِضَاهِ (شـجر فيـه شـوك)، فـنزل رسـول الله ﷺ تحت شجرة فَعلّـق سـيفه بِغُصْـن مِن أغصـانها، وتفـرّق الناس في الـوادي يسـتظلون بالشـجر، فقـال رسـول اللـه: إنَّ رجلا أتاني وأنا نائم فأخـذ السـيف فاسـتيقظت وهـو قـائم على رأسي، والسيف صَلْتا (مسلولا) في يده فقال: مَن يَمْنَعُكَ مني؟ قلت: الله، فشامَ السيف (رده في غِمْده)، فها هو ذا جالِس، ثم لم يعرِض له رسول الله ﷺ)(2)

وما ذلك ـ سيدي ـ إلا لمعرفتك بالله.. فيستحيل أن تجتمـع المعرفـة مـع الجبن.. فـأول علامـات العـارف باللـه شـجاعته.. وكيف لا يكون شجاعا، وهو يرى الله في كل شيء.. ويرى قـوة

1() رواه البخاري (2930)، ومسلم (1776) (78) (79)

2() رواه البخاري (2910) و (2913) و (4134)، ومسلم ص 1787 (14)

الله في كل محل، ولذلك كنت تردد متأسفا: (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلّا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنّة. ولولا أن أشقّ على أمّتي ما قعدت خلف سريّة، ولوددت أنّي أقتل في سبيل الله ثمّ أحيا، ثمّ أقتل ثمّ أحيا، ثمّ أقتل)(1)

بالإضافة إلى ذلك كله ـ سيدي ـ اتفق كل من رآك وعرفك وصحبك على تلك القوة التي كنت عليها.. والتي عجز من كان يزعم لنفسه القوة على مجاراتك فيها.. وكيف لا تكون كذلك، وقوة الجسد من قوة القلب.. وقوة القلب من قوة الروح.. وقوة الروح من صلتها بربها.. وأنت أعظم المتصلين بالله، والمتواصلين معه.. فلذلك تجلى عليك باسمه القوي، فلم يغلبك أحد.

وقد ورد في الحديث أن رجلا من العرب كان يطلق عليه ركانة، ولم يكن أحد يستطيع مواجهته، أو منازلته، وعندما سمع بك، طلب أن يصارعك، فاستجبت لطلبه، وسرعان ما صرعته، فلم يصدق عينه، فطلب الإعادة، فصرعته مرة ثانية، فقال: عاودني، فصرعته الثالثة، فقال: (يا محمد، ما وضع ظهري إلى الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليَّ منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ﷺ)(2)

ولهذا كان الصحابة يلجؤون عليك عند كل شدة، أو ثقل ينوء بهم، فقد روي أنهم يوم حفر الخندق في غزوة الأحزاب، عجزوا عن كسر صخرة عظيمة عرضت لهم في طريق الحفر، فاستنجدوا بك، فأخذت المعول، وضربتها حتى عادت كثيباً أهيل، أو كالرمل الذي لا يتماسك.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله بجاهك العظيم عند الله ـ أن أنال حظا من شجاعتك وقوتك، فلا ألين مع الطغاة، ولا أسكن للظلمة، ولا أخاف في الله لومة لائم.. بل أكون شهما

1() البخاري- الفتح 1 (36) ومسلم (1876)

2() من الروايات الواردة للحديث أن يزيد بن ركانة جاء إلى النبي ﷺ ومعه ثلثمائة من الغنم فقال: يا محمَّد، هل لك أن تصارعني؟ قال ﷺ: وما تجعل لي إن صرعتك؟ قال: مائة من الغنم، فصارعه، فصرعه، ثم قال: هل لك في العود؟ فقال ﷺ: وما تجعل لي؟ قال: مائة أخرى، فصارعه، فصرعه، وذكر الثالثة، فقال: يا محمَّد، ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقام عنه ورد عليه غنمه) [رواه الخطيب وصححه الألباني في إرواء الغليل (1501)]

شجاعا أقف مع المستضعفين المظلومين، كما كنت تقف، وكما دعوتنـا أن نقـف.. إنـك أنت صـاحب الوسـيلة العظمى، والجـاه العظيم.

المخلِص المخلَص

سيدي يا رسول الله.. أيها المخلِص المخلَص.. يا من توجهت إلى الله بكليتك؛ فلم يختلط توجهك إليه بغيره.. فقابلك الله بكرمه ولطفه بتخليصك الخلاص كله.. فكنت الحافظ لله.. وكان الله الحافظ لك.

سيدي.. لو أن جميع أولئك المشتبهين في شأنك لاحظوا تلك الحرب المعلنة عليك من طرف أولئك الجفاة الغلاظ، من المشركين واليهود والمنافقين وجفاة الأعراب.. ورأوك وأنت تسير بينهم خال من كل سلاح، وليس معك أي حرس، لعلموا أنك محفوظ من الله، وأن تركهم لك، أو عدم قدرتهم على إيذائك ليس رغبة منهم في ذلك، وإنما لأن الأمر كان خارجا من أيديهم.

وقد أخبر الله تعالى أنه حفظك بذلك الحفظ الخاص، لتكمل دينك، وتؤدي رسالتك، ويتم نعمته على عباده بك، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]

وأخبر أن كيد كل أعدائك سيرتد عليهم، لأن الله تعالى تولى حفظك، ولن يستطيع أحد أن يواجه الله، قال تعالى:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: 15 - 17]

ولذلك كنت تتحرك في القيام بأعباء دعوتك بكل حرية على الرغم من التضييق الشديد الذي ضيقوا به عليك، وعلى عشيرتك، وحصارهم لك ولهم.. ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا خنق صوتك، ولا القضاء المبرم عليك.

ولذلك اكتفوا بالسخرية والاستهزاء.. وكل أسلحة الضعفاء.. ومع ذلك، فقد كفاك الله شأنهم، وسرعان ما ارتدت سخريتهم واستهزاؤهم عليهم، كما وعدك ربك بذلك، فقال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)﴾ [الحجر: 95، 96]

وهذه سنة الله مع عباده المخلَصين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 10، 11]

وقد ذكر أصحابك بعض ما حصل لأولئك الساخرين والمستهزئين والمؤذين لك.. ومنها ما حصل للوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطلة السهمي، فقد رووا أنه لما أكثروا الاستهزاء بك أتاك جبريل، فأراك الوليد، ثم أومأ إلى أكحله، وقال: كفيته.. ثم أراك الأسود بن المطلب فأومأ إلى عينيه، وقال: كفيته.. ثم أراك الأسود بن عبد يغوث، فأومأ إلى رأسه، وقال: كفيته..

ثم تبين بعد ذلك سر تلك الإشارات، ذلك أنه مر بالوليد رجل من خزاعة، وهو يريش نبلا له، فأصاب أكحله، فقطعها.. وأما الأسود بن المطلب فنزل تحت سمرة، فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني فجعلوا يقولون: ما نرى شيئا، وهو يقول: قد هلكت ها هو ذا أطعن بالشوك في عيني،فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها.. وأما الحارث فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج من فيه فمات منها.. أما العاص فركب إلى الطائف على حمار فربض على شبرقة، فدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته(1).

وهكذا رووا أن رجلا كان يجلس إليك، فإذا تكلمت بشيء اختلج بوجهه، وهو يسخر منك بذلك، فقلت له: (كن كذلك)، فلم يزل يختلج حتى مات(2).

ورووا أنك مررت على ناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاك، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمز جبريل، فوقع مثل الظفر في أجسادهم فصارت قروحا حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم(3).

ورووا أن عدوك اللدود أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب.. ثم

1() رواه أبو نعيم والبيهقي وصححه الضياء في المختارة، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 254)

2() رواه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 254)

3() رواه البزار والطبراني، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255)

إنه أتاك، وأنت تصلي ليطأ على رقبتك، لكنه ارتد على عقبه فجأة، وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقا من نار، وهولا وأجنحة.. وقد قلت حينها تذكر ما حصل له: (لو دنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا)(1)

وقد روي أنه نزل عليك حينها آخر سورة العلق، والتي يقول الله تعالى فيها متوعدا: ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [العلق: 15 - 19]

ورووا أن بعض أعدائك قال: (يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني لأعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فإذا سجد في صلاته فضحت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم)، فلما أصبح أخذ حجرا، واقترب منك، وأنت تصلي، وقد غدت قريش، فجلسوا في أنديتهم ينظرون، فلما سجدت احتمل الحجر، ثم أقبل نحوك حتى إذا دنا منك رجع فارا منتقعا لونه، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فعندما سألوه عن سر ما فعله، قال: (لما قمت إليه عرض لي فحل من الإبل، فو الله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم أن يأكلني)، وقد قلت حينها مبينا سر ما حصل له: (ذاك جبريل، لو دنا مني لأخذه)(2)

ورووا أنه لما نزلت سورة المسد، أقبلت أم جميل، امرأة أبي لهب، ولها ولولة، وفي يديها فهر، وهي تقول: (مذمما أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا)، وأنت جالس في المسجد مع بعض أصحابك، فقال لك: (لقد أقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك)، فقلت له مطمئنا: (إنها لن تراني)، فراحت تصرخ: أين الذي هجاني وهجا زوجي؟.. فسألها من معك عن رؤيتها لك، فقالت: (أتهزأ بي والله، ما أرى عندك أحدا)، ثم انصرفت، فسئلت عن سر عدم رؤيتها لك، فقال: (حال بيني وبينها جبريل، يسترني بجناحيه حتى ذهبت)(3)

1() رواه أحمد والنسائي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255).

2() رواه ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 255)

3() رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم، وصححه ابن مردويه، والبيهقي، سبل الهدى

وهكذا كنت محجوبا عن كل أعدائك الذين يتربصـون بـك.. وكيف لا تكون كذلك، وأنت القرآن الناطق، وقد قال الله تعالى فيك وفيه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45]

وقد روي أن نفرا من قومك تواصوا بك ليقتلوك، منهم أبـو جهـل والوليـد بن المغـيرة وغيرهمـا، فبينمـا أنت قـائم تصـلي، سمعوا قراءتـك، فأرسـلوا إليـك الوليـد ليقتلـك، فـانطلق حـتى انتهى إلى المكان الذي تصـلي فيـه، فجعـل يسـمع قراءتـك ولا يراك، فرجـع إليهم فـأعلمهم بـذلك، فأتـاك من بعـده أبـو جهـل والوليد ونفر منهم، فلمـا انتهـوا إلى الصـوت، فـإذا الصـوت من خلفهم، فينتهون إليه فيسـمعونه أيضـاً من خلفهم، ثم انصـرفوا ولم يجدوا إليك سبيلا(1).

وغيرها من الروايات الكثـيرة المتـواترة، والـتي دل عليهـا، وعلى صحتها قوله تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]

وقد روي في سبب نزولها أن بعض المشركين وقفوا أمام بيتك، يريدون قتلك، فخـرجت عليهم، وأحـدهم يقـول لأصـحابه: (إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكـا، فـإذا متم بعثتم بعد مـوتكم، وكـانت لكم جنـان خـير من جنـان الأردن وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها)، فـالتفت إليهم من غـير أن يشـعروا بـك، فوضـعت التراب على رؤوسهم، وأنت تقرأ بداية سورة يس، ولم يفطنـوا لأنفسهم إلا بعد أن تساقط التراب من على رؤوسهم (2).

وهكذا شملك الله بحفظه في أشد الظروف صعوبة، مثلما حصـل لجـدك إبـراهيم عليـه السـلام عنـدما صـارت النـار بـردا وسلاما عليه، ليستطيع أداء الوظيفة التي كلف بها.

وعندما هاجرت إلى المدينة أرسلوا في طلبك حيا أو ميتا.. لكن الله نصـرك عليهم، وأيـدك بحفظـه.. كمـا ذكـر ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُـرُ بِـكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـاكِرِينَ ﴾ [الأنفـال: 30]

والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 256)

1() رواه البيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 257)

2() انظر الروايات الواردة في ذلك في: تفسير ابن كثير (6/ 564)

وأمام الغار، حصل الموقف الذي أرخ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]

لقد مكثت حينها في غار ثور ثلاثة أيام حتى لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر تحتهما، وحينها امتلأ صاحبك المرافق لك حزنا، فقلت له بكل هدوء، وأنت تعلم أن الله لن يضيعك: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] (1)

لقد كان ذلك الموقف يشبه كثيرا موقف نبي الله موسى عندما كان فرعون خلفه، والبحر أمامه، فقال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، فرد عليهم بكل هدوء: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]

وعندما ذهبت إلى المدينة، وزاد أعداؤك، بعد أن انضم إليهم اليهود والمنافقون، وأعلنت كل الحروب عليك، وجرت الكثير من محاولات اغتيالك، فشلت جميعا..

ومن تلك المحاولات ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، فقد روي أنك ذهبت إليهم لبعض الأمور بناء على المعاهدة التي كانت بين المسلمين وبينهم، فأجلسوك في حائط لهم ثم عزموا على قتلك، بقذف رحى عظيمة من فوق الحائط، لكن الله تعالى عصمك من شرهم، وأحبط كيدهم، وأبلغك بعزمهم ففارقت موضعك، وكان ذلك من أسباب جلائهم عن المدينة كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الحشر.

لقد رأى بعض الصحابة حينها أو بعدها أن يتخذوا لك حرسا يحرسك، بعد أن كثر المنافقون والمتربصون بك من البلاد المختلفة.. لكن الله تعالى أنزل عليك قوله وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة:67]، فصرفت الحرس عنك، وما حاجتك إليهم، وأنت في حفظ الله.

وهكذا كان أعداؤك يخططون كل حين لقتلك.. لكن محاولاتهم جميعا باءت بالفشل.. ومنها تلك المحاولة التي قام

1() البخاري برقم (3653) مسلم برقم (2381)

بها الطلقاء، ومن معهم من المنافقين الذين أجمعوا على أن يقتلوك، فلما أردت أن تسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معك، ليدفعوك عن راحلتك في الوادي، فأخبرك الله تعالى بمكرهم، فلما بلغت تلك العقبة، طلبت أن ينادى في الناس: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا بك؛ فلما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا، وسلكت العقبة، وأمرت عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها، وأمرت حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه، فبينا كنت تسير من العقبة إذ سمعت حسّ القوم قد غشوك، فنفّروا ناقتك حتى سقط بعض متاعك.. فأمرت حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم، ومعه محجن، فجعل يضرب وجوه رواحلهم ويقول: (إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى).. حينها علم القوم أنك قد اطّلعت على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة إليك، فقلت له: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار، فأسرعوا حتى استوى بأعلاها، وخرجت من العقبة تنتظر الناس(1).

وهكذا باءت كل محاولاتهم بالفشل إلى أن أذن الله لبعض كيدهم أن يصل إليك، لا لينهي الدور الذي كلفت به، فتموت قبل أن تكمل رسالة ربك، وإنما ليختم لك بالشهادة التي كنت تتمنى أن يختم لك بها..

فقد روي أن امرأة يهودية أتت إليك بشاة مسمومة، فأكلت منها، فجيء بها إليك، فسألتها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقلت لها: (ما كان الله ليسلطك على ذاك)(2)

وبالفعل لم يسلطها الله على ذلك، فقد كان ذلك السم شديدا، ويقتل من تناوله في نفس اللحظة التي يتناوله فيها.. لكن الله شاء ألا يفعل ذلك بك في تلك اللحظة التي لم تكتمل فيها دعوتك..

وعندما اكتملت دعوتك، وأذن لأجلك أن ينتهي، بعد أن علم الله شوقك الشديد للقائه.. أذن لذلك السم أن يعاود مفعوله

1() روى الحادثة أحمد عن أبي الطّفيل، والبيهقي عن حذيفة، وابن سعد عن جبير بن مطعم وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك والبيهقي عن عروة، والبيهقي عن ابن إسحاق، وغيرهم، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/ 466)

2() رواه البخاري (2474) ومسلم (2190)

من جديد، ليختم لك بالشهادة، كما أشرت إلى ذلك بقولك: (ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم)(1)

هذه بعض مظاهر حفظ الله لك مما حفظه لنا المؤرخون.. ولا يمكننا ـ سيدي ـ أن نحيط بها جميعا.. فقد كانت حياتك كلها في كنف الله.. وكان جميع شياطين الإنس والجن يتربصون بك.. ولذلك كنت محفوظا في كل ثانية من أن يتسرب إليك منهم ما يحول بينك وبين أدائك لرسالتك العظيمة.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أنال من ثمرات حفظ الله لك، ما يحفظني من كل سوء.. حتى لا أستسلم لأهواء المحرفين والمبدلين والمغيرين، أو أركن لتخويفهم وإرهابهم، بل أوقن بما أوصيتنا به في وصاياك العظيمة حين قلت: (إن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك، لم يقدروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا على ذلك، جفت الأقلام، وطويت الصحف)(2)

وأتوسل بك إلى الله ــ سيدي ــ أن يحفظ قلوبنا من أن تندس إليها الأهواء، أو تملأها الشياطين بوساوسها، أو تغير عليها جنود الخوف والفزع، فتمنعها من أداء ما كلفت به من واجبات.. إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

1() رواه البخاري (4165)

2() رواه أحمد (1/293) (2669) وفي (1/303) (2763) والترمذي (2516)

رسول العالَمين

سيدي يا رسول الله.. أيها المبعوث رحمة للعالمين.. يا من جعله الله الوسيلة لتحقيق كل غايات الوجود الإنساني.. فكنت السبيل الوحيد للانتصار على جميع الشياطين.. حتى يظهر بك الحق على الباطل.. وينتصر بك النور على الظلمات.. ويظهر دينك على الدين كله.. وبك تتحقق جميع أحلام الأنبياء والشهداء والأولياء..

لقد ذكر الله تعالى عالمية رسالتك، وأنك كنت المدخر للبشر، لتكون خاتمة عقد النبوة، فلا نبي بعدك، وكل من ادعى النبوة بعدك كذاب، وكل من اتبع غيرك ـ بعد علمه بك ــ كافر وضال.. فلا يقبل الله بأن يؤتى من غير بابك.

وكيف يقبل الله ممن سمع بك، ثم أعرض عنك، وقد أخذ ربك الميثاق على أنبيائه بلزوم اتباعك في حال كان زمنهم مطابقا لزمانك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81، 82]

وقد قال الإمام علي في بيانها وتفسيرها: (ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه)(1)

وقد ذكرت سيدي ذلك، وحذرت من الدجالين الذين قد يغرون الناس على أنفسهم، ويوهموهم بجواز اتباع غيرك.. لقد قلت في ذلك: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بي، إلا كان من أهل النار)(2)

وفي حديث آخر، قلت: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي).. ثم ذكرت منها: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة،

1() تفسير ابن جرير الطبري (2/ـ 236)، وتفسير ابن كثير (1/ـ 386)، وتفسير البغوي (1/ 322)

2() رواه مسلم: ج ١، ص 134، ح 240.

وبعثت إلى الناس عامة)[1]

وفي الحديث الصحيح المعروف أن بعض أصحابك أتاك بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه، فغضبت غضبا شديدا، ثم قلت: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[2]، فكيف يطالب الأنبياء عليهم السلام بوجوب اتباعك، ثم لا تؤمر أممهم بذلك؟

وما لنا نعود إلى الأحاديث التي نراهم يسارعون إلى تكذيبها من غير مبرر إلا الأهواء المجردة، ونترك القرآن الكريم الذي صرح بذلك، وفي مواضع كثيرة، فالله تعالى أخبر أن رسالتك إلى كافة الناس بخلاف رسائل سائر الرسل، والتي ذكر أنها لأقوامهم خاصة.. ولو أنهم قرؤوها وتدبروها لعادوا إلى رشدهم، وكفوا عن غيرهم، وتضليلهم للخلق.

لقد قال الله تعالى ينص على عالمية رسالتك التي تقتضي وجوب اتباعك وطاعتك في كل ما جئت به: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]، وكونك بشيرا ونذيرا لكل الخلق يدل على أن كل البشارات أو الإنذارات التي نطقت بها، أو نطق به القرآن الكريم، وفي آحاد الأعمال تنطبق على الخلق جميعا، وليس على الأمة التي حظيت باتباعك.. فالكل مسؤول عن اتباعك.

والله تعالى يدعوك لأن تخبر الناس جميعا، بأنهم مكلفون باتباعك، وأنه لا مناص لهم من ذلك، حتى لو بعث أنبياء الديانات التي ينتمون إليها؛ فإنهم لا يجوز لهم اتباعهم، بل عليهم اتباعك، لقد قال الله تعالى يدعوك لذكر ذلك لهم: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لأعراف:158)

فالآية الكريمة لا تأمرهم بمجرد الإيمان بك، وإنما تضيف إليه وجوب اتباعك، مع أن مجرد الإيمان بك كاف في وجوب

1() رواه البخاري 1 / 369 و 370، ومسلم رقم (521)

2() رواه أحمد (3/387).

اتباعك؛ فيستحيل على من يعلم أنك رسول الله، وأن الشـريعة التي جئت بها هي شريعة الله المعـبرة عن مراضـيه أن يتركهـا لغيرها من الشرائع التي شهد القرآن الكريم بتحريفها وتبديلها.

وهكـذا نجـد الآيـات الكثـيرة المخـبرة عن كونـك رسـولا ورحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقـان:1)، وقـال: ﴿ إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرَى لِلْعَـالَمِينَ﴾ (الأنعـام: 90)، وقـال: ﴿ وَمَـا هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ لِلْعَـالَمِينَ﴾ (القلم:52)، وقـال: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

وغيرهـا من الآيـات الكريمـة الـتي لا يفهم منهـا إلا كـون رسـالتك شـاملة للعـالمين جميعـا.. وفي كـل الأجيـال.. ولكـل البشر.. ولأصحاب كل الأديان.. ولا عـذر لأحـدهم بعـدم اتباعـك بعد سماعه بك، واطلاعه على ما جئت به.

سيدي يا رسول الله.. يا رحمـة اللـه للعـالمين.. لقـد تـرك أولئـك الـدجالون المشـاغبون كـل هـذه النصـوص الصـريحة الواضحة، وراحوا يتعلقون بالمتشابهات من النصوص، والتي دل القرآن الكريم نفسه على معانيها..

لقـد فعلـوا مثلمـا فعـل المجسـمة وغـيرهم الـذين تعلقـوا بنصوص متشابهة تحتمل معاني متعدد، وراحـوا يفرضـون عليهـا المعنى الذي يريدون، من دون أن يحاولوا الجمـع بين النصـوص كما هو الأصل في التعامل مع النصوص المقدسة عند التعارض.

ومن تلك النصوص الـتي راحـوا يسـتدلون بهـا مـا ورد في القرآن الكريم من دعوة أهل الكتاب لإقامـة التـوراة والإنجيـل، كقولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ يَـا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لَسْـتُمْ عَلَى شَـيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيـلَ وَمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائـدة: 68]، وقد توهموا أن هذه الآية الكريمة تدعو أهل الكتاب للعمل بكتبهم، وعدم العودة للقرآن الكـريم، الـذي جعلـه اللـه مهيمنـا على كل الكتب.

وقد غفلوا عن أن تلك الآية الكريمة قد عقبت مباشرة بمـا يزيـل الفهم السـيء الـذي قـد يفهم منهـا؛ فاللـه تعـالى عقبهـا بقولـه: ﴿وَلَيَزِيـدَنَّ كَثِـيرًا مِنْهُمْ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًـا وَكُفْـرًا فَلَا تَـأْسَ عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ﴾ [المائـدة: 68]، حيث اعتبرهم كافرين لإعراضهم عما أنزل من القرآن الكريم.

وبـذلك فـإن الـذي يقيم التـوراة والإنجيـل مضـطر معهمـا

لإقامة القرآن الكريم، حتى لا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]

فإذا فعلوا ذلك، وأقاموا القرآن الكريم نتيجة إيمانهم به مثل إيمانهم بكتبهم، ونتيجة إيمانهم بك، ذلك أنه لا يمكن الإيمان بك دون الإيمان بما أنزل عليه.. حينها يصبح الإيمان المجرد عن الاتباع لغوا، وهو ما ينقض كل الأصول التي اعتمدوا عليها.

ولو أنهم ـ سيدي ـ تركوا كبرياءهم وغرورهم ـ وعادوا إلى القرآن الكريم الذي يتوهمون أنهم يستندون إليه في دعواهم، وسألوه عن نوع الإقامة التي طلبها الله تعالى منهم، لعلموا أنها ما ورد في كتبهم من تلك الوصايا التي أمر بها القرآن الكريم، والتي لا يمكن تنفيذها إلا بتلك الشرائع التي جئت بها.

ولو أنهم رجعوا لكتبهم، وكانوا صادقين في رجوعهم، لعلموا أنه لا يمكن إقامة كتبهم من دون اتباعك؛ فأول ما يجدونه فيها تلك البشارات التي امتلأت بها، والتي تدعو إلى وجوب اتباعك، وهي كثيرة جدا، وقد أشار إليها القرآن الكريم في مواضع منه، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]

بل أخبر القرآن الكريم أنه قد ورد في الكتاب المقدس من التفاصيل المرتبطة بك ما يجعلهم موقنين بك، غير شاكين فيك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 146]

ولو أن أولئك المجادلين المشاغبين الذين توهموا أنه يمكن إقامة الدين من دون اتباعك، رجعوا إلى القرآن الكريم، واستمعوا بوعي لما ورد فيه من الإخبار عن التحريفات التي حصلت في كتب جميع الأديان، وأن أهل الكتاب كانوا يشترون بتحريفها ثمنا قليلا، لعلموا أنه لا يمكن أن يأمر الله باتباع كتب

محرفة.. فهل يعقل أن يأمر الله تعالى أهل الكتاب بـأن يقيمـوا ما حرف من كتابهم، قـال تعـالى: ﴿أَفَتَطْمَعُـونَ أَنْ يُؤْمِنُـوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَـا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]

ولو أن أولئك المجادلين المشاغبين كلفوا أنفسهم بـالعودة إلى تلك الكتب التي يدّعون أنـه يمكن لأهـل الكتـاب أن يكتفـوا بها عن اتباعك، لرأوا فيها من الطامات والخرافات والخزعبلات والأسـاطير مـا يتنـافى مـع دين اللـه.. فهـل يمكن أن يطـالبوا بالإيمان بكل ذلك؟.. هل يمكن أن نعتبر تلك الكتب بعد ذلك، ثم نطلب من أهل الكتاب إقامتها، وأن يضيفوا إليها فقط الاعتراف بكونك مجرد رسول لا يجب اتباعه؟

إن هــؤلاء ســيدي لم يفهمــوا الغــرض من تلــك الآيــات الكريمة، لأنهم حكموا أهواءهم فيها.. ولو أنهم عادوا للراسـخين في العلم الــذين يحكمــون المحكم على المتشــابه لعلمــوا أن المراد منها غير ما فهموه.

فاللـه تعـالى في تلـك الآيـة الكريمـة يـدعو أهـل الكتـاب للعودة لكتابهم ليتمثلوا القيم النبيلة الموجودة فيه، ويتمثلـوا مـا ورد فيه من أوامر باتباعـك.. وهي لا تعـني بـذلك اكتفـاؤهم بمـا فيها عن اتباعك.

بل إن مثل ذلك مثل من يخاطب سياسيا يراه قـد انحـرف عن مشروعه الذي طرحه، بالعودة إلى مشروعه، والعمـل بمـا فيه، مما كان قد وعد به، وذلك لا يعـني أن مشـروعه معصـوم، أو أنه كاف، وإنما هو نـوع من التـنزل في مخاطبـة الآخـر، كمـا قال تعالى في مخاطبة المشركين: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَـا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]، فهل يمكن الاسـتدلال بهـذه الآية الكريمة على أن المسلمين كانوا مجرمين؟

ومثل ذلك تنزل إبراهيم عليه السلام مع الملك، عندما قال لـه ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقـرة: 258]، فجادلـه الملـك، وقال: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، حينها لم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يناقشه في ذلك، وإنمـا انتقـل بـه لـدليل آخـر.. وهو لا يعني إقراره بأن الملك يحيي ويميت.

وهكذا نجـدهم يسـتدلون بمـا ورد في القـرآن الكـريم من النصوص الدالة على نجاة غـير المسـلمين، كقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 62]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [المائدة: 69]

مع أن هذه الآيات الكريمة لا يمكن فهمها إلا في ضوء النصوص الأخرى الكثيرة الدالة على كفر من أشرك بالله من اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 17]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: 72]، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 73]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تنص على كفر من أشرك بالله تعالى، أو لم يتبعك أو كذبك.

ولو أنهم آمنوا بهذه الآيات جميعا، لعلموا أن القرآن الكريم لا يتحدث عمن رأوك وعاصروك وسمعوا بك أو جاءوا من بعدك، فأولئك يجب عليهم الإيمان بك واتباعك، وإنما يتحدث عمن لم يتشرفوا برؤيتك، أو لم يسمعوا بك لأسباب زمانية أو مكانية خارجة عن قدراتهم.

أما الزمانية؛ فلكونهم في أزمنة سبقت الإسلام، ولم يعرفوا دينا إلا تلك الديانات، فهم غير مكلفين إلا بها.. وأما المكانية؛ فهو كونهم في أقصى الأرض، ولم يتهيأ لهم أن يسمعوا بالإسلام، فهم غير مؤاخذين بسبب ذلك.

ولو أنهم تواضعوا، ورجعوا إلى الأسلوب القرآني في التعبير، لوجدوا الله تعالى يقول عند حديثه عن بني إسرائيل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [الأعراف: 159]، فهذه الآية الكريمة لا تقصد وجودهم في كل الأزمنة، وإنما تقصد وجودهم في الأزمنة السابقة قبل رسالتك، لأنه بعد إرسال الله لك صار على الجميع وجوب اتباعك.

ولو أن هؤلاء المجادلين استمعوا بوعي وتدبر لما ورد في القرآن الكريم في نصارى نجران المسالمين الذي تعاملت معهم بكل سماحة ولطف، ولكنك مع ذلك لم تسكت عن

كفرهم وجحودهم عن اتباعك، بـل دعـوتهم إلى المباهلـة، الـتي نص عليها قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَـنَا وَأَنْفُسَــكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِــلْ فَنَجْعَــلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَـاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61]

وقد ورد في تلك الآيات التي تخـاطبهم قولـه تعـالى: ﴿ يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70]، وقوله لهم: ﴿يَا أَهْـلَ الْكِتَـابِ لِمَ تَلْبِسُـونَ الْحَـقَّ بِالْبَاطِـلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 71]

وهكذا ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تخبر عن الموقـف الحقيقي من أهـل الكتـاب، وهـو الموقـف الـذي يـبين ضلالهم عن الحق، وكفرهم بسبب عدم اتبـاعهم لـك، في نفس الوقت الذي تأمر فيه بالسماحة معهم، وتأليف قلوبهم..

ولا تعارض بين الأمرين، فالقول بكفرهم وجحودهم للحـق، لا يقتضي المعاملة السيئة لهم؛ فقد تعاملت مع وفد نجران بكل سماحة وأدب، ولكنـك مـع ذلـك لم تـداهنهم ولم تجـاملهم، ولم تنزل إلى رغباتهم، بل بينت لهم حقيقـة ضـلالهم، ودعـوتهم إلى المباهلة عند جحودهم لها.

ولــو أن هــؤلاء المشــاغبين والمجــادلين والمنفــرين من اتباعك، رجعـوا إلى الكتب الـتي يصـورون أنهـا تعـوض القـرآن، والأنبياء الذين يتوهمون أنهم يعوضـونك، لوجـدوا غـير مـا كـانوا يظنون..

ذلك أن كل البشارات التي تبشر بك في تلـك الكتب تخـبر أن رسالتك للعالمين، وأن على اليهود والنصارى وغيرهم وجوب اتباعـك، ذلـك أن كـل الشـرائع تنسـخ بشـريعتك، وقـد ورد في إنجيل متى [5/17-18] قـول المسـيح عليـه السـلام: (لا تظنـوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقـول لكم: إلى أن تـزول السـماء والأرض لا يـزول حرف واحد أو نقطـة واحـدة من النـاموس حـتى يكـون الكـل)، فهذا المبشر به هو الكل الذي له الكـل، وهـو أنت يـا سـيدي يـا رسول الله.

لقد قال هذا في نفس الوقت الذي قال فيه عن نفسه كما جاء في إنجيل متى [15 /، 24]: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)؟

ولهذا جاء اليهود إلى المدينة المنورة، لأنهم كانوا يترقبون مجيئك إليها بحسب ما تدل عليه كتبهم، والتي تأمرهم بوجوب اتباعك، كما قال تعالى مخبرا عن ذلك: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:89)

فهذه الآية الكريمة تنص على أن اليهود كانوا من قبل مجيئك بالقرآن الكريم يستنصرون بمجيئك على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، وقد نقل لنا المؤرخون ــ بالأسانيد الصحيحة ـ أقوالهم الدالة على ذلك.. فقد كانوا يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وقد نقل بعضهم شهادة عنه في ذلك، فقال: فينا والله، وفيهم ــ يعني في الأنصاروفي اليهود الذين كانوا جيرانهم ـ نزلت هذه الآية ـ يقصد الاية السابقة ـ كنا قد علوناهم دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: (إن نبيًا من الأنبياء يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم)، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به.. فذلك قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(النساء: 155)

وقد ذكر المؤرخون بعض المحاجة التي أقامها أهل المدينة على جيرانهم من اليهود، فذكروا أن معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، قالا: (يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه لنا بصفته)، فقال سَلام بن مِشْكم أخو بني النضير: (ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله في ذلك من قولهم:﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:89)(1)

فيا سيدي يا رسول الله.. يا رحمة الله للعالمين.. ويا وسيلته العظمى.. أتوسل بك إلى ربي أن يوفقني لأن أبلغ دينك للعالمين.. فلو سمعوا به، وعرفوا حقيقته الجميلة، وقيمه

1() انظر: السيرة النبوية لابن هشام (1/547) وتفسير الطبري (2/233).

النبيلـة، لتهـافتوا عليـه، ولـدخلوا فيـه أفواجـا.. وهـل يمكن أن تقارن تلك الديانات المحرفة الممتلئة بالخرفات بـدينك الممتلئ بالطهارة والعقلانية والأخلاق العالية والقيم الرفيعة.

واقبلـني سـيدي في جملـة أتباعـك الصـادقين المخلصـين الـذين لم يخلطـوا دينـك بـأي هـوى أو فلسـفة أو هرطقـة أو زندقة.. حتى يكون ديني هو دينك، أبيض نقيـا صـافيا كمـا أنزلـه عليـك ربـك.. إنـك أنت الوسـيلة العظمى.. وأنت رحمـة اللـه للعالمين.

النبي المعصوم

سيدي يا رسول الله.. أيها النبي المعصوم الذي عصم الله جسده من أن يتسلط عليه أعداؤه.. وعصم نفسه من أن تتسلط عليها الوساوس.. وعصم روحه من أن تتسلط عليها الأهواء.. وعصم حقيقته من أن ينطفئ نورها، أو يخبو سراجها.

لقد أذن الله لك ـ سيدي ـ بكل هذه الأنواع من العصمة رحمة بعباده، حتى تكون علم هداية يهتدون بك.. وسراج إنارة يطفئون بك الظلمات..

وهو لم يأذن لذلك، إبعادا لك عن التكليف، وإلا لم تكن قدوة لخلقه.. وإنما فعل ذلك لعلمه بك، وبطهارة نفسك، وسمو روحك، وكرم معدنك..

فعصمتك ـ سيدي ـ موهبة وكسب.. ولم تكن موهبة إلا بعد أن كانت كسبا.. فقد كلفك الله كما كلف خلقه جميعا، واختبرك كما اختبرهم، وعندما نجحت في كل أنواع البلاء التي ابتليت بها، أنزل عليك سرابيل عصمته وحفظه.. فصرت كتلك الشمس التي لا تحجبها الغيوم.. وكتلك الأنوار التي لا تطفئها الظلمات.

ما عساي سيدي أقول في عصمتك.. وحياتك كلها ممتلئة بالتقوى والطهارة والصلاح من صغرك الباكر.. إلى أن توفاك الله تعالى، ونفسك أطهر من ماء المزن، وقلبك أبيض من الثلج، وأخلاقك أرق من النسيم العليل.

لكني سيدي ممتلئ هما وحزنا من تلك الحروب التي شنها أعداؤك من المدلسين والمشوهين والمحرفين والناكثين والقاسطين عليك.. حيث راحوا يدسون في الأحاديث المروية عنك، ما يشوه جمال عصمتك، وعظمة طهارتك.

وكأنهم ــ سيدي ــ لم يقرؤوا كل ما ورد من شهادات التزكية الإلهية في حقك.. فقد زكى الله تعالى عقلك، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: 2]، فلذلك لم يكن عقلك لينسى أو يغفل أو تعتريه تلك الأخطاء التي تعتري العقول.

وزكى لسانك، فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: 3]، فلذلك لم يكن لسانك إلا طاهرا في الرضا والغضب، وفي كل الأحوال، فقد تقدس أن يكون فاحشا أو بذيئا أو مغتابا أو أن

يقع فيما تقع فيه الألسن من أصناف الخطايا.

وزكى فـؤادك، فقـال: ﴿مَـا كَـذَبَ الْفُـؤَادُ مَـا رَأَى﴾ [النجم: 11]، فلـذلك كـانت مـداركك أدق المـدارك، وعلومـك أوثـق العلوم..

وزكى بصرك، فقـال: ﴿مَـا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَـا طَغَى﴾ [النجم: 17]، ولذلك كنت أعظم الناس أدبا، وأزكاهم خلقا..

وزكى كل حركاتك في الدعوة إلى الله، فقـال: ﴿قُـلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَـا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]، ولذلك يستحيل أن يقع الخطأ في أي سلوك سلكته، أو دعوة دعوتها.

وزكى أخلاقك، واعتبرها عظيمة، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]، وهل هناك شهادة أعظم من هذه الشهادة التي شهد لك بها ربك العظيم.

وهكـذا زكـاك في كـل جوانبـك.. فصـرت ممثلا للحقيقـة والقيم الطاهرة أحسن تمثيل، ولولا ذلـك لاحتج المحتجـون بـأن الحقيقــة والقيم أعظم من أن تنفــذ، لأن من تــنزلت عليــه لم ينفذها كما ينبغي أن تنفذ.

ولـذلك كـانت الجـرأة على عصـمتك ليسـت جـرأة على شخصك فقط، وإنمـا هي جـرأة على القيم نفسـها، وكـأن اللـه كلفنا بما لا نطيق..

وهي جـرأة على القـرآن الكـريم الـذي تـنزل عليـك وحيـه ومعناه، فصرت مثاله الناطق، وأنموذجه الحي المتحـرك.. ذلـك أن اختلاف سلوكك معه يؤثر فيك وفيه.. وذلك مستحيل.

وهي جرأة على الله تعالى الذي أمر بالاقتداء بك، واتخاذك أسوة حسنة في كل شـيء، فقـال: ﴿لَقَـدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَذَكَـرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].. وهل يمكن أن يأمرنا الله بـأن نتأسـى بمن تقع منه الأخطاء والهفوات والذنوب؟

لقد رحت ـ سيدي ـ أذكر هذا لقـومي، فـاتهموني بالبدعـة، واعتبروا القول بعصـمتك المطلقـة نوعـا من الغلـو والمبالغـة.. وعنـدما ذكـرت لهم مـا ذكـره اللـه تعـالى في حقـك.. راحـوا يضربون القرآن الكريم بما يروونه من الأحاديث التي تحـط من شأنك، حتى أنهم اتهموك بأنك قد تسـب أو تلعن أو تضـرب من لا يستحق ذلك.. ومعاذ الله أن يكـون لسـانك بـذيئا، أو أن تلعن

من لا يستحق اللعن.. أو تعاقب من لا يستحق العقوبة.

ولم يكتفوا بذلك ـ سيدي ـ بل راحوا يتهمونك في عقلك.. وأن اليهود استطاعوا أن يسحروك، ويؤثروا في مداركك العقلية، فتعتقد الأشياء على خلاف ما هي عليه..

وعندما قرأت عليهم ما ورد في القرآن الكريم من تنزيهك عن السحر.. وذكرت لهم أن الله تعالى أخبر أن اتهامك بالسحر ليست سوى مقولة المشركين، وقرأت عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: 7]، وقوله، وهو يرسم مشهداً من مشاهد المواجهة بين دين الله ودين الشياطين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبأ: 43]، وقوله، وهو يحكي اتهام المحاربين لك بأنك كنت خاضعا لتأثير السحر: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 47]

بعد أن ذكرت لهم هذه الآيات وغيرها، راحوا يصمون آذانهم، ويذكرون لي تلك الرواية التي تتفق العقول على تنزيهك عنها.. وعندما أخبرتهم أنها منافية للقرآن.. ومنافية لحجج العقول.. راحوا يتهمونني في ديني، وأنني أتجرأ على الحديث الذي رواه رجال كبار كالبخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة والنسائي والبيهقي وغيرهم(1).

وعندما ذكرت لهم أن هؤلاء بشر، قد يخطئون وقد يصيبون، وأن الرواة الذين رووا عنهم، قد يغفلون أو يتسرب إليهم المدلسون، فيدسوا في السنة ما ليس منها.. ولذلك كان الحكَم هو القرآن الكريم.

عندما ذكرت لهم هذا عبسوا، واعتبروني منكرا للسنة، مع أني أتعبد الله بقراءة أحاديثك، كما أتعبد بقراءة القرآن الكريم.. وما نفيت من السنة إلا ما رأيته مخالفا لكتاب الله، ومخالفا لكل تلك القيم التي جئت بها.. ولم أجز لنفسي أن أتبع

---

(1) (1) الحديث رواه البخاري رقم (5766) في الطب، باب السحر، وباب هل يستخرج السحر، وباب السحر وفي الجهاد باب هل يعفى الذمي إذا سحر، وفي الأدب باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾، ومسلم رقم (2189) في السلام، باب السحر، ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن سعد والحاكم وعبد بن حميد وابن مردويه، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) وغيرهم.

راويا أو مجموعة رواة، ثم أحطم من خلالهم كـل تلـك الثـوابت التي رسخها القرآن الكريم في نفسي عنك.

لم يقبلوا هذا مني.. فقلت لهم: ألا تعلمون أن اللـه تعـالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَـافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ مَـرَدُوا عَلَى النِّفَـاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَـنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُـرَدُّونَ إِلَى عَـذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبـة: 101].. ثم قلت لهم: ألا يمكن أن يكون في أولئـك الـرواة من وثقهم الموثقـون من غير معرفة كاملة بهم، فدسوا في الإسلام ما ليس منه؟

فرفضوا ما ذكرت لهم، وظلوا على تعلقهم بأنـك سـحرت، وأنه صار يخيلُ إليك أنك فعلت الشيء مع أنك لم تفعلـه.. وهي حالة خطيرة جدا بالنسـبة لإنسـان عـادي، فكيـف بنـبي، فكيـف بخاتم الأنبياء وسيدهم؟

إنهم ـ سيدي ـ لم يدركوا أن ذلك الشيء الذي يخيل إليــك أنك فعلته مع أنك لم تفعله قد يرتبط بتبليـغ الـدين.. وليس في الحديث الذي يروونه ما ينفي ذلك.. وبذلك يكون جــزء مهم من الدين لم يصل إلينا بسبب أنك ـ تعاليت عن ذلك علـوا عظيمـا ـ كنت تتوهم أنك بلّغته مع أنك لم تبلغه..

ولو أنهم ـ سـيدي ــ رجعـوا لتلـك النصـوص الـتي تقدسـك وتنزهك وتخبر عن عصمتك المطلقة، لاكتفوا بها.

لو أنهم قرؤوا قول الله تعالى الواضح الـدقيق الـدال على أن حياتك كلها دعوة وبلاغ عن الله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَـا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى (4)﴾ [النجم: 2 ـ 4] لكفوا عن غلوهم وتعظيمهم للحديث، وهجرهم للقرآن الكريم.

بل إنهم لـو رجعـوا للسـنة نفسـها، لوجـدوا الحـديث الـذي يرويه عمرو بن شـعيب عن أبيـه عن جـده، والـذي يقـول فيـه: قلت: يا رسول الله اكتب كل ما أسمع منـك؟ قـال: نعم، قلت: في الرضا والغضب؟ قال: (نعم فإني لا أقـول في ذلـك كلـه إلا حقا) (1)

ولو أنهم سيدي رجعوا لتلك الأحـاديث الكثـيرة الـتي تخـبر عن كشـف اللـه لـك لكـل مـا حولـك كشـفا واضـحا، بحيث لا يستطيع أحد أن يتجرأ عليك.. لاكتفوا بها.. وردوا بها تلك الرواية

1() رواه الترمذي.

الهزيلة التي تسيء إليك.

لو أنهم عادوا لما يروونه من أن رجلا جاءك، فقال: من أنت؟ فقلت:(أنا نبي)، فقال: وما نبي؟ قلت:(رسول الله)، فقال: متى تقوم الساعة؟ قلت:(غيب ولا يعلم الغيب الا الله)، فقلت: أرني سيفك، فأعطيته سيفك، فهزه، ثم رده عليك، فقلت له:(أما إنك لم تكن تستطيع ذلك الذي أردت)(1).. ثم قلت لأصحابك:(إن هذا أقبل، فقال: آتيه، فاسأله ثم آخذ السيف، فاقتله ثم أغمد السيف)(2)

وهكذا كنت تخبر أصحابك بما يحدثون به أنفسهم من التعرض لك، فعن شيبة بن عثمان قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن، بحنين فعسى أن اختلطوا أن أصيب غرة من محمد فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا أتبع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني فوضعت يدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال:(ادن مني)، فدنوت فمسح صدري، وقال:(اللهم أعذه من الشيطان) فو الله لهو حينئذ أحب الي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان بي، فقال:(يا شيبة، الذي أراد الله بك خيرا مما أردت بنفسك؟) ثم حدثني بما اضمرت في نفسي! فقلت: بأبي أشهد أن لا اله الا الله، وأنك رسول الله، استغفر لي يا رسول الله، قال:(غفر الله لك)(3)

ومثل ذلك ما يروونه عن عمير بن وهب أنه جاء يريد قتلك، فسألته: ما جاء بك يا عمير؟ فقال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه؛ فقلت له: فما بال السيف في عنقك؟ فقال : قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئا ؟ فقلت : اصدقني، ما الذي جئت له ؟ فقال : ما جئت إلا لذلك، فقلت له: (بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر،

1() رواه الحاكم وصححه والطبراني.

2() رواه الطبراني.

3() رواه ابن سعد وابن عساكر.

فـذكرتما أصـحاب القليب من قـريش، ثم قلت : لـولا دين علي وعيال عندي لخرجت حـتى أقتـل محمـدا، فتحمّـل لـك صـفوان بدَيْنك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلـك)؛ فاندهش عمير حينها، وقال: (أشهد أنك رسول اللـه، قـد كنـا يـا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، ومـا يـنزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنـا وصـفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هـداني للإسـلام، وساقني هذا المساق، ثم شـهد شـهادة الحـق)، فقلت: (فقهـوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره)(1)

وهكذا حماك الله تعالى من حـوادث كثـيرة كـان يمكن أن تودي بك، ولكن الله تعالى أنبـأك عنهـا قبـل أن تقـع.. وهـذا مـا يهدم كل الأسس التي قام عليهـا ذلـك الحـديث الـذي يشـوهك أعظم تشويه..

عندما ذكرت لهم هذا، وقلت لهم: هل كان الله يخـبر نبيـه ﷺ عن كل تلك الحوادث، ويخبره مباشرة عما يكاد له، من غـير حاجـة إلى ملاك أو غـيره.. إلا في حـديث السـحر.. فهـل كـان للسحرة من الكيد والقدرة على التخفي مـا لم يسـتطع رسـول الله ﷺ أن يطلع عليه؟

لم يجـدوا مـا يجيبـون بـه إلا مـا تعـودوا أن يجيبـوا بـه من يخالفهم برميه بالبدعة والزندقة، وإنكار السنة، وكـأن كـل تلـك الأحاديث، لم تكن من السنة، ولا كل تلك المعاني القرآنية التي تتحدث عنك لم تكن من السنة.

هذا سيدي غيض من فيض من إساءتهم لك.. وأنا أبـرأ إلى اللـه من كـل حـديث يشـوهك، أو كـل راو يسـيء إليـك.. فلأن أضـحي بكـل دواوين الـدنيا أهـون علي من أن أضـحي بشـعرة منك.

فأتوسل بك ـ سيدي يا رسول الله ـ إلى ربي أن يحفظني، ويحفظ أخلاقي ونفسي وروحي وقلـبي وجسـدي.. حـتى أمتلئ بالطهارة والصفاء والنبل.. وحتى أكون صـالحا لاتباعـك، وتكـون أنت قدوتي وأسوتي.

وأسألك أن أكـون من الـذابين عنـك، المـدافعين عن القيم الـتي جئت بهـا، فـأعظم الجهـاد المنافحـة عنـك وعن أخلاقـك

1() سيرة ابن هشام: 1/ 662.

الطاهرة التي هي مراد الله من عباده.

خاتم النبيين

سيدي يا رسول الله.. يا من جعلك الله الخاتم الذي تنتهي به النبوة، والكمال الذي تنتهي إليه مسيرة شرائعها.. فجعل دينك مهيمنا على الأديان، وكتابك مصححا لما انحرف من الكتب، وشريعتك ناسخة للشرائع، وهديك موضحا للسراط المستقيم الذي تفرقت به الأهواء.. فمن اقتبس الدين منك اهتدى، ومن مال لغيرك ضل..

سيدي لقد دلت كل الدلائل القطعية على خاتميتك للنبوة، ونصت عليها كل البشارات التي بشرت بها الأنبياء؛ فكلها اتفقت على أنك الخاتم، وأنك الخلاصة، وأن كل من ادعى النبوة بعدك ضل.. ولم يجادل في ذلك إلا أولئك الذين حسدوك، وتوهموا أن ختمك للنبوة يحول بينهم وبين المناصب الإلهية التي يمنون نفوسهم الأمارة بها.

ولو أنهم سيدي سلموا لله تعالى الخلق والاختيار.. لعلموا أن الله تعالى ابتلاهم بك، كما ابتلى من أمرهم بالسجود لآدم.. أما الملائكة الطاهرون، أصحاب المناصب الرفيعة، فسلموا.. وأما الشيطان ذلك الذي لم يعرف أسرار الاختيار الإلهي؛ فراح يجادل فيه.

وكذلك حصل لمن راح يجادل في ختمك للأنبياء، وخاتميتك للنبوة، فقد توهموا أنك سددت أبواب الكمال عنهم، ولم يعلموا أنك فتحتها لهم، وأنه ليس على من يريد أن يلج باب أي منصب إلهي، أو يرقى سلم أي كمال إلا أن يتبعك، ويسير على سراطك المستقيم، ويحتذي حذو سنتك الشريفة.

هم لم يعلموا ـ سيدي ـ أن البشر بعد أن جئتهم استغنوا بك عن أن يتنزل إليهم الأنبياء، مثلما يستغني المريض الذي يجد الطبيب الذي يعالج كل أدوائه، ويشفي كل أسقامه..

أو مثلما يكتفي التلميذ بالأستاذ الذي يشرح له كل دروسه، أو يوضح له كل ما يريده من حقائق، ويربيه على كل ما يصلح من قيم.

هم لم يعلموا ـ سيدي ـ أن لكل شيء نهاية ينتهي إليها.. وأن النبوة مثل سائر الأشياء.. قد انتهت بك إلى الكمال الذي لا كمال بعده.. ولذلك جعلك الله النهر الذي تجتمع عنده كل

الروافد.. فمن شرب منه شرب منها جميعا، ومن سبح فيه سبح فيها جميعا.

ولو أنهم ـ سيدي ـ تأملوا قولك: (مثلي في النبيين كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لَبنة لم يَضَعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تمَّ موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة)(1) لعلموا أن الله تعالى هو الذي تولى بناء دار النبوة، وهو أعلم بمواضع كل لبنة من لبناتها.. وكما أن الدار إذا اكتملت لا تحتاج إلى المزيد من اللبنات؛ فكذلك النبوة.

فالنبوة منصب إلهي دعت إليه حاجة الخلق إلى هداية التشريع.. فإذا بلغت هداية التشريع إلى أجمل صورها، وأكملها، وحفظت بكل أساليب الحفظ ووسائله.. لم يكن هناك حاجة إليها.. بل إن رحمة الله في عدم حاجتهم إليها.. لأن الأمر قد استقر حينها على الشريعة التي تصلح للخلق جميعا.

إن الأمر في ذلك ــ سيدي ــ يشبه ذلك المريض الذي يسعى للأطباء.. وهو يتمنى من كل قلبه أن يجد الطبيب الذي يكفيه كل أدوائه، ويعالج كل ما نزل به.. وحين يجده، سيمتلئ فرحا، وسيكتفي به، لأنه يعلم أنه لن يحتاج إلى التعب في البحث عن طبيب جديد، ولن يبتلى في طريق البحث بالدجالين والكذابين والمدعين.

لقد كنت تذكر ذلك سيدي كل حين، وتربطه بالدجالين الذين يدّعون النبوة، أو يدّعون وظائفها؛ فيحسبون أن لهم الحق في تحليل ما حرمت، أو تحريم ما أحللت، أو تعديل ما شرعت.. من غير أن يسموا أنفسهم أنبياء.. وإن كانوا يزعمون لأنفسهم نفس أفعال الأنبياء.

لقد ذكرت هؤلاء، فقلت: (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي)(2)

وروي عنك في حديث آخر قولك: (في أمتي كذابون و دجالون، سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، و إني خاتم النبيين،

1() رواه أحمد (21281)

2() رواه الترمذي 2219، وأبي داود 4252.

لا نبي بعدي)[3]

صدقت ـ يا سيدي يا رسول الله ـ فقد رأينا بأعيننا أمثال هؤلاء الدجالين الذين يتوهمون أنهم يستدركون على ما جئت به.. بل رأينا من يسخر بمن يلتزم بما نص عليه ظاهر الكتاب الذي أنزل عليك، والبيان الذي كلفت بتبليغه.. ويعتقد أن ذلك الالتزام نصيب العوام.. لا الخواص.. وأن الكمال في تلك الفهوم الجديدة التي تُبدل بها الحقائق، ويُعبث فيها بالقيم.

ولو سلموا لك، وعلموا أنك الخاتم، وأن شريعتك لا تنقض أبدا، وأن الزمان لا يزيد حقائقها إلا جلاء ووضوحا.. لهداهم الله إلى تلك الأسرار التي تنطوي عليها، والكمال الذي توصل إليه.

لقد غفلوا عن ذلك ـ سيدي ــ وراحوا يتوهمون أن أولئك الدجالين الذي ارتقوا تلك المناصب الرفيعة.. هم الأولى بالاتباع، وهم الأحق بالانتساب إليهم.

لقد رأيت بعضهم يخالف هديا من هديك.. فرحت أعرض عليه قولك، وأدعمه بما ورد في كتاب الله مما يدل عليه.. فراح يقول لي: لكن شيخي وأستاذي يرفض هذا، وأنا لا أسلم إلا بما يقوله شيخي وأستاذي.

هل رأيت سيدي كيف استبدلوك بغيرك.. وكيف وضعوا الحجب بينهم وبينك.. وكيف وضعوا لأنفسهم شريعة جديدة هي أبعد الشرائع عن شريعتك.

لقد رأيت بعضهم يفتي بحرق الكنائس وإيذاء أهلها.. فذكرت له سماحتك ولطفك مع المخالفين لك في الدين، وقرأت له قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، وقوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

وذكرت له كيفية تعاملك مع وفد نجران.. وكيف أذنت لهم في الصلاة في مسجدك.. فغضب غضبا شديدا، وقال: (أأنت أعلم بالسنة من شيخي الذي كتب رسالة في هذا.).. ثم راح يسرد لي أقوال من يراهم علماء، وهم ليسوا سوى مناوئين

---

[3]() رواه أحمد 22849..

للهدي الذي جئت به، والسماحة التي وصفت بها شريعتك.

لم يكن الأمر قاصرا على هؤلاء سيدي، وليته كان قاصرا عليهم.. بل إن الكثير استبدلوا النسبة لك بالنسبة لمشايخهم.. فصرت لا تكاد تُذكر بينهم.. ولو أنهم اكتفوا بنسبتهم لك، وانتماءهم لدينك، لتوحدت صفوفهم، واجتمعت كلمتهم.. وعلموا أنهم حتى لو اختلفوا فأنت تجمعهم.. ولو تفرقت بهم بعض السبل، فأنت الملاذ الذي يحتمون به من أوزار الفرقة والخلاف والشقاق.

ولم يكن الأمر قاصرا على هؤلاء أيضا سيدي.. بل ظهر من يجادل في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 40]، ويؤوله بما شاء له هواه.. ابتغاء أن يلغي خاتميتك، حتى أن بعضهم راح يصور لأتباعه أنك الخاتم الذي يوضع في الأصبع، أو الخاتم الذي توقع به التواقيع.. لا ما أراده الله من كونك النبي الذي تنتهي به الأنبياء، فلا شريعة بعد شريعتك، ولا نبوة بعد نبوتك.

ولو أن هؤلاء رجعوا لتلك النصوص الكثيرة التي تذكر هذا المعنى، وتحذر من كل دعوى ترتبط به، لعادوا إلى وعيهم، وساروا خلفك.. فالله ابتلاهم بك، بل شرفهم بك.. لكنهم أبوا التشريف.

لقد ورد في الحديث عنك أنك خرجت يوما على أصحابك كالمودع، وأنت تقول: (أنا محمد النبي الأمي ـ ثلاث مرات ــ ولا نبي بعدي؛ أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه)(1)

بل إنك قلت لتلميذك الأكبر، الإمام علي، بعد أن أشدت به، وبينت فضله ومكانته، وأنه السراط المستقيم الذي لا يزيغ ولا يزل عن هديك: (أما ترضى يا علي أن أكون أخاك؟.. أنت أخي في الدنيا والآخرة)(2).. ثم قلت له: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)(3)

فإن كانت هذه هي المرتبة التي وصل إليها الإمام علي، وهو أشرف هذه الأمة، وأكرمها على الله.. وهو الذي تمثلت

1() رواه أحمد (11/ 180)

2() المستدرك للحاكم 3/ 14، سنن الترمذي (6/ 80)

3() ابن أبي شيبة 12/60 و14/545، والبخاري (4416)، ومسلم (2404)، (31)، والبزار (1170)، والنسائي في الكبرى (8141)، والخصائص (56)

فيه كل القيم النبوية.. فكيف يدعي النبوة غيره، أو كيف يتـوهم أحد من الناس أنه يمكن أن يستدرك على النبوة، وهـو لم يبلـغ جزءا بسيطا من مرتبة ذلك التلميـذ الأكـبر للنبـوة، والـذي كـان يقـول لمن سـأله: (يـا أمـير المؤمـنين أفنـبي أنت؟)، فقـال لـه الإمام علي: (ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ)(1)

سيدي يا رسول الله.. يا وسيلة الله العظمى.. أتوسل بـك إلى اللـه أن يحفظـني من كـل أولئـك الـدجالين الـذين يريـدون إبعادي عنك.. أو الانضمام للواء غير لوائك.. أو الفرح بنسبة غير الانتساب إليك.

فاجعلني من شيعتك وأنصارك والمتبعين لسـنتك وهـديك.. حتى لا تضل بي الأهواء، ولا تختلف علي الطرق.

وأسألك سيدي، وأتوسل بك إلى اللـه أن أحفـظ وصـاياك، وأركب السـفينة النجـاة الـتي أمرتنـا بركوبهـا.. فمن لم يركبهـا غرق في طوفان الفتن، واستهواه أصحاب الرايـات، وابتعـد عن رايتــك، ومن لم يتشــرف بالــدخول تحت لوائــك لم يتشــرف الشرب من حوضك.. فنستعيذ بالله متوسلين بك من ذلك.. إنك أنت صاحب الوسيلة العظمى والمقام المحمود.

1() التوحيد: 174/ 3.

المخلّص الموعود

سيدي يا رسول الله.. أيها المخلّص الموعود الذي بشرت به الأنبياء، وحن له الأولياء، وتحركت قلوب كل الأجيال شوقا إليه.. بل تمنت الأنبياء أن تكون من أمته، وتظفر بصحبته، وتلقى الله، وهي في ركابه.

فأنت الهدية الكبرى التي أعدها الله للبشرية، ووعدها بها، ليقضى بها على كل التحريفات والتغييرات التي حصلت للأديان، وتسربت إليها من لدن معسكر الشيطان.

سيدي.. لو أن كل أصحاب الأديان، تخلوا عن أنانيتهم وحرصهم على مصالحهم، وراحوا إلى كتبهم يستنطقونها، ويسألونها عنك، لوجدوك أقرب إليهم من المسلمين أنفسهم.. فقد أقام الله الحجة عليهم من كتبهم.. فمن شاء أن يجدك فيها وجدها، ومن شاء أن يتبع هواه، ويغض الطرف عنك فعل، ولم يكن إلا ملوما، لأنه أعرض عنك، وأعرض عن الحجج التي أقامها الله لك، وفي الكتب التي يقدسها.

وقد أخبر الله تعالى عن أولئك الصادقين الذين أسرعوا إليك بمجرد علمهم بك، بعد أن رأوا فيك كل ما ورد في كتبهم، فقال مثنيا عليهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157]

ومنهم عبد الله بن سلام ذلك الذي بمجرد أن رآك، وسمع حديثك، وقارنه بما ورد في كتب اليهود، علم أنك النبي الموعود، وقد قال يحدث عن نفسه: (أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلمّا تأملت وجهه، واستثبته علمت أنّ وجهه ليس بوجه كذاب!، وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السّلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)

ولم يكتف بذلك، بل راح يسألك بالعلم الذي لا يجده إلا

في كتبهم؛ فلما رأى أنك الموعود الحقيقي، راح يشهد لك بالنبوة، ويقول لك: (يا رسولَ اللهِ، إن اليهود قوم بُهْت، فاسألهم عنِّي قبل أن يعلموا بإسلامي)

فلما جاء اليهود، وقلت لهم: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟!، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا.. فقلت لهم ـــ لتقيم الحجة عليهم بمن يعتبرونه حبرهم وعالمهم المفضل ـ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟!.. فقالوا: أعاذه الله من ذلك.. وحينها خرج إليهم عبد الله وهو يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، حينها تغير موقفهم منه وقالوا: (شرُّنا وابن شرِّنا)، وتنقصوه، فقال عبد الله بن سلام: (هذا ما كنتُ أخاف يا رسولَ الله)

ولم يكن عبد الله بن سلام هو الوحيد الذي تواضع للحق الذي رآه وسمعه وقرأه في كتبه التي يقدسها، وإنما يوجد أمثاله الكثير من الذين كانوا أئمة في أديانهم، لكنهم عندما رأوك في كتبهم راحوا يخلعون ثوب العناد، ويتبعونك.

لقد أنزل الله تعالى في عبد الله بن سلام وغيره من الذين تركوا العناد، واتبعوك قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 113 - 115]

بل إنه أثنى على كل من فعل ذلك، وفي كل الأجيال ثناء عظيما، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 82، 83]

أما المعاندون، الذين رددوا ما ردد المشركون حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، والذين رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]، فقد

أبوا التسليم لك، لا لكون الصفات الواردة في كتبهم لا تنطبق عليك، وإنما لكونهم كانوا يرغبون أن تكون من قوم غير القوم الذين ظهرت فيهم..

لقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء المعاندين، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 89 - 91]

وقد ذكر المؤرخون الكثير من الروايات التي تبين سر قدوم اليهود لبلاد العرب، وخصوصا للمدينة المنورة، لعلمهم أنها البلاد التي ستهاجر إليها، ولذلك أسرعوا إليها، ليستأثروا بك من دون الناس.. لكنهم ــ لحسدهم وبغيهم وكبرهم ــ راحوا يحاربونك، مثلما حارب إبليس آدم حسدا وكبرا.

لقد حدث بعضهم قال: (قدم علينا رجل من الشام، من يهود يقال له ابن الهيبان فأقام عندنا، واللّه ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس خيرا منه، فقدم علينا قبل مبعث النبي ﷺ بسنين، فكنا إذا قحطنا وقل علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان اخرج فاستق لنا. فيقول: لا واللّه حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاع من تمر أو مدين من شعير. فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه فيستقي فو اللّه ما يقوم من مجلسه حتى تمر السحاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة. فحضرته الوفاة فاجتمعنا إليه فقال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم. قال: فإنه إنما أقدمني هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه هذه البلاد مهاجرة فأتبعه فلا تسبقن إليه إذا خرج يا معشر يهود.. ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة قال أولئك الفتية ــ وكانوا شبابا أحداثا ــ يا معشر يهود واللّه إنه الذي ذكر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى واللّه إنها لصفته. ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم في حصن مع

المشركين، فلما فتح رد ذلك عليهم)[1]

وحدث آخر قال: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم هل فيهم أحد من أهل الحرم؟ فقلت: نعم أنا. قال: هل ظهر أحمد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء مخرجه من الحرم ومهاجرة إلى نخل وحرّة وسباخ، فإياك أن تسبق إليه. قال الراوي: فوقع في قلبي ما قال. فقدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: (نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ)[2]

وحدث ثالث، فقال: واللّه لقد علمت أن محمدا رسول اللّه ﷺ قبل أن يبعث، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: فزعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال الكاهن: أقسم بالسماء ذات الأبراج والأرض ذات الأدراج والريح ذات العجاج إن هذا لإمراج ولقاح ذي نتاج. قالوا: وما نتاجه؟ قال: ظهور نبي صادق بكتاب ناطق وحسام ذالق، قالوا: أين يظهر وإلام يدعو؟ قال: يظهر بصلاح ويدعو إلى فلاح ويعطل الأقداح، وينهى عن الراج والسفاح وعن كل أمر قباح، قالوا: ممن هو؟ قال من ولد الشيخ الأكرم حافر زمزم ومطعم الطير المحرّم والسباع الضرم. قالوا: وما اسمه؟ قال: محمد، وعزه سرمد، وخصمه مكمد[3].

وقال رابع: (إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ

1() رواه البيهقي، انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 192)

2() رواه ابن سعد والبيهقي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 193)

3() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 192)

مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89])(1)

وقال خامس: (كان لنا جار من اليهود بالمدينة فخرج علينا قبل البعثة بزمان فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال خروج نبي يبعث من هذه البلاد ــ وأشار إلى مكة ـ فقالوا متى يقع ذلك؟ قال فرمى بطرفه إلى السماء وأنا أصغر القوم، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله تعالى نبيه، وهو حي ـ أي اليهودي ـ فآمنَّا به وكفر هو بغياً وحسداً)(2)

وقال سادس: (كنا ويهود فينا كانوا يذكرون نبيا يبعث بمكة اسمه أحمد، ولم يبق من الأنبياء غيره، وهو في كتبنا، وما أخذ علينا منه، وصفته كذا وكذا، حتى يأتوا على نعته قال: وأنا غلام وما أرى أحفظ، وما أسمع أعي، إذ سمعت صياحا من ناحية بني عبد الأشهل، فأرى قوما فزعوا وخافوا أن يكون أمر حدث، ثم خفي الصوت، ثم عاد، فصاح، ففهمنا صياحه: يا أهل يثرب، هذا كوكب أحمد الذي ولد به. قال: فجعلنا نعجب من ذلك، ثم أقمنا دهرا طويلا، ونسينا ذلك، فهلك قوم، وحدث آخرون، وصرت رجلا كبيرا، فإذا مثل ذلك الصياح: يا أهل يثرب، قد خرج أحمد وتنبأ، وجاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام، فلم ألبث أن سمعت أن بمكة رجلا خرج يدعي النبوة، وخرج من خرج من قومنا، وتأخر من تأخر، وأسلم فتيان منا أحداث، ولم يقض لي أن أسلم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة)(3)

وقال سابع: (جئت بني عبد الأشهل يوما، لأتحدث فيهم، ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي، يقال له أحمد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزئ به: ما صفته؟ قال: رجل ليس بقصير، ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره. قال: فخرجت إلى قومي بني خدرة، وأنا يومئذ أتعجب مما قال، فأسمع رجلا يقول: ويوشع يقول هذا وحده، كل يهود يثرب

1() سيرة ابن هشام ت السقا (1/ 211)

2() ه البخاري في "التاريخ الكبير" 4/68-69، والطبراني في "الكبير" (6327)، والحاكم 3/417-418، وأبو نعيم في "الدلائل" (34).

3() دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص: 77)

تقول هذا؟ قال أبي مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة، فأجد جمعا، فتذاكروا النبي ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا بخروج نبي وظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذه مهاجره قال أبو سعيد: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخبره أبي هذا الخبر، فقال رسول الله ﷺ: (لو أسلم الزبير وذووه من رؤسائهم كلهم له تبع)(1)

وهكذا ورد في الأخبار الكثيرة المتواترة ما يدل على سبب تركهم لبلاد الشام ذات الجو الطيب، والغنى الوافر، وهجرتهم إلى تلك الصحارى القاحلة.. وكل ذلك طلبا لك، لعلمهم بأنها البلاد التي ستظهر فيها.

لقد رحت ـ سيدي ـ أطالع الكتب المقدسة التي تتبناها الأديان جميعا.. فوجدت البشارة بك واضحة ظاهرة لا ينكرها إلا الجاحدون.. وكان من أكبر أدلة انطباقها عليك أن الذين استخرجوها، وفسروها، وبينوا انطباقها عليك رجال من أهل تلك الأديان(2).

وعندما طرحت عني كل جلابيب التقليد، وقيوده، ورحت أقرؤها بعقل المحقق المدقق، وجدت الأمر كما ذكروا، فهي تذكرك، بل تسميك في بعض المواضع باسمك الذي يعرفك به الناس.. لكن الجاحدين راحوا يحتالون على ذلك بأصناف الحيل حتى يصرفوا تلك البشارات عنك.

لقد وجدت في التوراة التي يتبناها اليهود والنصارى جميعا، وفي سفر التكوين وصية يعقوب عليه السلام لبنيه قبل وفاته.. عندما طبقتها بحروفها وكلماتها على من يمكن أن تصدق عليه، لم أجد غيرك سيدي، لقد ورد في سفر التكوين (49/10): (ثم دعا يعقوب بنيه، وقال اجتمعوا أبارك فيكم، وأخبركم بما ينالكم في آخر هذه الأيام، اجتمعوا واسمعوا ذلك يا بني يعقوب، واقبلوا من إسرائيل أبيكم.. لا يزول القضيب من يهوذا، والرسم من تحت أمره، إلى أن يجئ شيلوه، وإليه تجتمع الشعوب)(3)

1() دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص: 79)

2() هم كثيرون جدا، أشرت إليهم في كتابي [قلوب مع محمد ﷺ] ومنهم علي بن ربن الطبري، وهو مسيحي هدته دراسة الموضوعية الصادقة للكتاب المقدس إلى الإسلام، وقد ذكرت بعض ما ذكره من بشارات في كتابي [أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ]

3() شرحنا هذه النبوة وغيرها بتفصيل في كتاب [أنبياء يبشرو بمحمد ﷺ]

إن هـذه النبـوة ــ سـيدي ــ لا يمكن أن تنطبـق على أحـد غيرك.. فالتعابير المجازية الواردة فيها تدل على أنك تجمـع بين الحكم والنبوة، وأنك صاحب الصولجان والشـريعة، وأنـك تملـك حق التشريع والتنفيذ، وتخضـع لـك الشـعوب.. وهـذا لم يتحقـق في التاريخ لنبي، أو مدعي نبوة غيرك.

فلا يمكن أن تنطبــق هــذه البشــارة على موســى عليــه السلام، لأنه أول منظم لأسباط بني إسرائيل، ولا في حــق داود عليه السلام، لأنه أول ملك فيهم.

وهكذا وجدت بشارة موسى عليه السلام بك، فقد ورد في التوراة أنه عندما نزل من جبل الطـور بعـد مـا كلمـه ربـه قـال مخاطباً بني إسرائيل:(قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعـل كلامي في فمـه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكـون أن الإنسـان الـذي لا يسـمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسـم الـرب ولم يحدث ولم يصِر، فهو الكلام الـذي لم يتكلم بـه الـرب، بـل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه) (التثنية 18 / 17 - 22)

وهــذه البشــارة لا يمكن أن تنطبــق على غــيرك، ولــذلك ذكرها كل المهتدين إليك من الذين خرجوا من التقليـد، وقـرؤوا كتبهم بعين الإنصاف.

وكيـف لا يفعلـون ذلـك واليهـود مجمعـون على أن جميـع الأنبياء الذين كـانوا في بـني إسـرائيل من بعـد موسـى لم يكن فيهم مثله.. فلا أحد من أنبيـاء بـني إسـرائيل أتى بشـرع خـاص تتبعه عليـه الأمم من بعـده.. فهـذه الصـفة لا تنطبـق إلا عليـك، لأنـك من إخـوتهم العـرب، وقـد جئت بشـريعة ناسـخة لجميـع الشرائع السابقة، وتبعتك الأمم عليها، فـأنت في هـذه النـواحي تشبه موسى عليه السلام.

بالإضافة إلى هذا، فـإن تلـك البشـارة تنص على أن النـبي الـذي يقيمـه اللـه لبـني إسـرائيل ليس من نسـلهم، ولكنـه من إخوتهم، وكل نبي بعث من بعـد موسـى عليـه السـلام كـان من بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام، فلم يبق رســول من إخوتهم سواك.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن الكتـاب المقـدس ينص على أن إسماعيل وذريته كانوا يسمون إخوة لبني إبراهيم عليه السـلام، لأن الله قال في التوراة لهاجر ــ حسب رواية العهد القديم .عن ابنها إسماعيل: (بأنه قبالة إخوتـه ينصـب المضـارب) كمـا دعى إسحاق وذريته إخوة لإسماعيل وذريته.

وهكذا يصيح كـل حـرف وكلمـة في تلـك البشـارة بالدلالـة عليـك.. لكن لا يمكن أن يـرى ذلـك غـير الصـادقين المخلصـين الباحثين عن الحقيقة المتجردين لها.

وهكذا وجدت نـبي اللـه إشـعيا يبشـر بـك، بـل يـؤرخ لـك؛ فسفره مملوء بالحديث عنك، ومن قـرأه بعين التجـرد رآك في كل حرف من حروفه..

لقد قال في بعض بشـاراته عنـك: (قـال لي السـيد: اذهب أقم الحارس، ليخبر بما يرى، فرأى ركاباً أزواج فرسـان، ركـاب حمير، ركاب جمال، فأصغى إصغاءً شديداً، ثم صرخ كأسد: أيهـا السيد أنا قائم على المرصد دائمـاً في النهـار، وأنـا واقـف على المحـرس كـل الليـالي، وهـوذا ركـاب من الرجـال، أزواج من الفرسان. فأجاب وقال: سقطت، سقطت بابـل وجميـع تماثيـل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض.. يا دياستي وبني بيدري، مـا سمعته من رب الجنود إله إسرائيل أخبرتكم به، وحي من جهـة دومة. صرخ إلي صارخ من سعير: يـا حـارس مـا من الليـل، يـا حارس ما من الليل. قـال الحـارس: أتى صـباح وأيضـا ليـل، إن كنتم تطلبـون فـاطلبوا. ارجعـوا تعـالوا، وحي من جهـة العـرب: ستبيتين في صحاري بلاد العرب يا قوافل الددانيين، فاحملوا يـا أهل تيماء الماء للعطشان، واستقبلوا الهاربين بالخبز، لأنهم قـد فـروا من السـيف المسـلول، والقـوس المتـوتر، ومن وطيس المعركة. لأنه هذا ما قالـه لي الـرب: في غضـون سـنة مماثلـة لسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وتكـون بقيـة الرمـاة الأبطـال من أبناء قيدار، قلة. لأن الـرب إلـه إسـرائيل قـد تكلم) (إشـعيا 21/ 6 – 17)

إن كل حرف من هذه النبوءة يشير إليك، ويدل عليــك، ولا يمكن فهمه ولا فهم مصاديقه إلا بتطبيقها عليك(1).

1() هناك تفاصيل كثيرة مرتبطة بهذه النبوة، أعرضـنا عن ذكرهـا هنـا لطولهـا، يمكن العودة إليها في كتابي: أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ (ص: 159)،فما بعدها.

أما المسيح عليه السلام، فقد امتلأت الأناجيل التي وصلتنا بالحديث عنك، وكلها تبشر بك، ليتحقق فيها مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6]

لقد ورد في إنجيل يوحنا قول المسيح موصياً تلاميذه بك: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً.. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم.. قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء) (يوحنا 14/15 – 30)

وفي إنجيل متى ولوقا، نقرأ المسيح عليه السلام وهو يصفك بدقة لحواريه، لقد قال لهم: (اسمعوا مثلاً آخر، كان إنسان رب بيت، غرس كرماً، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة وبنى برجاً، وسلمه إلى كرامين وسافر.. ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره، فأخذ الكرامون عبيده، وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً، ثم أرسل إليهم أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك.. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً: يهابون ابني، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم، وقتلوه.. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟ قالوا له: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً رديا، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطون الأثمار في أوقاتها.. قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا،

لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه.. ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم)(متى 21/33 - 45)، (لوقا 20/9 - 19)

وفي إنجيل متى قال المسيح متحدثا عن تأخر زمان ظهورك عن النبوات السابقة، وأن ذلك لن يمنع عظيم الأجر والثواب لأمتك: (فإن ملكوت السماوات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فَعَلة لكرمه، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه، ثم خرج نحو الساعة الثالثة، ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين، فقال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم، فمضوا.. وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل ذلك.. ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين، فقال لهم: لماذا وقفتم ههنا، كلَّ النهار بطالين؟ قالوا له: لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم: اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم.. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله: ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين.. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً، فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر، فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً، وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر.. فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك، أما اتفقت معي على دينار؟ فخذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح! هكذا يكون الآخرون أولين، والأولون آخرين، لأن كثيرين يُدعَون، وقليلون ينتخبون) (متى 20/1 - 16)

إن المسيح عليه السلام ــ من خلال هذا المثال ــ يهيء النفوس لتقبلك، وأنك مع كونك خاتم الرسل إلا أن الله برحمته وهب لك ولأمتك من الفضل ما لم ينله غيركم.. فالآخرون هم الأولون السابقون كما قال المسيح.

لقد أشرت إلى هذا ــ سيدي رسول الله ــ فقلت: (نحن

الآخرون السابقون)[1]، وضربت عليه مثالا لا يختلف كثيرا عن مثال المسيح، فقلت مخاطبا أمك ـ مبشرا بما أعد الله لها من الأجر العظيم إن هي صدقت في اتباعك ـ: (مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لي غدوة إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، فعملت النصارى، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: مالنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء)[2]

وغيرها من البشارات الكثيرة التي لا تنطبق إلا عليك، ومن أكبر دلائل ذلك تسليم الأحبار والرهبان الصادقين لها، واتباعهم لك.

بل إنني ـ سيدي ـ عندما تركت كتب اليهود والنصارى، ورحت أقرأ غيرها من الأسفار المقدسة لأهل الأديان المختلفة، وجدتك فيها، ليقيم الله الحجة عليهم بك، وفي مصادرهم التي يعتمدونها.

لقد قرأت سيدي في كتاب (أدروافيدم أدهروويدم) وهو كتاب مقدس عند الهندوس.. وفي [الجزء العشرين منه، الفصل 127، الفقرة 1-3] هذه البشارة: (أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس.. وعظمته تحمد حتى في الجنة ويجعلها خاضعة له وهو المحامد)

وقرأت في (بفوشيا برانم) بهوشى برانم.. [في الجزء3، الفصل3، العبارة 5 وما بعدها] هذه البشارة:(في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم، والملك يطهره بالخمس المطهرات).. فهذا نص صريح لا يمكن انطباقه إلا عليك، وفي قوله (الخمس المطهرات) إشارة إلى الصلوات الخمس التي يتطهر بها المسلم من ذنوبه كل يوم[3].

1() هذا هو نص الحديث:« إن الله أدرك بي في الأجل المرجو واختارني اختيارا فنحن الاخرون ونحن السابقون يوم القيامة، وإني قائل قولا غير فخر: ابراهيم خليل الله وموسى صفي الله وأنا حبيب الله، ومعي لواء الحمد يوم القيامة، وإن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يفنيهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة » رواه الدارمي، وابن عساكر عن عمرو بن قيس.

2() رواه مالك والبخاري والترمذي.

3() انظر:كتاب التيارات الخفية في الديانات الهندية القديمة لمؤلفه: تى محمد.

وقرأت في كتاب (بفوشيا برانم)، وصف لأصحابك.. حيث ذكر أنهم (الذين يختتنون، ولا يربون القزع، ويربون اللحى، وهم مجاهدون، وينادون الناس للدعاء بصوت عال، ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير، ولا يستعملون الدرباء(1) للتطهير، بل الشهداء هم المتطهرون، ويسمون بمسلي(2) بسبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطل، ودينهم هذا يخرج منا، وأنا الخالق)

وقرأت في بعض كتب الزرادشتيين: (إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون هم أتباع النبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ(3)..وإن نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات)(4)

هذا بعض ما حفظ لنا من بشارات، وهي كثيرة جدا.. فكل الأنبياء والأولياء والأصفياء، كانوا يشيرون إليك، ويتحدثون عنك، ويبشرون بك..

فوا بشرانا بأن حظينا بأن نكون من أمتك، ونحظى باتباعك.. فأسألك يا سيدي يا رسول الله.. يا وسيلة الله العظمى.. أن تجعلني من الصادقين في اتباعهم لك، حتى لا أكون كأولئك الجاحدين الذين عرفوك، واستيقنوا بنبوتك، ولكن كبرهم حال بينهم وبينك.

وأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله، أن يرزقني من التواضع والتسليم ما يجعلني بين يديك كالريشة في مهب الريح يحركها حيث يشاء، أو كالميت بين يدي الغسال، لا يملك شيئا من أمره.. حتى أتحقق بما ذكره الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

1() الدرباء نبات يخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان ويعدون هذا العمل تطهيراً من الخطايا.

2() أي يسمون بالمسلمين، دخل عليها شئ من التحريف.

3() وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم.

4() محمد في الأسفار العالمية: 47.

المؤيد بالمعجزات

سـيدي يـا رسـول اللـه.. يـا من أيـده اللـه بـالمعجزات البـاهرات، والخـوارق الواضـحات، والآيـات البينـات، حـتى يثبت لكل العقول، وكل الأجيال أنك النبي الذي جعل الله في الإيمان بـه واتباعـه خلاص البشـرية، وسـعادتها، وصـلاحها، في الـدنيا والآخرة.

لقــد رحت ســيدي إلى دواوين الــوراقين أبحث في كــل الأديان، عن معجزات تشبه المعجزات التي جئت بهـا، والـدلائل التي دل الله بها عليك؛ فلم أجد عشر معشار ما أتيت به..

وليس ذلـك عجيبـا.. فقـد كـان الأنبيـاء يبعثـون إلى أقـوام محدودين، وأزمنة محـدودة، أمـا أنت فقـد جئت للبشـر جميعـا، باختلاف طباعهم وعقولهم ومشاربهم.. ولكل الأزمنة متقــدمها، ومتأخرها.. ولذلك كنت بحاجـة إلى كـل أصـناف البينـات، حـتى يقيم الله الحجة بك على خلقه.. فقد جرت سـنة اللـه ألا يـترك رسـله من غـير آيـات تـدل عليهم، حـتى لا يـزاحمهم في ذلـك الكذابون والمدعون والدجالون.

لقد أشرت سيدي إلى عظمة ما آتاك الله من آيات بينات، مقارنة بالرسل عليهم الصلاة والسـلام، فقلت: (مـا من الأنبيـاء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليـه البشـر، وإنمـا كـان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكـون أكـثرهم تابعـا يوم القيامة)(1)

فرجاؤك سيدي لأن يكـون أتباعـك أكـثر من سـائر الأنبيـاء عليهم السـلام يـدل على امتـداد حجتـك لأكـثر البشـر والعقـول والأزمنة..

يؤسفني ـ سـيدي ــ أن أذكـر لـك بـأن بعض قـومي راحـوا يقـرؤون حـديثك هـذا على خلاف مـا قصـدته؛ فقـد توهمـوا أن القرآن الكريم هو معجزتك الوحيـدة، وأن كـل المعجـزات الـتي جرت للأنبياء من قبلك، والتي خرقت لهم بها مـا يعرفـه النـاس من قوانين لم تتحقق لك.

وقـد وهمــوا في ذلـك؛ فـأنت لم تـرد الحـديث عن تلـك المعجـزات الحسـية الـتي لم يشـاهدها إلا قومـك.. وإنمـا أردت

1() رواه البخاري ومسلم.

المعجـزة الممتـدة الـتي يراهـا كـل الأجيـال.. وهي المعجـزة الوحيـدة الباقيـة على الأرض.. ذلـك أن كـل معجـزات الأنبيـاء ذهبت بذهابهم، ولم يشاهدهم إلا قومهم، أو الذين طـالبوا بهـا.. أما من عداهم؛ فصار إيمانهم بها تقليـدا لا رؤيـة، أو نتيجـة تلـك الأخبار المتواترة عنهم، لا عن حقيقة عاينوها بأنفسهم.

لـذلك كـان حـديثك عن معجزتـك الخالـدة الدائمـة لكـل العصور، وليس عن سائر المعجزات والكرامات والخوارق الـتي هيأها الله لك كما هيأها لغيرك من الأنبيـاء، ومـا ذلـك على اللـه ببعيد..

ولم يكتفـوا بـذلك ــ سـيدي ــ بـل راحـوا إلى بعض آيـات القرآن الكريم يفهمونها على غير المراد منها، ليضربوا بها مئات الأحاديث التي تنقل معجزاتك الحسية..

لقد راحوا يستدلون بقوله تعـالى: ﴿قُـلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَكَـذَّبْتُمْ بِـهِ مَـا عِنْـدِي مَـا تَسْـتَعْجِلُونَ بِـهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]، وراحوا يفهمـون من قول الله تعالى:﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام: 57] أن مرادك منها نفي ما طلبوه من معجزات أو خـوارق.. والأمـر ليس كـذلك؛ فهـذه الآيـة تنص على تلـك الطلبـات السـاخرة الكثـيرة الـتي كـان المشـركون يطالبونـك بهـا بـأن يعجـل اللـه عقوبته لهم، لكي يكون ذلك دليلا على نبوتك.

وقد أشار إلى هذا المعـنى آيـات كثـيرة، كقولـه تعـالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَـى أَنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْـتَعْجِلُونَ ﴾ [النمـل: 71،ـ 72]، وقوله:﴿قُتِـلَ الْخَرَّاصُـونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْـرَةٍ سَـاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَـوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُـونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 10 -ـ 14]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تذكر طلب المشـركين منك تعجيل العذاب.

ولهذا عقب الله تعالى تلك الآية الكريمة بقولـه: ﴿ قُـلْ لَـوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58] أي: لو كان مرجع مـا تسـتعجلون بـه إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك.

وقد أشار إلى هذا المعنى آيات أخرى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْـدِكَ فَـأَمْطِرْ عَلَيْنَـا

حِجَـارَةً مِنَ السَّـمَاءِ أَوِ ائْتِنَـا بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَـا كَـانَ اللَّهُ مُعَـذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 32، 33]

ولذلك كان من رحمة اللـه تعـالى عـدم اسـتجابة اللـه لهم بتعجيل عـذابهم، وإلا انتفى مقصـود رسـالتك، وانتهت وظيفتهـا عند هذا المطلب الذي طلبوه..

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى أنه أتيح لك تحقيـق هـذا الطلب لكنـك ــ سـيدي ــ رفضـت أن تنفـذه رحمـة بهم، ففي الحديث الذي ذكرت فيه ما لقيته من أهل الطـائف قلت: (فـإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتْني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليـه السـلام، فناداني، فقـال: إن اللـه قـد سـمع قـول قومـك لـك، ومـا ردوا عليـك، وقـد بعث إليـك مَلَـك الجبـال لتـأمره بمـا شـئت فيهم، فناداني مَلَك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن اللـه قـد سمع قول قومك لك، وقد بعثـني ربـك إليـك، لتـأمرني بـأمرك، فما شئت؟ إن شـئت أطبقت عليهم الأخشـبين(1)، فقلت: (بـل أرجو أن يخـرج اللـه من أصـلابهم من يعبـد اللـه، لا يشـرك بـه شيئا)(2)

إن الـذي يشـاغبون في ذلـك ــ سـيدي ــ يشـبهون ذلـك المريض الذي يطلب من طبيبه أن يدس له السم، ويقتله، حتى يريحه من العـذاب.. لكن الطـبيب الـرحيم لا يسـتجيب لـه، بـل يتعامل معه بلطف إلى أن يقدر الله له الشفاء..

وكذلك فعلت سيدي.. فقد كـان رفضـك لمـا طلبـوه منـك رحمة بهم، وحرصا عليهم، لا عجزا، فالله فوض لك أن تنفـذ مـا طلبوه منك، وأنت ـ برحمتك ورأفتك ـ رفضـت.. وقـد علم اللـه منك ذلك.. ولذلك كنت أهلا لأن تكون رحمته للعالمين.

وهكذا راحوا إلى قوله تعالى: وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 109] يفهمـون منهـا أنـه لم تظهـر على يـديك أي معجـزات حسـية، وقـد وهمـوا في ذلـك؛ فالآية الكريمة لا تنفي ذلك، وإنما تنفي استجابتك لمـا اقـترحوه من الآيات والمعجزات، ذلك أن من سنة اللـه تعـالى في أقـوام

1() وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا.

2() رواه البخاري ومسلم.

الأنبياء أنهم إذا أنكروا المعجزات التي اقترحوها يعذبون بسبب ذلك.

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن قريشا كلموك، فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كان لهم ناقة فآتنا من الآيات حتى نصدقك، فقلت لهم: (أي شيء تحبون أن آتيكم به)، قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا، فقلت لهم: (فإن فعلت تصدقوني؟)، قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقمت لتدعو الله بما طلبوه، فجاءك جبريل فقال لك: (ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهبا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم)، فقلت حينها: (بل أتركهم حتى يتوب تائبهم)(1)

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]

وقد حصل هذا لغيرك من الأنبياء ــ سيدي ــ فكلهم لم يستجيبوا لكل ما طلبه قومهم من الآيات حرصا عليهم، وقد ورد في الإنجيل: (فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه. فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية) (مرقس:11/8-12)

وهكذا راحوا إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) ﴾ [الإسراء: 90 - 94]

وهي ـ سيدي ـ لا تعني ما فهموه من عدم إتيانك بالآيات مطلقا، وإنما تعني رفض هذه الاقتراحات التي قدموها، لأنها لا

1() سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: 274)

تتناسب مع الرسالة، ولا مع مقتضياتها، وهي تدل على أنهم ساخرون في طلباتهم، وإلا فإنه يكفيهم للإيمان مطالب يتحقق بها التأكد من النبوة من غير حاجة لكل هذا.

وقد ذكر المؤرخون والمحدثون الأمثلة على ذلك، ومنها ما روي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله ﷺ؟ قال: (أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله ﷺ، قال: نعم، فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط على الأرض، فأقبل إليه، وهو يسجد ويرفع ويسجد ويرفع حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ثم قال له: (ارجع)، فرجع إلى مكانه، فقال: والله لا أكذبك بشيء تقوله بعد أبدا أشهد أنك رسول الله، وآمن(1).

ومنها ما روي عن ابن عمر قال: كنا في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: (أين تريد؟)، قال: إلى أهلي، قال: (هل لك في خير؟)، قال: وما هو؟ قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله)، قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال: (هذه الشجرة)، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخد الأرض خدا فقامت بين يدي رسول الله ﷺ فاستشهدها ثلاثا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال لرسول الله ﷺ: إن يتبعوني آتك بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك(2).

ومنها ما روي عن بريدة قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أسلمت فأرني شيئا أزداد به يقينا، قال: (ما الذي تريد؟)، قال: ادع تلك الشجرة، فلتأتك، قال: (اذهب فادعها)، فأتاها الأعرابي، فقال: أجيبي رسول الله ﷺ فمالت على جانب من جوانبها، فقطعت عروقها، ثم مالت على الجانب الآخر فقطعت عروقها حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقالت: (بم تشهدين، يا شجرة؟)، قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، قال: (صدقت)، فقال الأعرابي: حسبي حسبي، مرها فلترجع إلى

1() رواه البخاري في التاريخ والترمذي وصححه وأبو يعلى وابن حبان.

2() رواه الدارمي وابن حبان والحاكم وصححاه وقال الذهبي إسناده جيد.

مكانها، فقال: (ارجعي إلى مكانك، وكوني كما كنت)، فرجعت إلى حفرتها، فجلست على عروقها في الحفرة، فوقع كل عرق مكانه الذي كان فيه، ثم التأمت عليها الأرض، فقال الأعرابي: أتأذن لي يا رسول الله أن أقبل رأسك ورجليك، ففعل، ثم قال: أتأذن لي أن أسجد لك؟ فقال: (لا يسجد أحد لأحد)(1)

فهذه الروايات، وغيرها كثير يدل على أنه كان في إمكانك ـ سيدي ـ أن تأتي بالآيات التي طلبوها، والتي لا تتنافى مع الرسالة التي جئت بها.. ذلك أن ما طلبوه من التعجيل بعذابهم لا يفيدهم شيئا، بل هو يتناقض مع ما جئت به من الرحمة واللطف واللين.

وقد ذكر القرآن الكريم ـ سيدي ـ نموذجا من الآيات التي كنت تأتيهم بها، لتثبت لهم صدقك، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: 1 - 5]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى تلك المعجزة الثابتة بأدلة لا تكاد تحصى، والتي تواترت الأخبار فيها بأن المشركين سألوك أن تريهم علامة تدل على صدق نبوتك، فأريتهم القمر شقين، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنوات، ففي الحديث عن ابن عباس وغيره: اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل هشام والعاصي بن وائل والأسود بن حبر يغوث والأسود بن عبد المطلب والنضر بن الحرث ونظراؤهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، وقالوا: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبي قبيس ونصفا على قعيقعان؛ فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا)، فنظر الكفار ثم مالوا بأبصارهم فمحوها، ثم أعادوا النظر، فنظروا، ثم مسحوا أعينهم، ثم نظروا فقالوا: سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم لبعض: لئن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانظروا إلى السفار، فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم، فقد صدق، فكانوا يلتقون الركب، فيخبرونهم، أنهم

1() رواه البزار وأبو نعيم.

رأوا مثل ما رأوا، فيكذبونهم(2).

لقد قرأت هذه الروايات ــ سيدي ــ لأولئك المشاغبين المجادلين، وقرأت لهم معها ما ورد في القرآن الكريم من الدلالة الواضحة عليها، وقلت لهم: تصوروا لو أن ذلك لم يحصل ــ كما ذكر القرآن الكريم ــ ألم يكن ذلك مدعاة لتكذيبهم، فما أسهل أن يقولوا: (إن محمداً يكذب علينا، فما انشق القمر، ولا رأينا شيئاً من ذلك)

وقلت لهم: ليس بالضرورة أن تشاهد جميع قريش ذلك.. لأن إنكارهم للآية بعد المطالبة بها سيؤدي إلى تعذيبهم كما توعدهم الله تعالى بذلك.. وإنما يكون الذين شاهدوها أولئك النفر المحدودين الذين طالبوا بها.. وقد نزل عليهم العذاب بالفعل، ولو بعد حين.

وقلت لهم، عندما طالبوا بالدليل الحسي من القمر على ذلك: إن كون المعجزة معجزة يدل على تدخل القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء.. فلو شاء الله أن يشق أي شيء لشقه، ثم أعاده إلى خلقته أول مرة، وكأنه لم يحصل له شيء.. فالمطالبة بالدلائل شأن المحجوبين، لا شأن العلماء العارفين بقدرة ربهم المطلقة.

وقد ذكر القرآن الكريم ما هو فوق ذلك مما لا تطيقه العقول، فهل يمكنهم أن يسلموا لذلك، أم يجادلوا فيه.. فقد ذكر الله تعالى انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وذكر تحول العصا إلى حية، وذكر إحياء الموتى.. بل ذكر ما فوق ذلك كله من خلق المسيح عليه السلام من الطين كهيئة الطير.

بعد أن حدثتهم بهذا كله، علمت أن السبب في إنكارهم لكل تلك الروايات، وما يدل عليها من القرآن الكريم هو ذلك الإيمان الضعيف الذي جعلهم لا يثقون في قدرة الله المطلقة التي لا يعجزها شيء.. ولو أنهم سلموا لها، لسلموا لك،

2() قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجَمُّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر، راجع هذه الأحاديث (فتح الباري 6/631 باب 27 من كتاب المناقب حديث 3636، 3637، 3638، و 7/182 باب 36 من كتاب مناقب الأنصار حديث 3868، 3869، 3870 و 3871 و 8/ 617 باب 1 من كتاب التفسير حديث رقم 4864، 65، 66، 67، 68 وصحيح مسلم 17/143-145 في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وسنن الترمذي 9/30 في أبواب الفتن، ودلائل النبوة للأصبهاني 1/367 حديث 207-212، ودلائل النبوة للبيهقي 2/262 و وحدائق الأنوار للشيباني والسيرة النبوية للذهبي والبداية والنهاية والشفا، والوفا. وغيره الكثير.

ولسلموا لكل ما حصل على يديك من الآيات البينات.

لقد قلت لهم ـ سيدي ـ إن كل تلك الآيات البينات لا تتنافى مع كون معجزتك الكبرى هي القرآن الكريم.. فهو الكتاب الذي لا زال إعجازه نراه رأي العين، وفي كل المجالات والتجليات.

لقد راحوا ـ سيدي ـ يجادلون فيه أيضا.. ليسقطوا الكثير من مظاهر إعجازة التي تتجلى في كل العصور.. فهم ينكرون تلك الحقائق العلمية التي لم تكتشف إلا بعد أن بذل البشر كل جهودهم في الوصول إليها.. ليكون ذلك آية للعلماء.. ولأهل هذا الجيل، كما كانت سائر أنواع إعجازه آيات للأدباء والفلاسفة والمفكرين وغيرهم.. فكل يرى من إعجازه ما يتناسب مع تخصصه.

لقد راحوا يجادلون فيه ساخرين من أولئك الذين يبحثون في مطابقة ما ذكره القرآن الكريم مع الحقائق العلمية، والتي قد يخطئون في بعض نواحيها.. لكن خطأهم لا علاقة له بالقرآن الكريم، ذلك أنها اجتهادات مرتبطة بالفهم، لا بحقيقة التنزيل.

لقد ذكرت لهم أن مثل ـ الإعجاز القرآني ـ مثل دولة لها أسلحة متطورة كثيرة لم تكشف عنها لأعدائها، فلم يعرفوا أسرارها، ولا أنواعها، ولا أنواع القوة التي تحملها، فلذا كلما قدم أعداؤها سلاحا، كلما وجدوا عندها من الأسلحة ما يفوق ذلك السلاح.

ثم سألتهم: أذلك خير أم دولة ليس لها من السلاح إلا ما تسلح به سلفها، وليس لها من القوة إلا ما ورثته، فأيهما أقوى قوة؟

وقلت لهم: لا شك أن الدولة الأولى هي الأقوى.. وهي تشبه القرآن الكريم، فمن يقول بإطلاق إعجازه يجعله كنزا من كنوز العجائب والمعجزات، ومن يقول بمحدوديته لا يراه إلا كما يراه ذلك البدوي البسيط.. يراه من خلاله عنزاته وناقته وخيمته.

ثم ذكرت لهم أن هذا ليس كلامي وإنما القرآن الكريم هو الذي ذكر ذلك؛ فهو الذي وعد البشرية بأنه سيريها في مستقبل أيامها من الآيات في الآفاق والأنفس ما يرون به الحقائق رأي العين..

وتلوت على أسماعهم تلك الآيتين الكريمتين اللتين تتنبآن بهذه الحقيقة العظيمة، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 52، 53]

وقلت لهم: إن هذه الآيات الكريمة لا تتحدث فقط عن معجزات الآفاق والأنفس الدالة على الله، بل هي تتحدث أيضا ـ بحسب ما يدل السياق ـ على معجزات الله في الآفاق والأنفس الدالة على القرآن الكريم، وعلى صدقك.

وذكرت لهم أن تلك الآيات ليست وحدها ما يعد البشرية بفيض المعجزات التي يختزنها القرآن الكريم، بل نجد هذا واضحا في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)﴾ [ص: 87ـ 88]، وهي واضحة في أن حقائق القرآن الكريم ستتجلى في كل العصور، بما يكفي للدلالة على كونه من عند الله، وكونك نبي الله، وقد قال بعض المفسرين القدامى في ذلك: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أعلم المشركين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين، من غير حد منه لذلك الحين بحد، ولا حد عند العرب للحين لا يجاوز ولا يقصر عنه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا قول فيه أصح من أن يطلق، كما أطلقه الله، من غير حصر ذلك على وقت دون وقت)(1)

وقال آخر: (ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه، وفي بلاغته، وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار، إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون؛ يدل على صحة دعواه... فعم نفعه من حضر، ومن غاب، ومن وجد، ومن سيوجد)(2)

لكنهم سيدي أبوا إلا أن يحصروا القرآن الكريم في مجالات محدودة، ويسخروا من كل من يبحث في طلاقة إعجازه بما آتاه الله من علم.. مع أن ذلك كان سببا في هدايات عظيمة تحققت لمن آمن بذلك، واهتدى به.

فيا سيدي يا رسول الله.. يا من آتاك الله المعجزات الباهرات الواضحات التي لا ينكرها إلا المكابرون الجاحدون أسألك وأتوسل بك إلى الله أن تكون أنت معجزتي الكبرى

1() تفسير الطبري (21/ 244)

2() فتح الباري لابن حجر: 9/ 7.

التي لا أحتاج معها إلى أي معجـزة.. فـأنت كلـك معجـزة.. ولـو أنهم اكتفوا بك، لوصلوا إلى اليقين الذي يقطع كل شك، والعلم الذي ينفي كل وهم.

وأسـألك سـيدي وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يجعـل إيمـاني إيمان الموقنين الذين يثقون في قدرة ربهم المطلقة؛ فلـذلك لا ينكرون شيئا من مظاهر قدرته، بل يـرون كـل شـيء منـه وبـه وله، ولذلك يسلمون لله في كل شيء، فكل شـيء آيـة بـاهرة، ومعجزة خارقة.

المنبأ بالنبوءات

سيدي يا رسول الله.. يا من عظم نصحه وحرصه؛ فتجاوز حدود كل الأمكنة.. وامتد إلى كل الأزمة.. وسرى إلى جميع القضايا.. وتغلغل في جميع الشؤون.. فلا يكتفي بك أحد إلا كُفي.. ولا يقبل عليك إلا ويجد عندك ولديك كل الحلول، ولكل المشاكل، وفي كل الأوقات.

لقد كان أول ما أرقني وفتّ في عضدي أني ــ عند تدبر القرآن الكريم ــ علمت سنة الله تعالى في الأمم وأقوام الأنبياء، بعد وفاة أنبيائهم، وأنهم يبذلون كل جهودهم للتغيير والتبديل والتحريف، فلذلك يحاصَر دين الله بالأهواء، ويُدنّس جماله بالشبهات، وتختلط الأمور على الناس بعد أن أمتلأ عسل دينهم بالسم، وكل أنواع الأدواء، وذلك ليتحقق الاختبار، ويمحص التابعون الصادقون من المزورين والمحرفين.

وقد جعلني هذا ــ وخشية على نفسي من الوقوع في الضلالة ـ أقبل عليك، وأسألك عن حل هذه المعضلة، وكيف لي أن أتجاوز تلك التحريفات.. وكيف لي أن أظل معك، دون أن يجتذبني أولئك الذين صنعهم الشيطان على عينه، ليخلط بهم دين الله بدينه.

وعندما عدت إليك بعد تلك المتاهة الطويلة التي رأيت فيها كل أصناف الأوهام والدعاوى والكذب.. وجدت عندك كل شيء.

فمن أراد أن يبحث عن سر تخلف الأمة عن دينها وجده عندك.. ومن أراد أن يعرف مظان التحريفات والتغييرات يجدك قد ذكرتها في سنتك، وحذرت منها في أحاديثك.. ومن أراد أن يعرف أئمة التحريف والتضليل وأدواتهم، وجدك قد سبقت إلى ذكرهم والإشارة الصريحة إليهم.. ومن أراد أن يعرف أئمة الهدى، وكيفية الاستفادة منهم وجدهم.. وهكذا لم تترك لنا ـ سيدي ـ شاردة ولا واردة قد نحتاج إليها بعدك إلا وأخبرتنا بها.

ولذلك كانت نبوءاتك تتمة لنبوتك.. ومن جحد نبوءاتك، أو تكاسل في الاهتمام بها، أو تفعيلها في حياته، فسيكون كالذي ألغى شطر نبوتك.. فلنبوتك شطران: شطر يرتبط بحياتك، والذي قد يتفق عليه الجميع.. وشطر يرتبط بما هو بعدك..

وهذا الذي وقع فيه التقصير فيمن جاء بعدك، بعد أن تسربت إليهم سموم الأهواء، وسرى إليهم ما سرى إلى الأمم قبلهم من الغفلة عن وصايا أنبيائهم، وإن كانوا قد أخذوا بالكثير من هديهم.

لقد ذكر أصحابك المقربين اهتمامك بهذا الجانب من رسالتك، حتى تحمي الأمة بعدك من كل ما يؤذيها، أو يشوهها، وحتى يظل في دينك المتمسكون الحقيقيون به، الذين يأوي إليهم الشاردون، ويهتدي بنورهم الضالون.

لقد قال بعض أصحابك يذكر ذلك: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)(1)

وقال آخر ـ وهو صاحبك حذيفة ذلك الذي كان مهتما بهذا النوع من العلم خشية على نفسه، وعلى أمتك ـ: (قام فينا رسول الله ﷺ قائما، فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وإنه ليكون الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)(2)

لقد رحت ـ سيدي ـ أبحث عند أصحابك المقربين الذين تعلموا منك هذه العلوم؛ فوجدت عندهم كل شيء.. لقد كان تلميذك الأكبر الإمام علي يصيح في أصحابه طالبا منهم أن يتعلموا هذا العلم حتى يحفظوا للأمة كينونتها، فيقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فو الّذي نفسي! بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين السّاعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا)(3)

لقد بدأت نبوءاتك ــ سيدي ــ من الفترة التي تلتك

1() رواه مسلم.

2() رواه أبو داود.

3() شرح الأخبار 1: 139، وقد روى الحاكم في المستدرك [رقم الحديث: (3394)] عن عامر بن واثلة، قال: سمعت علياً قام، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: من ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]؟، قال: منافقو قريش، قال: فمن ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]؟، قال: منهم أهل حروراء)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح عال.

مباشرة.. تلك الفترة الخطيرة التي وصفها الله تعالى، وحذر منها، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

لقد رأيتك ـ سيدي ــ تذكر كل التفاصيل المرتبطة بمن يصدقون معك، ويفون لك، ولدينك، وبين من يحرفون، ويغيرون، ويبدلون.. حتى لا يؤسس الدين إلا على الأسس الصحيحة، والرجال الأقوياء الصالحين المحافظين على هدي النبوة.

لقد وجدت في دواوين المحدثين الكثير من الأحاديث التي تخبر فيها أصحابك عن البلاء الذين ينتظرهم، والاختبارات التي سيقعون فيها، ويمحصون، وبينت لهم كيفية التعامل معها، حتى لا تزيغ بهم الأهواء.

وبما أن الموقف من الإمام علي ــ بسبب قرابته منك، وتلمذته الصادقة على يديك ـ كان أكثر من تعلم تعرضه للظلم بعدك؛ فقد نبهت إلى خطورة ذلك الظلم، وكونه غير متعلق به فقط، وإنما يتعلق بالدين جميعا.. لأن الناكثين والقاسطين والمارقين والبغاة سيجعلون الحرب عليه وسيلة للحرب عليك، وهذا ما تحقق بالفعل، وقد روي في الحديث عن بعض أصحابك قال: كنا مع رسول الله ﷺ فانقطعت نعله، فتخلف علي يخصفها، فمشى قليلا ثم قال: (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله)، فقال أبو بكر: أنا، قال: (لا)، قال عمر: أنا، قال: (لا ولكن خاصف النعل)(1)

وفي حديث آخر عن صحابي آخر قال: (أمر رسول الله ﷺ عليا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين)(2)

وأخبر الإمام علي عن نفسه قال: (إن مما عهد إلي النبي ﷺ أن الأمة ستغدر بي بعده)(3)

ولهذا كان الإمام علي موقنا تماما أنه لن يموت قبل أن يحصل له ما أخبرته عنه؛ فقد روي أنه لما مرض وهو في ينبع

1() رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

2() رواه الحاكم.

3() رواه أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

عـاده بعض الصـحابة والتـابعين، وطلبـوا منـه أن ينتقـل إلى المدينة، حتى إذا حضر أجله وليه الصحابة وصلّوا عليـه، أمـا إذا مات في مكانه فلا يحضره إلا أعـراب جهينـة، فأجـابهم بقولـه ـ بناء على ما ذكرته له من نبـوءات ـ: (لكـني واللـه مـا تخـوّفت على نفسي منه، لأني سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول: (إنك ستُضرب ضربةً ههنا، ويكون صـاحبها أشـقاها، كمـا كان عاقرُ الناقة أشقى ثمود)(1)

وهكذا ورد في النبوءات تحذيرك لأم المؤمنين عائشـة من أنها ستقع في فتنة خروجها في معركـة الجمـل، فقـد روي أنـك قلت لعلي: (إنه سيكون بينك وبين عائشـة أمـرٌ)، قـال: (أنـا يـا رسول الله؟)، فقلت: نعم.. فقال: فأنا أشقاهم يا رسول اللـه؟ فقلت: (لا.. ولكن إذا كان ذلك، فارددها إلى مأمنها)(2)

بل إنك ـ سيدي ـ ذكرت العلامة التي سـتكون عنـد ظهـور هذا الخلاف، كما أشرت إلى الظـرف الـذي سـتكون عليـه تلـك الأحـوال، فقـد روي عن عائشـة أنهـا لمـا أتت على الحـوأب، وسمعت نباح الكلاب، قالت: سمعت رسول اللـه ﷺ يقـول لنـا: (أيتكن تبنح عليها كلاب الحوأب)(3)

بـل إنـك ـ سـيدي ـ أخـبرت بدقـة عمـا يحصـل في تلـك المعركـة، فقـد روي أنـك قلت مخاطبـا نسـاءك: (ليت شـعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فينبحها كلاب الحوأب، يقتـل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير)(4)

بـل إن حذيفـة حـدث عن هـذا مـع أنـه مـات قبـل مسـير عائشة، فقد روي أنه قيل له: حدثنا ما سمعت من رسـول اللـه ﷺ قال: (لو فعلت لرجمتموني)، قلنا: سـبحان اللـه! قـال: (لـو حدثتكم أن بعض أمهاتكم تغزوكم في كتيبة تضربكم بالسيف ما صدقتموني)، قالوا: سبحان الله، ومن يصدقك بهذا قال: (أتتكم الحمراء في كتيبة تسوق بهـا أعلاجهـا)(5)، قـال الـبيهقي، أخـبر

1() رواه عبد بن حُميد والبخاري في تاريخه وابن أبي عاصـم والطـبراني وأبـو يعلى، والحاكم وصححه، وحسنه الهيثمي.

2() رواه أحمد الطحاوي والبزار والطبراني، ورجاله ثقات، كما قال الحافظ الهيثمي، وحسنه الحافظ ابن حجر.

3() رواه أحمد وابن شيبة وأبو يعلى والبزار، وصححه ابن حبان والحاكم.

4() رواه البزار والطحاوي، برجال ثقات، كما قال الحافظان الهيثمي وابن حجر.

5() رواه الحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

بهذا حذيفة ومات قبل مسير عائشة.

بل إنك ـ سيدي ـ أخبرت بعض من سار مع عائشة على أنه سيقاتل عليا ظالما له، فعن أبي الاسود قال: شهدت الزبير خرج يريد عليا، فقال له علي: أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقاتله وأنت له ظالم)، فقال: لم أذكر، ثم مضى الزبير منصرفا(1).

وفي حديث آخر عن أبي جروة المازني قال: سمعت عليا يقول للزبير نشدتك بالله أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنك تقاتلني وأنت ظالم لي؟ قال: بلى، ولكن نسيت(2).

وفي حديث آخر عن قيس قال: قال علي للزبير: أما تذكر يوم كنت أنا وأنت، فقال لك رسول الله ﷺ: (أتحبه)، فقلت: وما يمنعني، فقال: (أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت ظالم)، قال: فرجع الزبير(3).

وهكذا أخبرت عمارا بأنه سيقتل شهيدا على يد الفئة الباغية التي تحرف دينك، وأنه سيصبح علامة لأهل الحق، وسيصبح أعداؤه علامة على أهل البغي إلى يوم القيامة، فقد حدث الرواة عنك أنك قلت: (إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق)(4)، وقلت: (إن ابن سمية لم يخير بين أمرين قط إلا اختار أرشدهما ـ يعنى عمارا فالزموا ـ سمته)(5)

وقلت عن قريش، تلك التي حاربتك في حياتك، وحاربت دينك بعد موتك: (ولعت قريش بعمار.. ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار)(6)

بل إنك ـ سيدي ــ أخبرت عمارا عن آخر طعام يتناوله، فعن أبي البختري، أن عمار بن ياسر أتي بشربة لبن فضحك، وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: آخر شراب أشربه لبن حين أموت(7).

1() رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

2() رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

3() رواه الحاكم.

4() رواه البيهقي في الدلائل.

5() وقعة صفين (ص: 342).

6() وقعة صفين (ص: 342).

7() رواه أحمد، والحاكم.

وقد حصل ما أخبرت عنه، وبدقة، فقد كان عمار في جيش الإمام علي يوم صفين، وقتله معاوية وجيشه من أهل الشام الذين خرجوا بغاة ظالمين.

ولهذا كان عمار يذكر لمن يعوده في أمراضه أنه لن يموت فيها، بناء على تلك الوعود التي وعدته بها.. فعن مولاة لعمار قالت: اشتكى عمار بن ياسر شكوى ثقل منها، فغشي عليه، فأفاق، ونحن نبكي حوله قال: ما يبكيكم؟ أتحسبون أني أموت على فراشي، أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ أنه تقتلني الفئة الباغية، وأنا آخر زادي مذقة من لبن(1).

وهكذا أخبرت أبا ذر الغفاري بالبلاء الذين ينتظره، وقد شاهده أبو ذر رأي العين، فعن إبراهيم بن الأشتر، أنه لما حضر الموت أبا ذر، وهو بالربذة فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: أبكي أنه لا يد لي بنفسك، وليس عندي ثوب يسع لك كفناً، قال: لا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين)، قال: فكل من كان معه في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت، فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول، فإني والله ما كَذبت ولا كُذبت، قالت: وأنى ذلك وقد انقطع الحاج، قال: راقبي الطريق، قال: فبينا هي كذلك إذا هي بالقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها فقالوا: ما لك؟ فقالت: أمرؤ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه، قالوا: ومن هو؟ قالت: أبو ذر، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ووضعوا سياطهم في محورها يبتدرونه، فقال: أبشروا، فأنتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال، ثم أصبحت اليوم حيث ترون، ولو أن لي ثوباً من أثوابي يسع لأكفن فيه، فأنشدكم بالله لا يكفني رجل منكم كان عريفاً أو أميراً أو بريداً، فكل القوم قد نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار كان مع القوم، قال: أنا صاحبك، ثوبان في عيبتي من غزل أمي وأحد ثوبي هذين الذين علي، قال: أنت صاحبي، فكفنه الأنصاري في النفر الذين شهدوه منهم حجر بن الأدبر ومالك الأشتر في نفر كلهم يمان(2).

وعن القرظي، قال: خرج أبو ذر إلى الربذة فأصابه قدره،

1() وفي رواية: ضياح لبن، وفي لفظ: إن آخر زادك من الدنيا ضياح من لبن، رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن.

فأوصاهم أن غسلوني وكفنوني، ثم ضعوني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على غسله ودفنه ففعلوا.. فأقبل عبد الله بن مسعود في ركب من العراق، وقد وضعت الجنازة على قارعة الطريق، فقام عليه غلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قال: فبكى عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك)(1)

وهكذا أخبرت عن أولئك الظلمة الذين يحرفون دينك، ويحولونه من دين العدالة إلى دين الاستبداد.. ومن دين العقل إلى دين الخرافة.. بل إنك لم تترك شيئا يتعلق بهم إلا ذكرته، وحذرت منه.. ومن تحذيراتك في ذلك قولك: (خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه؛ يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم)، فقالوا ــ عندما سمعوا ذلك منك ــ: يا رسول الله كيف نصنع؟ فقلت: (كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب. موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله) (2)

وقد ذكرت ــ سيدي ــ خوفك على ما يحصل بعدك من تسلط الأئمة الظلمة، ومن يعينهم من علماء السلاطين، فقلت: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)(3)

وقد نبهت أمتك إلى كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء المستبدين، فقلت: (اسمعوا، هل سمعتم أنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو

2() رواه أحمد من طريقتين أحدهما هذه، والأخرى مختصرة عن إبراهيم بن الأشتر عن أم ذر، ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح ورواه البزار بنحوه باختصار.

1() رواه احمد وإسحاق.

2() رواه احمد بن منيع برجال ثقات وإسحاق.

3() رواه احمد برجال ثقات.

مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض)(1)

ولم تكتف ـ سيدي ـ بتلك التحذيرات العامة، بل ضممت إليها الكثير من الإشارات بل التصريحات التي تدل على منابع الفتن ومصادرها، ومن ذلك حديثك عمن سيتولى شؤون المسلمين من الصبية المراهقين، وما سيحصل على أيديهم من فساد وإفساد، فقلت: (هلكة أمتي على يدي غلمة)(2)

وقد وقع سيدي بدقة ما ذكرت حيث أصبح المراهقون والصبية هم الذين يتولون أمور المسلمين، ويعيثون في الأرض فسادا، فشوهوا دينك تشويها عظيما.

وهكذا أخبرت ــ سيدي ــ عما يلحق بأهل بيتك من المظالم، ومن يتولى ذلك في أحاديث كثيرة، منها قولك: (ان أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وان أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم)(3)

وأخبرت عما سيحصل لسبطك سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين، فقلت: (إن جبريل أخبرني أن ابني الحسين يقتل، وهذه تربة تلك الارض)(4)، وقلت: (إن جبريل كان معنا في البيت، فقال: اتحبه؟، فقلت: أما في الدنيا فنعم؟ قال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض، يقال لها: كربلاء، فتناول جبريل من تربتها، فأرانيه)(5)، وقلت: (إن جبريل أخبرني أن ابني هذا ـ يعني الحسين ـ يقتل، وأنه اشتد غضب الله على من يقتله)(6)

ولم تكتف بكل ذلك ـ سيدي ـ بل ذكرت الفترات التي تمر بها الأمة، والمفاسد التي تعترضها في طريقها.. والمواضع التي تظهر فيها الفتن.. وكيفية النجاة منها.. وكان في ذلك كله كفاية لكل من يريد أن يميز بين الحق والباطل، وبين دينك الأصيل، والدين الجديد الذي ابتدعه المحرفون.

لقد رحت ـ سيدي ـ بعد اطلاعي على تلك النبوءات التي تركتها لنا، والتي تمس جميع جوانب الحياة، وفي جميع العصور،

1() رواه الترمذي وقال: صحيح غريب وابن حبان والنسائي.

2() رواه أحمد، ورواه البخاري بنحوه عن أبي هريرة، والأحاديث في هذا كثيرة جداً وهي موجودة في كتب دلائل النبوة.

3() رواه ابن عساكر ونعيم بن حماد في الفتن، والحاكم.

4() رواه الخليل في الإرشاد.

5() رواه الطبراني.

6() رواه ابن عساكر.

وقارنت صدقها بما ورد من النبوءات المحدودة من أولئك الذين اعتبرهم البشر عباقرة وأبطالا، فوجدت البون الشاسع.

فكل نبوءاتك مع تفاصيلها الدقيقة صدقت، ودل عليها التاريخ والواقع.. وكل نبوءاتهم فضحتها الأيام، وبينت تهافتها وضلالها وكذب أصحابها.

لقد ذكر المؤرخون أن نابليون بونابرت، ذلك الذي كان ولا يزال يعد من أعظم قواد الجيوش في عصره، ذلك الذي توهم أنه سيحيي بطولات الإسكندر المقدوني وفتوحاته.. ذلك الذي توهم أنه أصبح مالك القدر، وادعي أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على جميع أهل الأرض.. لكن كل تلك النبوءات المغرورة أصابها ما أصاب نبوءات جميع المدعين، فتلك الجحافل العظيمة التي أعدها هزمت شر هزيمة.. وعندما علم نابليون بمصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكا، ولم يكد يصل إلى الشاطئ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية، وانتهي به القدر إلي أن أرسل إلي جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطي، ومات ذلك القائد المغرور في تلك الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء، يتجرع كأس الندم، بعد أن جرع جيوشه كأس الخديعة.

وهذا ما حصل للبيان الشيوعي الذي تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا)، ولكن ألمانيا على الرغم من مضي العقود الكثيرة من تلك النبوءة عليها، لا تزال أبعد الناس عن مثل تلك الثورة..

وهذا ما حصل لكارل ماركس ــ ذلك الذي يعتبره الكثير إلههم الذي لا يخطئ ـ فقد كتب يقول: (إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس)، لكن ذلك، ورغم مرور تلك الفترة الطويلة لم يحصل.. ولن يحصل.

وهذا ما حصل لأدولف هتلر في خطابه الذي ألقاه بين قومه يقول لهم فيه: (إنني سائر في طريقي، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لي)، وقد عرف العالم أجمع أن الهزيمة هي التي كتبت لهتلر وليس النصر.

وهكذا كذبت كل النبوءات.. إلا نبوءاتك ـ سيدي ـ والتي لم تزدها الأيام إلا صدقا.. وبكل تفاصيلها.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ــ وأتوسل بك إلى ربي

أن يجعلني من المطبقين لوصاياك، المعتصمين بهـديك.. الـذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يحرفوا..

وأسألك أن أكون من الذين استفادوا من نبوءاتك، وعاشوا معها، وحذروا مما حذرتهم منه، وعملـوا بمـا أوصـيتهم بـه.. وألا تأخذني في ذلك لومة لائم.. إنك وسيلة الله العظمى، وصـاحب الجاه العظيم.

مجاب الدعوات

سيدي يا رسول الله.. يا صاحب الجاه العظيم، والمقام الرفيع الذي لا ترد معه الدعوات.. ولا تصد عنه الحاجات.. ولا تقف دونه الحجب.

لقد بلغ قربك من الله تعالى إلى الدرجة التي لا تدعو فيها بدعاء إلا استجيب لك، ولا تتمنى أمنية إلا تحققت، ولا ترغب في شيء إلا كان بين يديك؛ فلذلك كنت وسيلة الصادقين إلى ربهم.. لعلمهم أن دعاءك لهم أقرب من دعائهم لأنفسهم.

وكيف يكون دعاؤهم لأنفسهم أقرب إلى الله من دعائك، وقد قال الله تعالى عن دعائك: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63](1)

وكيف يكون دعاؤهم أقرب إلى الله، وأنت الذي قال لك ربك: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64]، وقد كان يمكن أن يدعوهم إلى الاستغفار بأنفسهم لأنفسهم، لكنه طلب منهم العودة إليك، فاستغفارك لهم أجدى من استغفارهم لأنفسهم.

ولذلك كنت ــ سيدي ــ ملجأ السائلين في حياتك، وبعد وفاتك.. فكل من احتاج حاجة لجأ إليك، وطلب دعاءك، أو توسل إلى الله بدعائك، أو توسل إلى الله بجاهك، أو لجأ إليك أن تدعو له.. إلا أولئك المحجوبين الذين توهموا أن الموت قضى عليك، وأنه لم يعد لك من الأمر شيء، وأن قربك من الله لن يتيح لك أن تلجأ إليه لإغاثة من طلب الغوث، أو إجارة من طلب الإجارة، أو إجابة من طلب شيئا من شؤون الدنيا والآخرة.. وكل ذلك لكونهم حجبوا بأنفسهم وأهوائهم ووساوسهم عنك، وإلا فإنهم لو تركوا تلك الحجب لرأوك لا تزال مستقرا على العرش الذي بوأك الله إياه، وأنزلك فيه، لا ترد من سألك، ولا يحجب عنك من طلبك.

ولو أنهم فعلوا ذلك.. لعاشوا معك مثلما عاش صحابتك،

1() هذا أحد الأقوال التي فسرت بها الآية، فقد قال ابن كثير في تفسيره (6/ـ 89): أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العَوفي، والله أعلم.

يطلبونك في كل ملمة، ويلجئون إليك عند كل حاجـة.. فيجـدون عندك كل ما يطلبون، وفوق ما يطلبون.

اسمح لي ـ سيدي ـ أن أشنف قلبي بذكر بعض تلك الأخبار الجميلة التي نقلها لنا الرواة عنك، والتي تـدل على تكـريم اللـه لك بإجابـة الـدعاء، وفي كـل المناسـبات، ولكـل الحاجـات.. فلا يخيب من لجـأ إليـك، ولا يـرد صـفر اليـدين من مـد يـده إلى حضرتك.

فمن تلك الأخبار ما يرتبط بلجـوء المرضـى إليـك، بعـد أن علموا أنك طبيبهم، وأن كل من دخل عيادتك، شفي مهمـا كـان مرضه، ومن غـير معانـاة، وبغـير أدويـة.. فقـد وردت الروايـات الكثيرة تخبر بذلك عنك، وبأسانيد كثيرة متواترة، لا يشكك فيهـا إلا جاحد.

ومن تلـك الروايـات مـا روي في إبرائـك الأعمى والأرمـد ومن فقئت عينه، وغيرهم.. فقد روي أنك سألت يـوم خيـبر عن الإمام علي، فقيل لـك: يـا رسـول اللـه، يشـتكي عينيـه، فقلت: (فأرسلوا إليه)، فأتي به فنفثت في عينيه، ثم دعوت له، فـبرئ، حتى كأنه لم يكن به وجع، ثم أعطيته الراية(1).

ومن تلك الروايـات مـا روي عن حـبيب بن فـديك أن أبـاه خرج به إليك، وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شـيئا، فسـألته: (مـا أصابك؟) فقال: وقعت رجلي على بيضـة حيـة فأصـيب بصـري، فنفثت في عينيه، ودعوت له، فأبصر، حتى أنه صار ـ كمـا يـذكر الراوي عنه ـ يدخل الخيط في الإبرة، وإنـه لابن الثمـانين سـنة، وإن عينيه لمبيضتان(2).

ومن تلك الروايات مـا روي أن قتـادة بن النعمـان أصـيبت عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوهـا، ثم بــدا لهم أن يستشــيروك، فقلت: (لا تقطعوهــا)، ثم رفعت حدقته، ثم غمزتها براحتك الشريفة، وأنت تقول: (اللهم اكسـبه جمالا)، فكانت ـ كما يذكر الرواة ــ أصـح عينيـه وأحسـنهما، بـل كان لا يدري أي عينيه أصيبت(3).

ومن تلك الروايات مـا روي عن رفاعـة بن رافـع بن مالـك

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه ابن أبي شيبة والبيهقي وأبو نعيم.

3() رواه أبو يعلى والبيهقي وابن سعد وأبو نعيم.

قال: رميت بسهم يـوم بـدر، ففقئت عيـني، فنفث فيهـا رسـول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء(1).

ومن تلك الروايات ما روي في إبرائك الأبكم والرتـة، ومن أمثلتها مـا روي أن امـرأة جاءتـك بصـبي قـد شـب، فقـالت: يـا رسول الله ان ابني هذا لم يتكلم منـذ ولـد، فقلت لـه مخاطبـا: (من أنا؟) قال: (أنت رسول الله)(2)، ثم صار يتحدث من حينها.

ومنها ما روي عن بشير بن عقربة الجهني قال: أتى عقربة رسول الله ﷺ فقال: (من هذا معك، يا عقربة؟) قال: ابني بحير قال: (ادن) فدنوت حتى قعدت عن يمينـه، فمسـح على رأسـي بيده، فقال: (ما اسمك؟) قلت: بحير يـا رسـول اللـه، قـال: (لا، ولكن اسمك بشير) وكـانت في لسـاني عقـدة، فنفث النـبي ﷺ في في، فانحلت من لساني وأبيض كل شيء من رأسي ما خلا ما وضع يده عليه فكان أسود)(3)

ومنها مـا روي أن مخوس بن معـدي كـرب، قـال: يا رسـول الله، ادع الله أن يذهب عني الرتة، فدعا له، فذهبت(4).

ومن تلك الروايـات مـا روي في إبرائـك للقرحـة والسـلعة والحرارة، ومنها ما روي أنـك أتيت برجـل في رجلـه قرحـة قـد أعيـا الأطبـاء علاجهـا، فوضـعت أصـبعه على ريقـه، ثم رفعت طرف الخنصر، فوضعتها على التراب، ثم رفعتها، فوضعتها على القرحة، ثم قلت: (باسمك اللهم ريق بعضنا بتربة أرضنا ليشفى سقيمنا باذن ربنا)(5)

ومنها ما روي أنك أتيت برجل في كفه سلعة(6) وقـد قـال لك: (يا رسول الله هـذه السـلعة قـد آذتـني وتحـول بيـني وبين قائم السيف أن أقبض عليه، وعنان الدابة)، فنفثت في كفه، ثم وضعت كفك الشريفة على السلعة، فما بقي لها أثر(7).

1() رواه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بسند جيد.

2() رواه البيهقي.

3() رواه اسحاق بن ابراهيم الرملي في فوائده.

4() رواه ابن سعد عن عكرمة والزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة مرسلا.

5() رواه البيهقي.

6() السلعة:الغدة تكون في العنق.

7() رواه البخاري في التاريخ والطبراني والبيهقي.

وغيرهـا من الروايـات الكثـيرة المتـواترة الـتي تـدل على إجابة الله لدعائك، وفي شـفاء جميـع الأمـراض، مهمـا اشـتدت وصعبت.. وكيف يشـتد على اللـه أو يصـعب عليـه مـرض، وهـو الشافي الذي خلق المرض والدواء؟

ومن تلـك الحاجـات الـتي كـان أصـحابك يقصـدونك فيهـا، وخاصـة في تلـك البيئـة الصـحراوية الجافـة، الحاجـات المرتبـة بالاستسقاء وطلب الماء، ونزول الأمطـار، ومما روي في ذلـك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة، وأنت قائم تخطب، فاستقبلك قائمًا، ثم قال: (يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا)، فرفعت يديك، ثم قلت: (اللهم أغثنا اللهم أغثنـا اللهم أغثنا).. قال الراوي، يصف مـا حصـل بعـد دعائـك وقبلـه: (ولا والله ما نرى في السـماء من سـحاب ولا قزعـة، ومـا بيننـا وبين سـلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائـه سـحابة مثـل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا)

ثم ذكر أنه دخل رجل من ذلك البـاب في الجمعـة المقبلـة وأنت قائم تخطب، فاستقبلك قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، فرفعت يديك، ثم قلت: (اللهم حولنـا ولا علينـا اللهم على الآكـام، والظـراب ومنابت الشـجر)، قـال الـراوي: (فـانقلعت وخرجنـا نمشـي في الشمس)(1)

ومن تلـك الروايـات مـا حـدث بـه بعض صـحابتك، من أن أعرابيا جاءك، فقال: يا رسول الله، لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبي يصيح وأنشد:

أتينـاك والعـذراء يـدمى لبانها ... وقد شغلت أم الصبي عن الطفل

وألقى بكفيـه الصـبي من الجوع ضعفا ما يمر ولا يحلي

ولا شئ مما يأكل النـاس عندنا ... سوى الحنظـل القـامي والعلهز الفسل

وليس لنـا إلا إليـك فرارنا ... وأين فـرار النـاس إلا إلى الرسل

فقمت حتى صعدت المنبر، ثم رفعت يـديك، فقلت: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا غدقا طبقـا عـاجلا غـير رائث نافعـا

1() رواه البخاري ومسلم.

غير ضار تملا به الضرع وتنبت به الـزرع وتحـيي بـه الارض بعـد موتها وكذلك تخرجون)

قال الراوي يصف ما حدث: (فوالله ما رد يديـه إلى نحـره حتى ألقت السماء بأردافهـا، وجـاء أهـل الوطابـة يضـجون: (يـا رسـول اللـه الغـرق).. حينهـا رفعت يـديك إلى السـماء، وقلت: (اللهم حوالينـــا ولا علينـــا)، فانجـــاب الســـحاب من المدينـــة، فضحكت سيدي حتى بدت نواجذك، ثم قلت تذكر عمك الصـالح أبا طالب: (لله در أبي طالب لو كان حيا قرت عينـاه) (1)،وأنت تقصد بذلك قوله فيك:

وأبيض يستســـــقى ثمـــال اليتـــامى

ولم يكن ذلك ـ سيدي ـ مقصوراً على حادثة أو اثنـتين، بـل كان يحدث كثيرا، وقد قـالت الربيـع بنت معـوذ بن عفـراء: بينـا نحن عند رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا احتاج النـاس إلى الماء، فالتمسوا في الركب ماء، فلم يجدوا، فـدعا رسـول اللـه ﷺ فأمطرت حتى استقى الناس وسقوا(2).

وروي أن وفد سلامان قدموا في شوال سنة عشـر، فقلت لهم: (كيف البلاد عندكم؟) قالوا: مجدبة، فـادع اللـه أن يسـقينا في أوطاننا، فقال ﷺ: (اللهم اسقهم الغيث في بلادهم) فقـالوا: يا رسول الله ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب.. فتبسـمت، ورفعت يديك حتى بدا بياض إبطيك، ثم رجعوا إلى بلادهم، فوجدوها قـد مطرت في اليوم الذي دعوت فيه، وفي تلك الساعة(3).

ومن تلـك الحاجـات الـتي كـان أصـحابك يقصـدونك فيهـا، وخاصة الفقراء منهم، حاجتهم إلى المطعم، وقد كنت ـ سيدي ـ تلبي حاجتهم، وتدعو الله لهم، فيغدق عليهم بمجـرد دعائـك من كل ما يحتاجون من الرزق..

ومما يروى في ذلـك، مـا حـدث بـه بعض أهـل الصـفة من الفقراء، أنهم بعد صومهم، لم يجدوا ما يفطرون به، ولم يجـدوا من يـــدعوهم إلى طعامـــه، لشـــدة الفاقـــة، فـــانطلقوا إليـــك، فأخبروك، ولم يكن في بيتك شيء، فقلت لهم: (فـاجتمعوا)، ثم دعوت لهم قائلا: (اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتـك، فإنهـا

1() رواه البيهقي وابن عساكر.

2() رواه أبو نعيم.

3() رواه أبو نعيم.

بيدك لا يملكها أحد غيرك)

قال الراوي: (فلم يكن إلا ومستأذن يستأذن، فإذا بشاة مصلية ورغف، فأمر بها رسول الله ﷺ، فوضعت بين أيدينا، فأكلنا حتى شبعنا، فقال لنا رسول الله ﷺ: (إنا سألنا الله من فضله ورحمته، فهذا فضله، وقد ادخر لنا عنده رحمته)(1)

لكنك مع ذلك ـ سيدي ـ ولشدة زهدك في الدنيا، لم تكن تدعو لنفسك بمثل تلك الدعوات، بل كنت تقول: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)(2)

وقد أجاب الله دعاءك، فقد كان رزقك ورزق أهلك القوت في أكثر الأحيان لا يجاوزونه، وكنت تعلل ذلك بقولك: (ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)(3)

ومن تلك الحاجات التي كان أصحابك يقصدونك فيها، طلباتهم للتأمين من بعض المخاوف التي كانت تعتريهم، وخاصة في تلك البيئة التي اجتمع فيها رؤوس النفاق مع رؤوس الشرك واليهودية، ومما يروى في ذلك أن رجلا أتاك يشكو الوحشة، فقلت له: (أكثر من أن تقول: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت)، فقالها الرجل، فذهبت عنه الوحشة والخوف(4).

ولم تتوقف طلباتهم ـ سيدي ـ عند تلك الطلبات.. بل إنهم كانوا يدعونك حتى في شؤونهم الخاصة، ومن ذلك ما حدث به جابر أن امرأة كان بينها وبين زوجها خصومة، فأتيا إليك، فقالت المرأة: هذا زوجي، والذي بعثك بالحق، ما في الأرض أبغض إلي منه، وقال الآخر: هذه امرأتي، والذي بعثك بالحق ما في الأرض أبغض إلي منها، فأمرتهما أن يدنوا إليه، ثم دعوت لهما، فلم يفترقا من عندك حتى قالت المرأة: والذي بعثك بالحق ما خلق الله شيئا أحب إلي منه، وقال الرجل: والذي بعثك بالحق، ما خلق الله شيئا أحب إلي منها(5).

1() رواه البيهقي في الدلائل، ورواه الطبراني وإسناده حسن.

2() رواه مسلم.

3() التِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

4() رواه ابن السني.

5() رواه الطبراني برجال الصحيح غير مقداد بن داود.

وكـان بعضـهم يطلب منـك الـدعاء لـه بالبركـة، فكـانت دعواتك تستجاب، وبصورة لم يكونوا يتوقعونها، ومما يـروى في ذلك ما حدث به أنس بن مالك قـال: جـاءت أم سـليم، وهي أم أنس إلى رسول الله ﷺ وقد أزرتني بخمارهـا، وردَّتـني ببعضـه، فقالت: يا رسول الله هذا أُنيس أتيتك به يخدمك فادع اللـه لـه، قال: اللهم أكثر ماله وولده.. وفي لفظ: اللهم أكثر ماله وولـده وأطِل عمره واغفر له(1)..

وقد ذكر أنس استجابة الله لدعائك له، فقال: (فو اللـه إن مالي لكثير، وإن ولدي وولـد ولـدي يتعـادون على نحـو المائـة.. وحدثتني ابنتي أُمَيْنة أنه قد دفن من صـلبي إلى مقـدم الحجـاج البصرة تسعة وعشرين ومائـة.. وإن ثمـرتي لتحمـل في السـنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحيـاة، وأرجـو الرابعـة.. وكـان لي بستان يحمل في السنة الفاكهة مـرتين، وكـان فيهـا ريحـان يجيء منها ريح المسك)(2)

ويروى أنك دعوت للسائب بن يزيـد، ومسـحت بيـدك على رأسه، فطـال عمـره حـتى بلـغ أربعًـا وتسـعين سـنة، وهـو تـام القامة معتدل، ولم يشب منه الموضع الذي أصـابته يـدك، ومُتِّع بحواسه وقواه(3).

وذكر الجعد بن عبد الـرحمن بن عـوف أثـر هـذه الـدعوة، فقال: (مات السائب ابن يزيد وهو ابن أربع وتسعين سنة، وكان جلدا معتـدلا، وقـال: لقـد علمت مـا متعت بسـمعي وبصـري إلا بدعاء النبي ﷺ)(4)

ويروى أنـك دعـوت لعـروة بن البـارقي بالبركـة في بيعـه، فكان لو اشترى التراب لربح فيه(5)، وروي عنه قولـه: قـال لي رسول الله ﷺ: (بارك الله لك في صـفقة يمينـك)، فكنت أقـوم بالكناسة (مكان بالكوفة) فما أرجع إلى أهلي حـتى أربح أربعين ألفا(6).

1() رواه البخاري في الدعوات.

2() رواه الترمذي وغيره، وقال: حديث حسن.

3() رواه البخاري كتاب المناقب، ومسلم في الفضائل.

4() رواه البخاري.

5() رواه البيهقي.

6() رواه أبو نعيم.

ويروى أنك دعوت لعمرو بن الحمق، بعد أن سقاك لبنا فقلت: (اللهم أمتعه بشبابه)، فمرت به ثمانون سنة لم ير الشعرة البيضاء (1).

ولم تكتف بكل ذلك ـ سيدي ـ بل كنت تصف من الأدعية النافعة ما يحقق لكل طالب حاجة كل ما يريد، ومن ذلك ما روي أن رجلا قال لك: (يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عني وتولت)، فقلت له: (فأين أنت من صلاة الملائكة، وتسبيح الخلائق، وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله، مائة مرة، تأتيك الدنيا صاغرة)، قال الراوي: فمكث الرجل ثم عاد، فقال: يا رسول الله، لقد أقبلت علي الدنيا، فما أدري أين أضعها(2).

ولم يكن ذلك سيدي خاصا بحياتك، بل إن صحابتك، فمن بعدهم، كانوا يتوسلون بك إلى الله بعد وفاتك، فيتحقق لهم كل ما يريدون، وقد روي عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً كان يختلف على عثمان بن عفان في حاجته، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين وقل: (اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي)، وتذكر حاجتك ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجّة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: (جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيّ)، فقال عثمان بن حنيف: (والله ما كلّمتُه فيك، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ: (إن شئت دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ وهو خير؟) قال: فادعُهُ، فأمره ﷺ أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه ويُصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إنّي أسألك

1() رواه ابن أبي شيبة في (مسنده) وأبو نعيم وابن عساكر.

2() رواه الخطيب في (رواة مالك).

وأتوجّه إليك بنبيّك نبي الرحمة يا محمّد إنّي أتوجّه بـك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللهمّ شفّعه فيّ)، فوالله مـا تفرّقنـا وطـال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضُرّ (1).

فيا سيدي يا رسول الله.. أتوسل بـك إلى اللـه أن يجعلـك في قلوبنا وأرواحنا، وأن تكون معنا في كل أحوالنا.. فأنت جنتنا وسعادتنا.. وبك راحتنا وفرحتنا.. ومن كنت معه لا يعوزه شيء.. ومن كنت صاحبه لا تصيبه فاقة.

فنسألك ـ سيدي ـ أن ترضى عنا، حـتى تتحقـق لنـا معيتـك التي لا تتحقق إلا للذين رضـيت عنهم.. واجعلنـا ــ سـيدي ــ من حزبك وفريقك وأنصارك والمستشهدين بين يدي وليك الذي هو خليفتك وناصرك ومؤيدك ومسدد أمر أمتك.. إنك أنت الوسـيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

1() انظر الحديث كـاملا في: المعجم الكبـير للطـبراني:9/ـ 30 و 31.. وانظـر قصـة الأعمى في: أحمد في المسند (4/ 138)، والترمذي (تحفة 10/ 132ـ 133)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 417)، وابن ماجة في السنن (1/ 441) والبخاري في التاريخ الكبير (6/ 210). والطبراني في المعجم الكبير (9/ 19)، وفي الدعاء أيضاً (2/ 1289) والحاكم في المستدرك (1/ـ 313ـ 519) وصححه وسـلمه الـذهبي والـبيهقي في دلائـل النبوة (6/ 166)، وفي الدعوات الكبير.

مهبط البركات

سيدي يا رسول الله.. أيها العبد المبارك الـذي جعلـه اللـه ربيعا للحياة؛ فحيث ما حل أزهرت وأينعت وأثمرت.. فلا يسـكن قلبا إلا سكن معه السرور، وملأت جوانحه السعادة.. ولا يسـكن عقلا إلا طردت عنه الأوهـام والوسـاوس والشـبهات.. ولا تتبـنى اســمه دولــة إلا انتصــرت على أعــدائها، وتطــورت في كــل المجالات..

وكيف لا تكون كـذلك سـيدي، وأنت القـريب من اللـه.. فلا يقترب منك أحد إلا اقترب من فضل الله، ونال من بركاتـه.. ولا يبتعـد عنـك إلا ونـزل عليـه الشـؤم، وامتلأت حياتـه بالتعاسـة والظلمات.. وكيف ينال النور من ابتعد عن سراجه المنير؟

لا أزال أذكر سيدي حليمة السعدية.. تلك التي جاءت مكة، وأنت صبي صغير لا تزال في حجر أمك، فقد ذكرت أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسـوة من بـني سعد، وذلك في سنة شهباء، لم تبـق لهم شـيئا.. لكنهـا فـوجئت بالسعد يطل عليها بمجرد حملها لك، وأخـذك معهـا إلى بلادهـا، وقد عبرت عن ذلك بقولها: (فلمـا أخذتـه رجعت بـه إلى رحلي، فلمـا وضـعته في حجـري أقبـل عليـه ثـدياي بمـا شـاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبـل ذلـك.. وقـام زوجي إلى شـارفنا تلـك، فـإذا إنهـا لحافـل فحلب منهـا مـا شـرب وشـربت معـه حـتى انتهينـا ريـا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: تعلمي واللـه يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، فقلت: والله إني لأرجو ذلك) (1)

ثم ذكرت عجبها وعجب الناس مما حصل لهم عند العودة، فقالت: (ثم خرجنـا وركبت أتـاني، وحملتـه عليهـا معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها أبي ذؤيب، حتى قال الذين معي: ويحك أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خـرجت عليهـا؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنا.. ثم قدمنا منازلنـا من بلاد بـني سـعد، ومـا أعلم أرضـا من أرض الله أجدب منها، فكـانت غنمي تـروح علي حين قـدمنا بـه معنـا

1() سيرة ابن إسحاق، (ص: 49)

شباعا لبنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا لبنا.. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته)(1)

ولا أزال أذكر ـ سيدي ـ فترة كفالة عمك أبي طالب لك، وكيف ظهرت بركاتك عليه.. وقد وصف بعضهم ذلك، فقال: (لما توفي عبد المطلب كفل أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وصب به صبابة لم يصب مثلها قط، وكان يخصه بالطعام، وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا.. وكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم، يقول: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعهم، وإن كان لبنا شرب أولهم، ثم يتناول العيال القعب، فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.. وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحيلا)(2)

ولهذا كان عمك يستسقي بك، وكيف لا يفعل ذلك، وهو يعلم من شأنك ما سمعه من أبيه وأمك، وقد روي عن بعضهم قوله: (قدمت مكة وقريش في قحط، فقائل منهم يقول: اعتمدوا واللات والعزى، وقائل منهم يقول: اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي: أنى تؤفكون، وفيكم بقية إبراهيم وسلالة إسماعيل، قالوا: كأنك عنيت أبا طالب؟ قال: إيها.. فقاموا بأجمعهم، وقمت معهم، فدققناه عليه بابه، فخرج إلينا رجل حسن الوجه، عليه إزار قد اتشح به، فثاروا إليه، فقالوا: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق لنا.. فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس دجنة، تجلت عليه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه

1() سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (1/ 387)

2() رواه ابن سعد والحسن بن عرفة وابن عساكر وغيرهم.

أبو طالب، فألصق ظهـره بالكعبـة، ولاذ بأضـبعه الغلام ومـا في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا أغدق واغـدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي)(1)

وقد قال أبو طالب في ذلك يمدحك:

وأبيض يستسـقي ثمـال اليتـامى

يلوذ به الهلاك من آل فهم عنده في نعمة

وقد حدث عن بعض بركاتك عليه، فقال: كنت بذي المجـاز مع ابن أخي ـ يعني النبي ﷺ ـ فأدركني العطش، فشكوت إليـه، فقلت: يا ابن أخي قـد عطشـت.. ومـا قلت لـه ذلـك، وأنـا أرى عنده شيئا إلا الجزع قال: فثنى وركه، ثم قال: يا عم عطشـت؟ قلت: نعم.. فـأهوى بعقبـه إلى الأرض، فـإذا أنـا بالمـاء، فقـال: اشرب، فشربت)(2)

هذه بعض بركاتك على أهل بيتك قبل أن يبعثك الله رسولا إلى عبـاده، أمـا بعـدها، فهي كثـيرة جـدا، لا يمكن حصـرها ولا وصفها ولا حدها.. وكيف يمكن ذلك.. وما من فـرد من أمتـك إلا وهو يعيش في ظلال بركاتك التي لا تنتهي؟

وكيف يمكن ضبطها، ونحن كلما ذكرناك، وملأنا قلوبنا بـك، كلما من الله علينا من نعم الظاهر والباطن مـا لا يمكن وصـفه ولا ضبطه ولا حده.

ولكن مع ذلك ائذن لي ــ سـيدي ــ أن أشـنف قلـبي بـذكر بعض بركاتك على حياة الناس في الجيل الذي تشرف بظهورك المبارك فيه.. وهي نقطة من بحر بركاتـك.. وقبس من نورهـا.. وهي كافية للدلالة على ما أتاحه الله لك.. وكيف لا يتيحه، وأنت أقرب المقربين، وسيد الأولين والآخرين.

فمن تلك البركات ما حدث به جابر قـال: قـام رسـول اللـه ﷺ أياما لم يطعم طعامـا حـتى شـق ذلـك عليـه فطـاف في منـازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة، فقـال: (يـا بنية، هل عندك شيء آكله، فإني جائع) فقالت: لا والله، فلما خـرج من عندها رسول اللـه ﷺ بعثت إليهـا جـارة لهـا بـرغيفين وقطعـة لحم، فأخذته منها، فوضـعته في جفنـة لهـا وغطت عليهـا، وقـالت:

1() السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (1/ 170)

2() رواه الخطيب وابن عساكر.

والله، لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، فكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: (هلمي يا بنية)، فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملؤة خبزا ولحما، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله عز وجل، فحمدت الله عز وجل وصلت على نبيه ﷺ وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله عز وجل، وقال: (من أين لك هذا يا بنية؟) قالت: يا أبت، هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: (الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله عز وجل شيئا فسئلت عنه قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب،) فبعث رسول الله ﷺ إلى علي، ثم أكل رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي فأوسعت بقيتها على جميع جيرانها، وجعل الله عز وجل فيها بركة وخيرا كثيرا (1).

ومنها ما حدث به الإمام علي قال: نمنا ليلة بغير عشاء فأصبحت فالتمست فأصبت ما أشتري به طعاما ولحما بدرهم، ثم أتيت به فاطمة فخبزت وطبخت، فلما فرغت، قالت: لو أتيت أبي، فدعوته، فجئت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (أعوذ بالله من الجوع ضجيعا)، فقلت: يا رسول الله، عندنا طعام فهلم، فجاءوا والقدر تفور، فقال: (اغرفي لعائشة في صحفة) حتى غرفت لجميع نسائه، ثم قال: (اغرفي لأبيك وزوجك)، فغرفت، فقال: (اغرفي فكلي)، فغرفت ثم رفعت القدر، وإنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله عز وجل(2).

ومنها ما حدث به جابر بن عبد الله عن نفسه، وكيف نالته بركاتك، حيث ذكر أن أباه توفي، وترك عليه ثلاثين وسقا، لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبى أن ينظره، فكلمك لتشفع إليه، فجئت اليهودي، فكلمته ليأخذ تمر نخله بالذي له، فأبى، فدخلت إلى بستانه، فمشيت فيه، ثم قلت له: يا جابر، جد له(3)، فأوفه الذي له، فجد بعدما رجعت، فأوفاه ثلاثين وسقا،

1() رواه أبو يعلى، انظر: السيوطي في الدر المنثور 2 ، 20 وابن كثير في التفسير 2 / 29.

2() رواه ابن سعد:1 / 124.

3() الجداد: قطع الثمر وجَنْيُه وحصاده.

وفضلت له سبعة عشر وسقا(1).

ومثل ذلك ما حصل لفرس أنس بن مالك، التي حدث عنها وعن بركاتك عليها، فقال: (فزع الناس، فركب النبي ﷺ فرسا لأبي طلحة بطيئا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: (لن تراعوا إنه لبحر)، قال: فوالله ما سبق بعد ذلك اليوم)(2)

ومثل ذلك ما حصل لخباب بن الأرت، فقد حدثت ابنته، قالت: خرج خباب في سرية، فكان رسول الله ﷺ يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزا لنا، فكان يحلبها في جفنة لنا فتمتلئ فلما قدم خباب حلبها، فعاد حلابها كما كان، فقالت أمي: أفسدت علينا شاتنا، قال: وما ذاك؟ قالت: إن كانت لتحلب مل ء هذه الجفنة، قال: ومن كان يحلبها؟ قالت: رسول الله ﷺ قال: وقد عدلتيني به؟ هو والله أعظم بركة (3).

ومثل ذلك ما حصل لنوفل بن الحارث فقد روي عنه أنه استعان بك من أجل الزواج، فأرسلت بعض أصحابك بدرعه فرهناه عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، فدفعته إليه، قال: فطعمنا منه نصف سنة ثم كلناه فوجدناه، كما أدخلناه.. وعندما ذكر ذلك لك قلت له: (لو لم تكله لأكلت منه ما عشت)(4)

ومثل ذلك ما حصل لحمزة الأسلمي، فقد روي عنه أنه قال: عملت طعاما للنبي ﷺ ثم ذهبت به، فتحرك به النحي فأهريق ما فيه، فقلت: على يدي أهريق طعام رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ادنه) فقلت: يا رسول الله لا أستطيع، فرجعت مكاني، فإذا النحي يقول قب قب، فقلت: مه قد أهريق فضلة فضلت فيه، فاجتذبته، فإذا هو قد ملئ إلى يديه، فأوكيته، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: (أما إنك لو تركته لسال واديا سمنا)(5)

1() رواه البخاري، قال ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ﷺ، ودعائه له، ومشيه في حائطه وجلوسه على تمره، وَفَى الله دين أبيه، وكان قد قتل بأحد، وجابر كان لا يرجو وفاءه في ذلك العام ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر وفوق ما كان يؤمله ويرجوه ولله الحمد والمنة.(انظر: البداية والنهاية 6/0121)

2() رواه البخاري.

3() رواه أحمد وأبو داود الطيالسي وابن سعد والطبراني.

4() رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل.

5() رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي.

ومثل ذلك ما حصل لمسعود بن خالد فقد روي عنه أنه قال: بعثت إلى رسول الله ﷺ شاة، ثم ذهبت في حاجة، فرد رسول الله ﷺ شطرها، فرجعت، فإذا لحم، فقلت: يا أم خناس ما هذا اللحم؟ قالت: رد رسول الله ﷺ من الشاة التي بعثت بها إليه شطرها، قلت: مالك لا تطعمينه عيالك، قالت: هذا سؤرهم، وكلهم قد أطعمت، وكانوا يذبحون الشاتين والثلاثة فلا تجزئهم(1).

ومثل ذلك ما حصل لعبد الله بن طهفة فقد روي عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اجتمع الضيفان قال: (لينقلب كل رجل مع جليسه)، فكنت أنا ممن انقلب مع رسول الله ﷺ فقال: (يا عائشة، هل من شيء) قالت: حويسة كنت أعددتها لإفطارك، فأتي بها في قعبة فأكل منها رسول الله ﷺ شيئا ثم قدمها إلينا ثم قال: (بسم الله كلوا) فأكلنا منها حتى والله ما ننظر إليها، ثم قال: (هل من شراب؟) فقالت لبينة: أعددتها لإفطارك، فجاءت بها فشرب منها شيئا، ثم قال: (باسم الله اشربوا)، فشربنا حتى والله ما ننظر إليها(2).

ومثل ذلك ما حصل لرجل أتاك يستطعمك، فأطعمته شطر وسق شعير، فما زال يأكل منه هو وامرأته ومن ضيفهما حتى كالوه فأخبروك، فقلت له: (لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم)(3)

ومثل ذلك ما حصل لأم سليم، فقد حدثت عن بعض ما رأته من بركاته، فقالت: كانت لنا شاة فجمعت من سمنها في عكة فملأتها العكة، وبعثت بها مع الجارية فقالت: أبلغي هذه العكة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم، قال: (فرغوا لها عكتها)، ففرغت العكة فدفعت إليها فانطلقت وجاءت أم سليم، فرأت العكة ممتلئة تقطر فقالت: أليس قد أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ فقالت: قد فعلت فإن لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله ﷺ فانطلقت أم سليم، فقالت: يا رسول الله إني بعثت إليك بعكة سمن قال: (قد فعلت جاءت بها)، قالت: والذي بعثك

1() رواه الطبراني.

2() رواه أحمد وأبو نعيم في الدلائل.

3() رواه مسلم.

بالهدى ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنا، فقال لها رسول الله ﷺ: (يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه، كلي وأطعمي)، فجاءت إلى البيت، ففتت لنا كذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا شهرا أو شهرين(1).

ومثل ذلك ما حصل يوم الخندق، حيث أطعمت ــ سيدي ـ جيش المسلمين الذي كان يحفر يوم الخندق من طعام فئة قليلة من الناس، وقد حدث صاحب الوليمة جابر بن عبد الله عن ذلك، فقال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق، فعرضت فيه كذانة، وهي الجبل، فقلنا: يا رسول الله، إن كذانة قد عرضت فيه، فقال رسول الله ﷺ: (رشوا عليها)، ثم قام رسول الله ﷺ، فأتاها، وبطنه معصوب بحجر من الجوع، فأخذ المعول أو المسحاة، فسمى ثلاثا ثم ضرب، فعادت كثيبا أهيل، فقلت له: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل، ففعل، فقلت للمرأة: هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق، فطحنت الشعير وعجنته، وذكت العناق وسلختها، وخليت من المرأة، وبين ذلك، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فجلست عنده ساعة ثم قلت: ائذن لي يا رسول الله، ففعل، فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن عندي طعيما(2) لنا، فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك، فقال: (وكم هو؟) فقلت: صاع من شعير، وعناق، فقال للمسلمين جميعا: (قوموا إلى جابر)، فقاموا، فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق على صاع شعير وعناق، فدخلت على امرأتي أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشفت عني غما شديدا.. فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذي ودعيني من اللحم، فجعل رسول الله ﷺ يثرد، ويغرف اللحم، ثم يخمر هذا، ويخمر هذا، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ: (كلي وأهدي)، قال جابر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع(3).

1() رواه أبو يعلى والطبراني وأبو نعيم وابن عساكر.

2() طعيما: تصغير طعام، أي طعاما قليلا.

3() رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي في السنن الكبرى والدارمي في سننه وأبو عوانة وابن أبي شيبة في المصنف والفريابي في دلائل النبوة والأصبهاني في دلائل

ومثل ذلك ما حصل في نفس الغزوة، فقد حدثت ابنة بشير بن سعد، قالت: دعتني أمي فأعطتني جفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: يا بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بغدائهما، قالت: فأخذته ثم انطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ فقال: (تعالي ما معك؟) فقلت: يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، فقال: (هاتيه)، فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأها، ثم أمر بثوب فبسط، ثم دعا بالتمر فصبه فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: (اخرج في أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب)(4)

ومثل ذلك ما حدث به أنس، قال: جئت رسول الله ﷺ فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم قد عصب بطنه بعصابة، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة فأخبرته فدخل على أمي فقال: هل من شيء؟ قالت: نعم عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه وإن جاء معه بأحد قل عنهم، فقال لي أبو طلحة: قم قريبا من رسول الله ﷺ فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه، فقل: أبي يدعوك، ففعلت ذلك، فلما قلت: أبي يدعوك، قال لأصحابه: (يا هؤلاء تعالوا) ثم أخذ بيدي فشدها، ثم أقبل بأصحابه حتى إذا دنونا من بيتنا أرسل يدي فدخلت وأنا حزين لكثرة من جاء به، فقلت: يا أبتاه، قد قلت لرسول الله ﷺ الذي قلت لي فدعا أصحابه، وقد جاء بهم، فخرج أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إنما أرسلت أنسا يدعوك وحدك ولم يكن عندي ما يشبع من أرى، فقال: رسول الله ﷺ ادخل، فإن الله سيبارك فيما عندك، فدخلت فقال: (اجمعوا ما عندكم ثم قربوه) فقربنا ما كان عندنا من خبز وتمر، فجعلناه على حصير فدعا فيه بالبركة، فقال: (يدخل علي ثمانية) فأدخلت عليه ثمانية، فجعل كفه فوق الطعام، فقال: (كلوا وسموا الله عز وجل) فأكلوا من بين أصابعه حتى شبعوا، ثم أمرني أن أدخل عليه ثمانية فما

النبوة وغيرهم.

4() رواه ابن سعد، وانظر: ابن كثير في البداية 6 / 133.

زال ذلك أمره حتى دخل عليه ثمانون رجلا كلهم يأكل حتى يشبع، ثم دعاني وأمي وأبا طلحة، فقال: (كلوا)، فأكلنا حتى شبعنا، ثم رفع يده، فقال: يا أم سليم، أين هذا من طعامك حين قدمتيه؟ فقالت: بأبي أنت وأمي، لولا أني رأيتهم يأكلون لقلت: ما نقص من طعامنا شيء(1).

ومثل ذلك ما حصل في غزوة تبوك، حيث أطعم رسول الله ﷺ جيش المسلمين من طعام فئة قليلة من الناس، فقد حدث ابن عباس قال: لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران في عمرته بلغ أصحابه أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العجف، فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقة لأصبحنا غدا ندخل على القوم وبنا جمامة فقال: (لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم)، فجمعوا له، وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تولوا، وحثا كل واحد منهم في جرابه (2).

هذه ـ سيدي ـ بعض بركاتك المرتبطة بالطعام، والذي كان الناس في ذلك الحين في أشد الحاجة إليه.. وهكذا كانت بركاتك على المياه، والتي كانت الحاجة إليها، لا تقل عن الحاجة إلى الطعام، خاصة في تلك البلاد المجدبة.. فقد رويت من بركاتك فيها الكثير، فقد كانت بركاتك تتنزل على الآبار الجافة، فتتحول إلى آبار مملوءة ماء.. وتتنزل على المياه المالحة، فتتحول إلى مياه عذبة.. وتتنزل على المياه القليلة، فتتحول إلى مياه كثيرة.

ومما يروى في ذلك بركاتك التي تنزلت على بئر بتبوك، فقد قلت لأصحابك حين جئتها: (إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي).. وكانت العين جافة ليس فيها إلا القليل من الماء.. فقمت، وغسلت وجهك ويديك بمائها، ثم أعدته فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قلت لمعاذ: (يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماء ههنا قد ملئ جنانا)(3)

ومثل ذلك ما حصل ببئر بقباء، فعن يحيى بن سعيد أن

1() رواه مسلم (143 / 2040) والبيهقي في الدلائل 1 / 963 وأبو نعيم في الدلائل 148 وانظر المجمع 8 / 306.

2() رواه أحمد231.

3() رواه أحمد.

أنس بن مالك آتاهم بقباء، فسأله عن بئر هناك، قال: فدللته عليها فقال: لقد كانت هذه، وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح، فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذنوب، فسقى، فإما أن يكون توضأ منه، وإما أن يكون تفل فيه، ثم أمر به، فأعيد في البئر، فما نزحت بعد(1).

ومثل ذلك ما حصل ببئر باليمن، فعن زياد بن الحارث الصدائي قال: قلت: يا رسول الله، إن بئرنا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان في الصيف قل ماؤها وتفرقنا عن مياه حولنا، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا، فيسقينا ماؤها، فنجتمع عليها، ولا نتفرق.. فدعا رسول الله ﷺ بسبع حصيات، فعركهن بيده، ودعا فيهن، ثم قال: (اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل)، قال: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا أن ننظر إلى قعرها (يعني البئر)(2)

ومثل ذلك ما حصل ببئر أنس، فعن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ منزلنا، فسقيناه من بئر كانت لنا في دارنا، وكانت تسمى في الجاهلية (النزور) فتفل فيها فكانت لا تنزح بعد.

ومثل ذلك ما حصل ببئر الحديبية، فعن البراء وسلمة بن الأكوع قالا: قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية، ونحن أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على شفيرها، قال البراء: وأتي بدلو فيه ماء فبصق ودعا، ثم قال: (دعوها ساعة) وقال سلمة: فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم بالماء، فسقينا واستقينا)(3)

ومثل ذلك ما حصل ببئر غرس بالمدينة، فعن أنس قال: جئنا مع رسول الله ﷺ إلى قباء، فانتهى إلى بئر غرس، وإنه ليستقي منه على حمار، ثم نقوم عامة النهار ما نجد فيها ماء، فمضمض في الدلو ورده، فجاشت بالرواء(4).

ومثل ذلك ما ورد في الروايات الكثيرة من بركاتك على الماء القليل، فيتحول إلى كثير، ومن تلك الروايات ما حدث به

1() رواه البيهقي.

2() البيهقي في الدلائل: 4 / 127، 5 / 357 وابن كثير في البداية: 5 / 84.

3() رواه البخاري ومسلم، وفي غير روايتيهما من طريق ابن شهاب فأخرج سهما من كنانته فوضعه في قليب بئر ليس فيه ماء فروى الناس حتى ضربوا بعطن خيامها.

4() رواه ابن سعد.

أنس قال: كنا في سفر مع رسول الله ﷺ، فقال لأبي قتادة: (أمعكم ماء؟)، قلت: نعم، في ميضأة فيها شيء من ماء، قال: (ائت بها)، قال: فأتيته بها، فقال لأصحابه: (تعالوا مسوا منها فتوضئوا)، وجعل يصب عليهم، فتوضأ القوم، وبقيت جرعة، فقال: (يا أبا قتادة، احفظها، فإنها ستكون لها نبأ).. فذكر الحديث إلى أن قال: فقالوا: يا رسول الله، هلكنا عطشنا، انقطعت الأعناق، فقال: (لا هلك عليكم)، ثم قال: (يا أبا قتادة، ائت بالميضأة)، فأتيته بها، فقال: (أطلقوا لي قدحي)، فحللته فأتيته به، فجعل يصب فيه ويسقي الناس، فازدحم الناس، فقال رسول الله ﷺ: (أيها الناس أحسنوا الملأ، فكلكم سيروى)، فشرب القوم، وسقوا دوابهم وركابهم وملئوا ما كان معهم من إداوة وقربة ومزادة حتى لم يبق غيري وغيره، قال: (اشرب يا أبا قتادة)، قلت: اشرب أنت يا رسول الله، قال: (ساقي القوم آخرهم شربا)، فشربت، وشرب بعدي، وبقي في الميضأة نحو مما كان فيها وهم يومئذ ثلاثمائة(1).

ومثل ذلك ما حصل في غزوة هوازن، فقد حدث سلمة بن الأكوع، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فأصابنا جهد شديد فأتى بشيء من ماء في إداوة، فأمر بها فصبت في قدح، فجعلنا نتطهر حتى تطهرنا جميعا(2).

ومثل ذلك ما حدث به عمران بن حصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس العطش، فنزل ثم دعا عليا، ورجلا آخر، فقال: (اذهبا فابغيا الماء فإنكما ستجدان امرأة بمكان كذا وكذا معها بعير عليه مزادتان فأتيا بها)، فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، فقالا لها: انطلقي إذا، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين(3)، فانطلقا فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه بالحديث، قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين،

1() رواه مسلم.

2() الدلائل للبيهقي (4 / 119).

3() ذكر العلماء حسن الأدب الذي حوى عليه قول علي ورفيقه لها لما قالت: الصابئ: (هو الذي تعنين)، لأنه لو قالا لها: لا، لفات المقصود، أو نعم، لما حسن بهما، إذ فيه طلب تقرير ذلك، فتخلصا أحسن تخليص.

فمضمض في الماء، وأعاده في أفواه المزادتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق الغرارتين، ونودي في الناس: (اسقوا، واستقوا)، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وأيم الله، لقد أقلع عنها، وإنها ليخيل إليها أنها أشد ملئة منها حيث ابتدأ فيها فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لها طعاما)، فجمعوا لها ما بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما، فجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، وقالوا لها: تعلمين ما رزأنا من مائك شيئا، ولكن الله هو الذي أسقانا.. فجاءت المرأة أهلها فأخبرتهم، فقالت: جئتكم من أسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقا، قال: فجاء أهل تلك القرية، حتى أسلموا كلهم(1).

ومثل ذلك ما وردت به النصوص الكثيرة المتواترة(2) من نبع الماء من بين أصابعك الشريفة، وفي مرات متعددة كثيرة.. ومن تلك الروايات ما حدث به أنس، قال: كان رسول الله ﷺ بالزوراء، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، فحين بسط يده فيه فضم أصابعه فأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ فتوضأوا من عند آخرهم.. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلثمائة(3).

وحدث به عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ليس معنا ماء، فقال: اطلبوا من معه فضل ماء، فأتى بماء فوضعه في إناء، فوضع يده فيه، فجعل الماء يجري ــ وفي لفظ يخرج من بين أصابعه ــ ثم قال: (حي على الطهور المبارك، البركة من الله) فتوضأوا وشربوا، قال عبد الله: كنا

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2() قال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت عنه من طرق كثيرة يفيد عمومها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة العظيمة من غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

ونقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى ﷺ بالعصا فتفجرت منه المياه، لان خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم.

3() رواه البخاري ومسلم.

نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)(1)

وحدث جابر بن عبد الله قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان الذي بين يديه ركوة يتوضأ منها وجهش الناس نحوه، قال: (مالكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا ماء نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قال سالم: قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة(2).

وحدث أبو قتادة، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير في الجيش إذ لحقهم عطش كاد يقطع أعناق الرجال والخيل والركاب عطشا، فدعا بركوة فيها ماء فوضع أصابعه عليها، فنبع الماء من بين أصابعه، فاستقى الناس، وفاض الماء حتى رووا خيلهم وركابهم، وكان من العسكر اثنا عشر ألف بعير، والناس ثلاثون ألفا، والخيل اثنا عشر ألف فرس(3).

وحدث ابن عباس قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، وليس في العسكر ماء، فقال رجل: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟.. قال: نعم فأتي بإناء فيه شيء من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء وفتح أصابعه، قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابع النبي ﷺ فأمر بلالا ينادي في الناس بالوضوء المبارك(4).

وحدث أبو ليلى الأنصاري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش، فشكونا إليه، فأمره بحفرة فوضع عليها

1() رواه النسائي والبيهقي وابن مردويه.

2() رواه البخاري ومسلم، وهذا الحديث لا يتعارض مع ما ورد في حديث البخاري عن البراء بن عازب قال: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ماء فبلغ رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فمضمض وبخ في البئر، فمكث غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وصررنا ركائبنا.

لأن كل حديث له محل خاص، بالإضافة إلى أن بركته ﷺ المرتبطة بالبئر مستمرة باقية في البئر بخلاف نبع الماء بين أصابعه الذي غطى حاجة الصحابة للماء في ذلك المحل فقط.

وقد جمع ابن حجر بينهما، فقال: ويحتمل أن يكون الماء لما انفجر من بين أصابعه ويده في الركوة وتوضئوا كلهم وشربوا أمر حينئذ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر، فتكاثر الماء فيها.

وفي هذا الجمع بعض التكلف، وأولى منه القول بتعدد الحوادث، وهو ما ذكره ابن حبان.

3() رواه أبو نعيم.

4() رواه أحمد والبزار.

نطعا، ووضع يده عليها، وقال: (هل من ماء؟)، فأتي بماء، فقال لصاحب الإداوة: (صب الماء على كفي، واذكر اسم الله)، ففعل.. قال أبو ليلى: (فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ حتى روى القوم وسقى ركابهم)(1)

هذه ـ سيدي ـ بعض بركاتك المرتبطة بالطعام والمياه وحاجات الناس الأساسية.. أما بركاتك على الأرواح والقلوب والعقول.. فلا يمكن عدها ولا إحصاؤها.. فأنت شمسها ونورها ودفؤها وحنانها.. ولولاك لظلت قابعة في الظلمات، ممتلئة بالجفاء والغلظة والقسوة.

لقد راح بعض المشاغبين من قومي ـ سيدي ـ يسخرون من تلك الأحاديث، مع كثرتها، وتواترها، ورواية مثلها عن سائر الأنبياء عليهم السلام.. وقد توهموا أن ذلك مناف مع ما تقتضيه قوانين الطبيعة من أن الموزون والمكيل ثابتان لا يتغيران من دون أن يضاف إليهما، أو ينقص منهما.

وكان في إمكانهم أن يطبقوا هذا الحكم على النار التي أراد أعداء إبراهيم عليه السلام حرقه بها.. فهل يجدون في القوانين التي يدرسونها أن النار برد وسلام، أم أنها حر وحرق؟

هم لم يعلموا أن النار والتمر واللبن والماء وكل شيء بيد الله.. وأنه الخالق الذي يزيد ما يشاء، وينقص ما يشاء.. فالملك له، والأمر له.. فإن شاء أن يزيد ما يشاء زاد.. وإن شاء أن ينقص ما شاء ينقص.

وقد روي في الحديث عن أبي رافع قال: أهديت لنا شاة، فجعلتها في قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا يا أبا رافع؟) فقلت: شاة أهديت لنا، فطبختها في القدر، فقال: (ناولني الذراع) فناولته ثم قال: (ناولني الذراع يا أبا رافع)، فناولته ثم قال: (ناولني الذراع الآخر) فقلت: يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنك لو مسكت لناولتني ذراعا ما دعوت به)(2)

فنسألك ـ سيدي ـ ونتوسل بك إلى الله، نحن الذي حرمنا أن نعيش في ذلك العهد المبارك، أن تمن علينا بأن تزورنا كل حين، لتملأ بيوتنا وحياتنا بما ملأت به بيوت وحياة من تشرفوا

1() رواه الطبراني وأبو نعيم.

2() رواه أحمد وأبو يعلى.

بزيارتك لهم..

نحن نعلم ـ سيدي ـ أنك لست بعيـدا عنـا، ولكنـا البعيـدون عنك.. فنتوسل بك إلى الله أن يهذب نفوسـنا، ويطهـر أخلاقنـا، ويسمو بأرواحنا حتى تصبح صالحة للقائك وزيارتك وبركاتك..

ونتوسل بك ـ سيدي يا رسول الله ـ إلى الله أن يعيد لهذه الأمة رشدها، فتعود إليـك، وتسـتنير بهـديك، لتنـال بركاتـك، فلا يمكنها أن تراها من دون أن تتبعك، أو تسير خلفك، أو تلغي كل شيء يحجبها عنك.. إنك أنت الوسيلة العظمى.. وصاحب الجـاه العظيم.

المستبصر المتوسم

سيدي يا رسول الله.. يا من جعلك الله بشرا لكن لا كالبشر.. فأنت في صورتك مثلهم.. لكن حقيقتك العظمى تجاوزتهم بكثير.. فقد غلبت روحك جسدك.. وبصيرتك بصرك.. وحقيقتك مظهرك.. فلذلك كنت ترى ما لا يرون.. وتسمع ما لا يسمعون.. ولك من القدرات والطاقات ما لا يملكون..

وكيف لا تكون كذلك ـ سيدي ـ وأنت الذي تطهرت نفسك طهارة كاملة، وسمت روحك سموا رفيعا.. وأوتيت العصمة المطلقة.. فلذلك رقا جسدك إلى ما رقت إليه روحك، فصرت روحا تمشي على الأرض.. ونورا يمشي بين الناس.

ولولا ذلك سيدي ما أطقت تحمل الوحي الذي كان يتنزل عليك.. وما أطقت أن تكون واسطة بين الغيب والشهادة.. والأرض والسماء.. والملك والملكوت.. فقد كنت تملك كلا الجانبين.. فأنت معهم في عالم الملك.. لكنك كنت تبصر وبدقة ما حولك من عالم الملكوت.

لقد عبر عن كل هذه المعاني قوله تعالى، وهو يصفك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [فصلت:6].. فأنت بشر مثلهم في الصورة.. لكن تلك الخاصية العظيمة التي أهلتك لتنزل الوحي عليك، جعلتك مختلفا عنهم تماما..

إن مثل ذلك ـ سيدي ــ مثل شخصين أحدهما أصم أبكم أعمى مقعد فيه كل العاهات والآفات.. وآخر سليم منها جميعا، وفي قمة القوة والشباب، وفي قمة الصلاح والتقوى، وفي قمة العلم والخبرة.. فكلاهما بشر.. لكن الفرق بينهما عظيم جدا..

فهكذا الأمر بالنسبة لسائر البشر مقارنة بك.. فهم لا يرون ما ترى، ولا يسمعون ما تسمع.. ولا تتحرك أرجلهم للعوالم التي يمكن أن تسير إليها، وفي أي لحظة تريد..

لذلك كنت أهلا لتنزل الوحي عليك، والذي لا يطيقه غيرك.. وقد قال تعالى في شأنك: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (المزمل: 5)، فإن كان هذا القول ثقيلا بالنسبة لك، فكيف هو بالنسبة لغيرك.

وقد روي في الحديث أن بعضهم سألك، فقال: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقلت له: (أسمع صلاصيل، ثم أسكت

عند ذلك، فما من مـرة يـوحى إلي إلا ظننت أن نفسـي تفيض)(1)

لقد وصف المعايشون لـك ــ سـيدي ــ بعض مظـاهر ثقـل ذلـك الـوحي، فقـال: (أنـزل على رسـول اللـه ﷺ وفخـذه على فخذي، فكادت فخذه ترض فخذي)(2)

وقال آخر: (رأيت الوحي يـنزل على رسـول اللـه ﷺ، وإنـه على راحلته، فترغو وتفتل يديها حـتى أظن أن ذراعهـا تنقصـم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه عن ثقـل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان)(3)

وقـال آخـر: (كنت آخـذ بزمـام ناقـة رسـول اللـه ﷺ حين أنـزلت عليـه سـورة المائـدة فكـاد ينكسـر عضـدها من ثقـل السورة)(4)

وقال آخر: (كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الـوحي تربـد لذلك جسده ووجهه وأمسك عن أصحابه ولم يكلمه أحــد منهم)(5)

وهذه الطاقة العظيمة التي آتاك الله جعلتك ترى الحقـائق رأي العين، فكنت تصــفها عن عيــان لا عن تأمــل أو تــدبر أو تفكير.. وفرق كبير بين من يرى الحقـائق، وبين من يبحث عنهـا بعقله الذي قد يختلط معه الوهم والوساوس.. وهذا هـو الفـرق بين علمك وعلوم الفلاسفة التي تلقوها بالتأمل، لا بالعيان.

وقـد وردت الروايـات الكثـيرة المتـواترة تخـبر عن ذلـك، وتخـبر معهـا عن توسـمك واستبصـارك ورؤيتـك للحقـائق رأي العين، وكأنها جسد أمامك تراه ولا يرونه..

ومن تلك الروايات ما يذكر رؤيتك للملائكة وكـثرتهم، وقـد قلت في ذلك ـ مخاطبا أصحابك ـ: (هل تسـمعون مـا أسـمع؟)، فقالوا: ما نسمع من شيء، فقلت: (إني لأسمع أطيط السّـماء، وما تلام أن تئطّ، ما فيها موضـع قـدم إلا وعليـه ملـك سـاجد أو

1() رواه أحمد (2/222)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن سعد.

4() رواه أحمد والطبراني.

5() رواه أبو داود الطيالسي.

قائم أو ملك راكع) (1)

وقلت لهم: (أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وعليه ملك واضع جبهته ساجدا لله، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنّساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله)

ومنها رؤيتك للفتن، وأنواعها، وكيفية تسللها لحياة الناس، وقد حدث بعض أصحابك عنك في ذلك فقال: أشرف رسول الله ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: (هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر)(2)

وحدث آخر، فقال: رفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فقال: (سبحان الذي يرسل عليهم الفتن إرسال القطر)(3)

ومنها رؤيتك للدنيا، وزخرفتها، وزينتها، وقد ذكرت ذلك، فقلت: (أتتني الدنيا خضرة حلوة ورفعت لي رأسها وتزينت لي، فقلت: لا أريدك، فقالت: إن انفلت مني لم ينفلت مني غيرك) (4)

ومنها رؤيتك لأحوال البرزخ، فقد روي أنك مررت على قبرين، فقلت: (إنهما ليعذبان، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة بين الناس)(5)

ومنها رؤيتك للجنة والنار، وقد ورد في الحديث أن الشمس كسفت، فصليت، ثم حمدت الله تعالى، وأثنيت عليه، ثم قلت: (ما من شيء لم أكن رأيته الا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار)(6)

وفي حديث آخر قلت: (إني رأيت الجنة، فتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع)(7)

وفي حديث آخر قلت: (إنه عرضت علي الجنة، فرأيت

1() رواه ابن أبي حاتم والطبراني والضياء في «المختارة» وأبو الشيخ

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه الطبراني.

4() رواه أحمد في الزهد عن عطاء بن يسار مرسلا.

5() رواه مسلم.

6() رواه البخاري.

7() رواه البخاري.

قطوفها دانية، فأردت أن أتناول منها شيئا، وعرضت علي النار فيما بينكم وبيني كظلي وظلكم فيها)(1)

وحدث بعض أصحابك قال: صليت مع رسول الله ﷺ يوما فأطال القيام، وكان إذا صلى لنا خفف، فرأيته أهوى بيده ليتناول شيئا ثم ركع بعد ذلك، فلما سلم رسول الله ﷺ قال: (علمت أنه راعكم طول صلاتي وقيامي)، قلنا: أجل، يا رسول الله، وسمعناك تقول: (أي رب، وأنا فيهم؟)، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، ما من شيء وعدتموه في الآخرة إلا قد عرض علي في مقامي هذا حتى عرضت علي النار، فأقبل منها حتى حاذى خبائي هذا فخشيت أن تغشاكم فقلت: أي رب، وأنا فيهم؟ فصرفها الله تعالى عنكم، فأدبرت قطعا كأنها الزرابي فنظرت نظرة، فرأيت عمر بن حرثان بن الحارث أحد بني غفار متكئا في جهنم على قوسه، ورأيت فيها الحميرية صاحبة القطة التي ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي سقتها)(2)

ومنها رؤيتك للرحمة والسكينة وإجابة الدعاء، وقد حدث بعض أصحابك أنه كان في جماعة يذكرون الله عز وجل فمررت بهم، فكفوا إعظاما لك، فقلت لهم: (ما كنتم تقولون؟ فأني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها) (3)

وحدث آخر أنك كنت في مجلس، فرفعت طرفك إلى السماء، ثم خفضته؛ فسئلت عن ذلك، فقلت: (إن هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله، فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالقبة فلما دنت تكلم رجل منهم بباطل، فرفعت عنهم) (4)

وحدث آخر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى المسجد وفيه قوم رافعو أيديهم يدعون، فقال: (ترى ما بأيديهم ما أرى؟) قلت: وما بأيديهم؟ قال: (بأيديهم نور)، قلت: ادع الله عز وجل أن يرينيه، فدعا الله عز وجل فأرانيه(5).

وحدث آخر قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر،

1() رواه الحاكم.

2() رواه الطبراني باسناد جيد.

3() الحاكم (1/ 122)

4() رواه ابن أبي حاتم وابن عساكر مرسلا، السيوطي في الدر المنثور 1/ 317 وانظر كنز العمال (1879)

5() رواه البخاري في التاريخ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (10/ 3)

فلما أصبح أتاك، فذكر لك ما رآه، فقلت له: (تلك السكينة تنزلت للقرآن) (1)

وقد كنت ـ سيدي ـ لا تكتفي بذلك، بل إنك، ولأجل إزالة الشكوك وزرع الطمأنينة في قلوب أصحابك وغيرهم ـ تخبرهم عما يحصل من أحداث فور وقوعها، مع بعدها عنهم.

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك بقتل أصحابك يوم الرجيع، فقد روي أن خبيبا ـ وكان أحد الشهداء ـ قال: (اللهم اني لا أجد من يبلغ رسولك عني السلام)، فقلت حينها: (وعليك السلام) فسألك أصحابك عن سر سلامك، فقلت: (خبيب قتلته قريش) (2)

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك بقتل أصحابك يوم بئر معونة، ففي الحديث أن أناسا جاءوا إليك، فقالوا: ابعث معنا رجالا يعلموننا القرآن والسنة، فبعثت إليهم سبعين رجلا من الأنصار، فتعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا، فقلت حينها: (إن إخوانكم قتلوا، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أن قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا) (3)

وقد حصل هذا في مرات كثيرة، وقد حدث بعض أصحابك، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فلم نلبث الا قليلا، حتى قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (إن إخوانكم قد لقوا المشركين واقتطعوهم فلم يبق منهم أحد، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد رضينا ورضي عنا ربنا، فأنا رسولهم إليكم، إنهم قد رضوا ورضي عنهم)(4)

وهكذا حدث الرواة عن إخبارك بقتل من قتل في غزوة مؤتة يوم أصيبوا، فقد روي أن بعضهم قدم عليك بخبرهم، فقلت له: (إن شئت فأخبرني، وان شئت أخبرتك)، قال: أخبرني يا رسول الله به، فأخبرته خبرهم كلهم ووصفته لهم، فقال: والذي بعثك بالحق، ما تركت من حديثه حرفا لم تذكره، وان أمرهم لكما ذكرت، فقلت: (إن الله رفع لي الأرض حتى

1() أخرجه البخاري 6/ 170، 232 ومسلم في كتاب صلاة المسافرين (241)

2() رواه البخاري والبيهقي وأبو نعيم.

3() رواه مسلم والبيهقي.

4() رواه البيهقي.

رأيت معتركهم)(1)

وهكذا حدث الرواة عن إخبارك بأن خيبر تفتح على يد علي بن أبي طالب، فقد حدث بعضهم أنك قلت يوم فتح خيبر: (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه)، فلما أصبحت قلت: (أين علي بن أبي طالب؟) قالوا: يشتكي عينيه، قلت: (فأرسلوا إليه)، فأتي به إليك، فنفثت في عينيه، ودعوت له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، ثم سار إلى المعركة، وفتح الله عليه (2).

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ـ سيدي ـ بل كنت تخبرهم عما تحدثه به في نفوسهم، وبكل دقة، فيمتلئون من ذلك عجبا، ويمتلئون معه إيمانا ويقينا وطمأنينة..

ومما يروى في ذلك ما حدث به بعضهم من أنه كان معك إذ جاءك رجل فقال: من أنت؟ قلت: (أنا نبي)، قال: وما نبي؟ قلت: (رسول الله)، قال: متى تقوم الساعة؟ قلت: (غيب ولا يعلم الغيب الا الله)، قال: أرني سيفك، فأعطيته سيفك، فهزه الرجل، ثم رده عليك، فقلت له: (أما انك لم تكن تستطيع ذلك الذي أردت)، قال: وقد كان(3).

ثم قلت مخاطبا أصحابك: (إن هذا أقبل، فقال: آتيه، فاسأله ثم آخذ السيف، فاقتله)(4)

وحدث آخر أنك كنت مع أصحابك، وهم يتحدثون بإعجاب شديد عن رجل من المجاهدين معك، لكنك قلت لهم: (أما انه من أهل النار)، فاتبعه بعضهم ليرى سر قولك، فإذا به يرى الرجل يجرح جرحا شديدا، جعله يأخذ سيفه، ويقتل نفسه به، منتحرا، فرجع إليك، وهو يقول: أشهد أنك رسول الله، فقلت: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة)(5)، ثم قلت لبلال: (يا بلال، قم فأذن: لا يدخل الجنة الا مؤمن، وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)

1() رواه البيهقي وابو نعيم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه الحاكم وصححه والطبراني.

4() رواه الطبراني.

5() رواه البخاري.

وحدث آخر قال: استأذن عيينة بن حصين رسول الله ﷺ أن يأتي أهل الطائف يكلمهم، لعل الله تعالى أن يهديهم فأذن له، فأتاهم، فقال: تمسكوا بمكانكم، فوالله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لو حدث به حدث لتمسن العرب عز ومنعة، فتمسكوا بحصنكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع فقال له رسول الله ﷺ: (ماذا قلت لهم؟) قال: قلت لهم، وأمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم من النار، ودللتهم إلى الجنة، قال: (كذبت، بل قلت لهم: كذا وكذا)، فقال: صدقت، يا رسول الله، أتوب إلى الله تعالى وإليك من ذلك)(1)

وحدث آخر قال: لما أجمع رسول الله ﷺ على المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع رسول الله ﷺ عليه من المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة من مزينة، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، وخرجت به، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فقال: (أدركا امرأة قد كتب معها حاطب كتابا إلى قريش يحذرهم)(2)

لم يكن ذلك ــ سيدي ــ شيئا عرضيا تبديه بين الحين والحين، بل كان شيئا عاديا، تفعله كل حين، حتى تزيد من حولك طمأنينة، ومن الأمثلة على ذلك أن رجلا جاءك، فقال: يا رسول الله إن أبي يريد أن يأخذ مالي، فدعوت أباه، فقلت له: (قلت في نفسك شيئا لم تسمعه أذناك؟) قال: لا يزال يزيدنا الله تعالى بك بصيرة ويقينا، نعم، فقلت: هات، فأنشأ يقول:

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت حتم مؤجل

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيناي تهمل

فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

1() رواه البيهقي وأبو نعيم.

2() رواه ابن إسحاق والبيهقي.

جعلت جـــزائي غلظـــة كأنـــك أنت المنعم
وفظاظة المتفضل
فليتـك إذ لم تـرع حـق فعلت كمـــا الجـــار
وحق المحسن المتفضل

فبكيت، ثم عـاتبت ابنـه على سـلوكه، وقلت لـه: (أنت ومالك لأبيك)(1)

ومن الأمثلة على ذلك إخبارك أصحابك عن أسئلتهم قبل أن يسألوها، ومما يرى في ذلك ما حدث به وابصة بن معبد قال: جئت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن أدع من البر والإثم شيئا الا سألته عنه، فأتيته، وهو في عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرني بعضهم، فقال: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ؟ فقلت: إني أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا وابصة، ادن مني وابصة)، فأدناني حتى كنت بين يديه، فقال: (أتسألني أم أخبرك؟) فقلت: لا، بل تخبرني، قال: (جئت تسأل عن البر والإثم؟) قلت: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري وقال: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)(2)

وحدث آخر أنك كنت جالسا في مسجد الخيف، فأتاك رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف فلما سلما، قالا: جئناك، يا رسول الله، لنسألك، فقلت لهما: (إن شئتما أخبرتكما بما تسألاني عنه فعلت، وان شئتما أن أسكت وتسألاني فعلت(، فقالا: لا، أخبرنا يا رسول الله، نزدد إيمانا أو نزدد يقينا.. فقلت لأحدهما: (جئت تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه، وعن طوافك بالبيت، ومالك فيه، وركعتيك بعد الطواف، ومالك فيهما، وعن طوافك بالصفا والمروة، وعن وقوفك بعرفة، ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك، ومالك فيه، وعن طوافك، ومالك فيه)، فقال الرجل: (والذي بعثك بالحق عن هذا جئت أسألك!)، ثم أجبته عن أسئلته وأسئلة رفيقه (3).

وحدث آخر قال: أصابنا جوع ما أصابنا مثله قط فقالت لي

1() رواه البيهقي.

2() رواه أحمد وأبو يعلى.

3() رواه مسدد والبزار والاصبهاني البيهقي.

أختي: اذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فجئت، فإذا هو يخطب، فقال: (من يستعفف، يعفه الله، ومن يستغن يغنه اللـه)، فقلت في نفسي: واللـه لكأنما أردت بهذا.. لا جرم لا أسأله شيئا، فرجعت إلى أختي فأخبرتها، فقالت: أحسنت، فلما كان من الغد، فاني والله لأتعب نفسي تحت الأجم، إذ وجدت من دارهم يهود فابتعنا به، وأكلنا منه وجاءت الدنيا، فما من أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا(1).

وحدث آخر قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، وكان الوحي إذا جاء لم يخف علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما رفع الوحي قال: (يا معشر الأنصار، قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، كلا فما أسمي إذن كلا، إني عبد الله ورسوله المحيا محياكم، والممات مماتكم)، فأقبلوا يبكون، وقالوا والله، ما قلنا الا للضن باللـه ورسوله، فقال: (إن اللـه ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم)(2)

وحدث آخر عن نفسه، وهمه بقتلك، فقال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، قلت في نفسي: أسير مع قريش إلى هوازن، بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب غرة من محمد فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا أتبع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة.. فلما اختلط الناس، اقتحم رسول اللـه ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: (ادن مني)، فدنوت فمسح صدري، وقال: (اللهم أعذه من الشيطان)، فوالله لهو من حينئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب اللـه ما كان بي، فقال: (يا شيبة، الذي أراد الله بك خيرا مما أردت بنفسك؟) ثم حدثني بما أضمرت في نفسي! فقلت: بأبي أشهد أن لا اله الا اللـه، وأنك رسول الله، استغفر لي يا رسول اللـه، قال: (غفر اللـه

1() رواه البيهقي.

2() رواه مسلم والطيالسي والبيهقي.

لك)[1]

وحدث آخر عنك أنك مررت وأصحابك بامرأة، فذبحت لكم شاة، واتخذت لكم طعاما، فدخلت وأصحابك، فلما رأيتهـا قلت: (هذه ذبحت بغير إذن أهلها)، فقالت المرأة: يا رسول الله، إنا لا نحتشم من آل معاذ، نأخذ منهم، ويأخذون منا[2].

ولم يكن الأمر قاصرا على ذلك، ومـع أصـحابك فقـط، بـل كنت تنطق بأمثال ذلـك أمـام المشـركين، وفي أشـد المواقـف حرجـا، ومن الأمثلـة على ذلـك إخبـارك لعمـك أبي طـالب بـأن الأرضة أكلت الصـحيفة الظالمـة الـتي كتبتهـا قـريش، فـانطلق يمشي مع جماعة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد، وهو حافل من قريش، فلما رأوهم أنكروا ذلـك، وظنـوا أنهم خرجـوا من شدة البلاء، فقال عمك أبو طالب: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فـأتوا بصـحيفتكم الـتي تعاهـدتم عليهـا، فلعلـه أن يكون بيننا وبينكم صلح.

وقد قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يـأتوا بهــا، فــأتوا بصــحيفتهم معجــبين بهــا لا يشــكون أن قومــك سيسلموك لهم، فوضعوها بينهم، فقال أبـو طـالب: إنمـا أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف، إن ابن أخي قـد أخـبرني أن اللـه تعالى برئ من هذه الصحيفة التي في أيـديكم، ومحـا منهـا كـل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم، وقطيعتكم إيانـا، وتظـاهركم علينا بالظلم، فإن كان ما قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فوالله، لا يسلم أبدا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كـان بـاطلا رفعنـاه إليكم، فقتلتم أو اسـتحييتم، قـالوا: قـد رضـينا بالـذي تقـول، ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما ذكرت لهم؛ فلما رأوا ذلك قالوا: والله إن كان هذا قط الا سحر من صـاحبكم! فقـال أبـو طـالب ومن معه: (إن الأولى بالكذب والسحر غيرنا، فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليـه من قطيعتنـا أقـرب إلى الجبت والسـحر، ولـولا أنكم اجتمعتم على السـحر لم تفسـد صـحيفتكم، وهي بأيـديكم طمس الله تعالى ما كان فيهـا من اسـم لـه ومـا كـان من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟)[3]

1() رواه ابن سعد وابن عساكر.

2() رواه احمد برجال الصحيح.

3() رواه البيهقي وأبو نعيم وابن سعد وابن عساكر.

ومن الأمثلة على إخبارك قريشا ليلة الإسراء بصفة بيت المقدس، مع أنك لم تكن رأيته قبل ليلة الإسراء، فقد روى المحدثون أنك بعد أن أسري بك مر عليك أبو جهل، فجاء حتى جلس إليك، فقال لك كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قلت: نعم، قال: ما هو؟ قلت: أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قلت: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قلت: نعم.. فلم ير أن يكذبك مخافة أن تجحده الحديث إن دعا قومه إليك، فقال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ قلت: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي.. فانفضت إليك المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليك، فقال: حدث قومك بما حدثتني، فقلت: (إني أسري الليلة بي)، قالوا: إلى أين؟ قلت: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قلت: نعم.. فصاروا بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا، وضجوا وأعظموا ذلك.. فقالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه.

فأخذت تنعت لهم بناءه وهيئته، كما كان بالفعل.. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.. ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا.. فقلت: (أتيت على عير بني فلان بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية).. وقد حصل كل ما أخبرتهم عنه، لكن ذلك لم يزدهم إلا جحودا وعتوا.

هذه ــ سيدي ــ قطرة من بحر استبصارك وتوسمك، والطاقات التي وهبك الله، والتي لا يمكن لعقولنا البسيطة أن تدركها.. ولا أن تتخيلها.. وأنى لها ذلك، ولا يعرف النبي إلا النبي..

فنسألك ــ سيدي ــ ونتوسل بك إلى الله أن يرزقنا من البصيرة ما نرى به عيوبنا وآفاتنا والفتن المحدقة بنا.. وأن يعيننا على مواجهتها ومقاومتها وصدها.. وأن يجعلك قائدنا وهادينا في ذلك.. فلا يمكننا أن نقتحم لجة الفتن من دونك.. ولا يمكننا أن نتحقق بالنجاة، ولا بالفوز من دون أن نركب سفينتك.

ونسألك ـ سيدي ـ ونتوسل بك إلى الله أن يرينا مراشد

أمورنا، حتى لا نقع في أي ضلالة، ولا أي فتنـة.. وأن يجعلنـا من المستبصـرين المتوسـمين الـذين لا يكتفـون برؤيـة الظـواهر، ويغفلـون عن البـواطن.. أو يكتفـون برؤيـة الحاضـر دون أن يستشرفوا المستقبل.. إنـك صـاحب الوسـيلة العظمى، والجـاه العظيم.

المبجل المكرم

سيدي يا رسول الله.. يا من تحققت فيك العبودية بأجمل صورها وأكملها، ولذلك نلت من فضل الله وتكريمه وتبجيله ما لم يحظ بمثله بشر، بل ما لم يحظ بمثله مخلوق.. يا من آتاك الله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود في الدنيا والآخرة.. فلا يذكر الله إلا وتذكر معه، ولا يطاع إلا بطاعتك، ولا ينال أحد رضوانه قبل أن ينال رضاك.. فأنت باب الهداية ومفتاحها، وعين الرحمة وسراجها.. ومن أراد الدخول على الحق بعيدا عنك لم يجد إلا الضلالة، ومن أراد أن يسير على السراط المستقيم بعيدا عن سنتك لم يجد إلا الهاوية.

لقد تأملت ـ سيدي ـ أصناف التكريمات التي كرمك بها ربك، فوجدت أنك حقيق بكل ذلك التكريم.. فأنت الذي صبرت على كل أنواع البلاء والسخرية والاحتقار في سبيل أن تبلغ دين ربك، من غير أن تطلب أي أجر، ولا أن تنتظر أي ثناء..

لقد كان حاديك إلى ذلك كله طاعتك لربك، وصدق عبوديتك، وحرصك على الخلق الذين كلفت بدعوتهم وهدايتهم.. ولذلك كنت تقابل كل أنواع السخرية والاستهزاء بكل أنواع الصبر والرضا.. فلا تنزعج، ولا تتضجر.

لقد ذكر الله تعالى بعض ذلك الأذى الذي كنت تتعرض له، فقال: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(الأنبياء: 36)، وقال:﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا ﴾(الفرقان: 41)

ولذلك كان من مقتضيات اسم الله [الشكور] أن تقابَل السخرية بالثناء، ويقابَل الاستهزاء بتلك المكانة الرفيعة التي بوأك الله إياها.. بل أمر المؤمنين جميعا أن يبوئوك إياها، فقال ـ مخاطبا لك ـ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفتح:8 - 9)

ونهى أن يقدم أحد رأيه عليك، أو يعقب على ما تذكره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات:1)

ونهى أن يتجاوز أحد حدودك، أو يتساهل في طاعتك، فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء:13)

واعتبر طاعتك سببا للفوز بالدرجات العالية، فقال: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: 69)

واعتبر طاعتك مثل طاعته؛ فقال: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: 80)

واعتبر اتباعك السبيل الوحيد لإثبات محبة الله، فقال: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:31)

ونهى أن ترفع الأصوات أمام حضرتك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:2)

ونهى أن تدعى كما يدعى سائر الناس، أو يعتبر دعاؤك كدعائهم، فقال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:63)

وأمر فوق ذلك كله بتعظيمك وتوقيرك وبرك، فقال مخاطبا لك: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 8، 9]

ونهى عن كل أشكال الإذية لك، وتوعد من يفعل ذلك باللعنة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57]

وكل هذا ـ سيدي ـ ليتحقق الابتلاء بك للخلق، ليتميز الصادقين الذي يرتضون اصطفاء الله لك، ويسلمون له، والذين يستكبرون، ويفعلون مثلما فعل إبليس عندما أبى السجود لآدم، فنزلت عليه اللعنات.. ذلك أنه آمن بالله، ولكنه ـ لسوء طالعه ـ راح يناقش الله فيما لا مجال له فيه.. ولم يعلم أن الله: ﴿ يَخْلُقُ

مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (القصص:68)

ولو أنه نظر إلى هذا الكون الواسع بعين الحكمة والبصيرة، لرأى كيف ميز الله بعض خلقه عن بعض وفق عدله وحكمته ورحمته وعلمه بخلقه.. فلذلك جعل منهم من يستحقون رئاسة معينة على سائر البشر، لأنهم في جسم الإنسانية كالدماغ والقلب في جسم الإنسان.

ولو أنه نظر بعين العدالة الإلهية، لعلم أن هؤلاء المختارين لم يختاروا جزافا، وإنما بناء على مقتضيات العدالة الإلهية التي وضعتهم في كير الاختبار، فنجحوا فيه، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]

ولذلك رد الله تعالى على أولئك المشاغبين المجادلين الذين يتوهمون أن تكريم الله مناف لعدالته، فقال: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (الأنعام: 124)

لقد قال الله ذلك لمن أنكروا أن يتفضل الله عليك ـ سيدي ـ كما تفضل على إخوانك من سائر الأنبياء والمرسلين.

لقد كان أولئك الغلاظ الجاحدون، وهم في كل الأزمنة، ينظرون باحتقار إليك، لأنهم كانوا يتصورون أن الرسول الذي يختاره الله ينبغي أن يكون من تلك الفئة المستكبرة الغنية الوجيهة، كما قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف: 31)، أو كما يتصور اليهود أن الله تعالى لابد أن يختار رسولا من بني إسرائيل، وكأن بني إسرائيل وحدهم خلق الله، وغيرهم خلق الشيطان.

لقد رد الله على هذا الاحتقار، فقال: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (الزخرف:32)

ولهذا كله نص القرآن الكريم، وبنصوص قطعية صريحة على وجوب تكريمك، واعتبره علامة الإيمان والصدق، واعتبر خلافه علامة الشك والريب والكفر..

وليس في تكريم الخلق لك ـ سيدي ـ أي زيادة لك، فأنت

الغني بربك عن كل شيء.. وإنما هو زيادة لنا.. فالقلب لا يعشق إلا من يعظمه، ويراه في قمة قمم الكمال، فإن غض منه أو احتقره، لم يستطع أن يحبه.. وإن لم يحبه لم يستطع أن يستفيد منه.

ولذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة والسلام عليك، حتى نتملئ بتعظيمك وذكرك كل حين.. فتكون صلاتنا لك هي معراج قربنا منك.. وقربنا منك هو معراج قربنا من الله.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

لقد علمت ــ سيدي ــ ومن خلال التجربة والواقع أن انشغال القلب واللسان بالصلاة عليك أكبر مصدر للسعادة والراحة والطمأنينة.. وهي بمثابة انفتاح القلب على عالم الملكوت.. أو بمثابة فتح النوافذ إلى تلك العوالم المقدسة التي يخفيها الدنس الذي نعيشه.. ولذلك كان تكريم الله تعالى لك بالصلاة عليك تكريما لنا أيضا.. فمن يصلي عليك، سينال لا محالة صلاتك عليه، بل صلاة الله عليه.

فبالصلاة عليك نذكرك.. وبذكرك نتعرف عليك.. وبالتعرف عليك نحبك.. وبحبك نصل إليك.. وبالوصول إليك ننال كل خير في الدنيا والآخرة.

إن المكروب منا يصلي عليك، فيجد من لذة الأنس بك ما يشغله عن كربه.

وإن صاحب الحاجة منا تنسد في طريقه الأبواب، فإذا صلى عليك فتح الله عليه مغاليقها.

لقد عرفنا هذا بالتجربة، وعرفناه من خلال أحاديثك الكثيرة التي تحثنا فيها على الصلاة عليك، لعلمك بأنها طريق من طرق الوصول.. ومن سار في الطريق وصل.

لقد أخبرتنا أن أول جزاء ينالـه من صلى عليك أن يصلي الله عليه، فقلت: (من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات)(1)

وقلت: (إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه

1() رواه أحمد.

عشرًا؟ قلت: بلى)(1)

بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك كله، فقد قلت تحكي عن الله تعالى: (من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه)(2)

هل هناك ـ سيدي ــ تكريم أعظم من هذا التكريم.. الله خالق كل شيء، ومالك كل شيء، وملك كل شيء يقول لنا هذا، ويربط صلاته وسلامه علينا بصلاتنا وسلامنا عليك.

ولم يكن ذلك هو الجزاء الوحيد لمن يتشرف بالصلاة عليك، فقد ورد في الحديث أن الملائكة لا تزال تصلي على من يصلي عليك، فقد قلت: (من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر)(3)

وأخبرت أن الذين يصلون عليك هم أولى الناس بك، وبشفاعتك يوم القيامة، فقلت: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة)(4)

وقلت: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة من الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة)(5)

وقلت ـ تعلمنا كيفية الصلاة عليك ـ: (من قال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم، شهدت له يوم القيامة بالشهادة وشفعت له)(6)

1() رواه أحمد وابن حبان، وفي رواية أخرى رواها أحمد والنسائي عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر، قال:« أجل، أتاني آت من ربي عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها»

2() رواه أحمد والحاكم..

3() رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه.

4() رواه الترمذي وابن حبان.

5() رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

6() رواه البخاري.

وأخبرت عن الأجور الكثيرة بأنواعها المختلفة التي أعـدها الله لمن يصلون عليك، فقلت: (من صلى علي من أمـتي صـلاة مخلصًا من قلبه صلى الله عليه بها عشـر صـلوات، ورفعـه بهـا عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنـه بهـا عشـر سيئات)(1)

ولم يكن جزاء الصلاة عليك تلك الأجور الأخروية فقط، بـل أخبرت أن الله تعالى يجازي المصلين عليك بأجور الدنيا أيضـا.. وكيف لا يفعـل ذلـك.. واللـه رب الـدنيا والآخـرة.. فقـد ورد في الحديث أن بعض أصحابك قال لك: كم أجعـل لـك من صـلاتي؟ فقلت له: (ما شئت)، قال: الربع؟ قلت: (مـا شـئت، فـإن زدت فهو خير لك)، قال: النصف؟ قلت: (ما شئت وإن زدت فهو خير لك)، قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قلت: (إذا يُكفي همك، ويغفر ذنبك)(2)

وفي حديث آخر قال لك بعضهم: يا رسـول اللـه أرأيت إن جعلت صـلاتي كلهـا عليـك؟ فقلت لـه: (إذا يكفيـك اللـه تبـارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك)(3)

ولهذا اعتبر الصالحون الصلاة عليك مفتاحا لإجابـة الـدعاء، وقـد قـال الإمـام علي: (كـل دعـاء محجـوب حـتى يصـلى على محمد ﷺ)(4)

ولهذا علمتنا ـ سيدي ـ كيف نمـزج في دعائنـا بين مطالبنـا الشخصية وبين الصلاة عليـك، ففي الحـديث أنـك سـمعت رجلا يدعو في صلاته من غير أن يمجـد اللـه تعـالى أو يصـلي عليـك، فقلت: (عجـل هـذا)، ثم دعوتـه، وقلت لـه: (إذا صـلى أحـدكم، فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلي علي، ثم يـدعو بعد بما شاء)(5)

وحـدث بعضـهم عن نفسـه قـال: (كنت أصـلي والنـبي ﷺ، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصـلاة على النـبي ﷺ ثم

1() رواه النسائي والطبراني والبزار.

2() رواه أحمد والترمذي والحاكم.

3() رواه أحمد.

4() رواه الطبراني موقوفا ورفعه بعضهم.

5() رواه أبو داود والترمذي أحمد والنسائي والحاكم، وفي رواية: فليبدأ بتحميـد ربـه عز وجل.

دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: (سل تعطه، سل تعطه)(6)

فيا سيدي يا رسول الله.. يا صاحب الجاه العظيم، والمقام الرفيع، والمكانة الشريفة الرفيعة، أسألك وأتوسل بك إلى اللـه أن يجعلـني من المعظمين لـك بقلـوبهم وعقـولهم وأرواحهم وجميـع لطـائفهم، حـتى تكـون أنت سـراجي الـذي يضـيء لي، ومعراجي الذي أرقى به.

وأسألك ــ سـيدي ــ أن يصـير لسـاني مـدمنا على الصـلاة عليك، وقلبي مستشعرا لمحبتك والشـوق إليـك.. وحيـاتي كلهـا وفق هديك وسنتك، حتى ألقاك وأنت راض عـني.. فمن رضـيت عنه سعد في الدنيا والآخرة.

6() رواه الترمذي.

المحبوب المعظم

سيدي يا رسول الله.. يا من جعل الله محبتك مدرسة للقلوب الطاهرة ترتقي بها إلى سلم الكمالات، وتنال بها أعلى الدرجات، وتتنزل عليها بها أعظم البركات.. فلا يمكن لقلب يريد أن يتطهر من أدرانه، ولا لنفس تريد أن ترتقي في سلم كمالاتها، ما لم تجعل حبك وتعظيمك معراجها ووسيلتها وسلمها.

لا أزال أذكر سيدي كل حين قولك لبعض أصحابك عندما ذكر لك حبه لك، وأنه يحبك أكثر من كل شيء إلا من نفسه.. لقد قلت له حينها: (لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك)(1)

لقد نصحته ـ سيدي ـ أعظم نصيحة.. فلا يمكن لأحد يحب نفسه أكثر منك أن ينال حظه من الكمال، لأن حبه لنفسه سيجعله سجينا لها.. وأما حبه لك، فسيرتقي به إلى أعلى درجات الكمال.

ولذلك أمرنا الله تعالى بحبك، وأن نجعله الأعلى والأوفى، فلا نقدم عليه أي حب آخر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:24)

وهكذا كنت تقول مخاطبا أصحابك: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)(2)

لقد رحت سيدي إلى موازين العقول أبحث فيها عن سر أمر الله لنا بحبك، وسر تقديم حبك على حب غيرك؛ فوجدت أن ذلك الحب المقدس الذي نتوجه به إليك هو المفتاح الذي نصل به إلى جميع أبواب السعادة، ومن أقصر طرقها.

ذلك أن الحب يستدعي الذوبان والفناء في المحبوب.. فتنتقل بذلك صفاته إلى المحب، ومن غير معاناة.. لأن حرارة الحب وحدها تتولى ذلك.

1() رواه أحمد والبخاري.

2() رواه البخاري.

فلهذا حين يتوله أي شخص بحبك ـ سيدي ـ فإن كل تلك الخصال الجميلة التي وصفك الله بها، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، تنتقل إليه بمقدار حبه لك.. فإن كان حبك قد طغى عليه، ففنى عن نفسه، فإنه يتحقق بتلك المشاكلة التي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير:7).. وحينها ينال أعظم سعادة، ذلك أن الله تعالى ـ بعدله ورحمته ـ يضم القرناء بعضهم إلى بعض.. كما حدثت عن ذلك بقولك: (يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله)(1)، بل كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]

ولذلك كانت المعية نصيب كل من أحبك.. فلا يكفي أن يطيعك المرء من غير محبة.. ذلك أنه لا يتحقق له كمال الاتباع إلا بها..

ولذلك كان أسعد الناس بك أكثرهم حبا لك، ذلك أنهم ـ كما تشرفوا بصحبتك لقلوبهم في الدنيا ـ فسيتشرفون بصحبتك في الآخرة.

وقد ورد في الحديث أن رجلا أتاك، فقال: (لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك، فما أصبر عنك حتى أنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك)، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: 69)(2)

وقد قلت سيدي في ذلك مبشرا كل محبيك: (من أحبني كان معي في الجنة)(3)

وقلت لرجل سألك: (متى الساعة؟): (ما أعددت لها؟)، فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني

1() انظر هذه النصوص في: الدر المنثور:8/429.

2() رواه الطبراني، وابن مردويه.

3() رواه الاصبهاني في الترغيب.

أحب الله ورسوله، فقلت له: (أنت مع من أحببت)(1)

ولذلك كان الصادقون من أصحابك ومن بعدهم من أكثر الناس محبة لك، وقد روي أن امرأة من الأنصار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد معك، لكنها لم تأبه لهم جميعا، بل كانت تسأل عنك، فلما قيل لها: هو بحمد الله تعالى كما تحبين، قالت: أرونيه.. فلما رأتك، قالت: (كل مصيبة بعدك جلل)(2)

وهكذا فعل حبيبك زيد بن الدثنة الذي أخرجه المشركون من الحرم ليقتلوه، فقال له عدوك اللدود أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا بمقامك تضرب عنقه، وأنت في أهلك، فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا (3).

وهكذا فعل ذلك الصحابي الذي قال لك: (يا رسول اللّه! إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلتّ الجنة رفعتَ مع النبييّن، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك)(4)

وقال لك آخر، وهو ثوبان مولاك، فقد أتاك، وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقلت له: (يا ثوبان ما غير لونك؟) فقال: (يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا)

وقد بشرت هؤلاء جميعا، بأنهم مع من أحبوا.. وكذلك بشرت من بعدهم.

وقد ظل ـ سيدي ـ هذا الحب ساريا في أمتك من بعدك، تتأدب به، وتترقى في مدارج الكمال بسببه.. حتى أن هناك من

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه ابن إسحاق والبيهقي.

3() رواه البيهقي.

4() رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة)

يضحي بكل شيء في سبيل أن يظفـر برؤيـة منـك.. وقـد قـال بعضهم يذكر شوقه إليك:

كيـــف لا تســـكب وهي من قبـــل أن

كيف لا تذهل العقـول أنفسُ العاشـــقين

يـا رسـول الإلـه إني لـك واللـه شـائق

يـا رسـول الإلـه في لـك مـني تحيـة

يا رسول الإله شوقي زائـد والغـرام فيـك

يـا رسـول الإلـه إني ونزيل الكـرام ليس

سـيدي.. يـا رسـول اللـه.. لسـنا نحن المسـلمين ممن تشرفوا باتباعك فقط من أحبوك وعظموك وعرفوا قدرك.. بـل هناك الكثير من العقلاء في العالم الذين امتلأوا إعجابا وتعظيمـا لك، ولو أنهم لم يؤمنوا أو لم يعلنوا إيمانهم، ذلك أنهم رأوا فيك كل صفات الكمال التي يحلمون أن يروها في الإنسان.

لقد ذكر [مايكل هارت] في كتابه (العظماء مائة وأعظمهم محمد ﷺ) سبب اختياره لك، لتكـون على قمـة عظمـاء العـالم، وعلى مدار التاريخ، فقال: (إن اختياري لمحمد ليقود قائمة أكثر أشخاص العالم تأثيراً في البشرية قد يدهش بعض القـراء، وقـد يعترض عليه البعض.. ولكنه كان (أي محمد) الرجل الوحيـد في التاريخ الذي حقـق نجاحـاً بـارزاً في كـل من المسـتوى الـديني والدنيوي)

وقال عنك: (كان محمـد الرجـل الوحيـد في التـاريخ الـذي نجح في مهمته إلى أقصى حد، سواء على المستوى الــديني أم على المستوي الزمني)(1)

أما شاعر الألمان الأكبر [يوهان غوته]، فقد قال في ديوانه (الديوان الشـرقي للشـاعر الغـربي) يخـاطب أسـتاذه الـروحي الشاعر حافظ شيرازي، معـبرا عن أشـواقه إليـك: (أي حافـظ! إن أغانيك لتبعث السكون... وإنني مهاجر إليك بأجناس البشــرية المحطمــة، لتحملنــا في طريــق الهجــرة إلى المهــاجر الأعظم

1() (المائة الأوائل) مايكل هارت (33)

محمد بن عبد الله)[1]

وقال: (إننا أهل أوربة بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد، وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد)

وقال عنك الأديب الروسي [ليو تولستوي] والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه: (أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء.. ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقي والمدينة)

وقال عنك الشاعر الفرنسي الشهير [الفونس دي لامارتين]: (أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟!.. ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟!.. إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق)[2]

وقال عنك الفيلسوف الإنجليزي [جورج برناردشو]: (لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي)

1() الديوان الشرقي للشاعر الغربي، غوته ص(31)

2() السفر إلى الشرق، ص(277).

(1)

وقال عنك ـ مبديا إعجابه بشخصك العظيم ـ: (إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها)

وقال: (لو تولى العالم الأوربي رجل مثل محمد لشفاه من علله كافة، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشرائط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافق الحياة، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا غداً وقد بدا يكون مقبولاً لديها اليوم، ما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد يحل مشاكل العالم)

وقال عنك المؤرخ الأمريكي [ويليام جيمس ديورانت] في موسوعته [قصة الحضارة]: (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم)

وقال عنك مؤرخ العرب والحضارة الإسلامية اللبناني المسيحي [فيليب حتّي]: (لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة.. هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ)

وقال عنك عالم اللاهوت السويسري [د. هانز كونج]: (محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة)(2)

وقال عنك المؤرخ البريطاني [أرنولد توينبي]: (الذين

1() عن (موسوعة مقدمات المناهج والعلوم) أنور الجندي (8 / 211)

2() عن (الإسلام نهر يبحث عن مجرى) الدكتور شوقي أبو خليل (15).

يريدون أن يدرسوا السيرة النبوية العطـرة يجـدون أمـامهم من الأسفار مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة أي نـبي من أنبيـاء الله الكرام)

وقال عنك المستشرق الإيطالي [الكونت كاتيـاني]: (أليس الرسـول جـديراً بـأن تقـدَّم للعـالم سـيرته حـتى لا يطمسـها الحاقدون عليـه وعلى دعوتـه الـتي جـاء بهـا لينشـر في العـالم الحب والسـلام؟! وإن الوثـائق الحقيقيـة الـتي بين أيـدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجـد مثلهـا، فتـاريخ عيسـى ومـا ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل)

وقال عنك الطبيب والمؤرخ الفرنسي [غوسـتاف لوبـون]: (نعـرف مـا فيـه الكفايـة عن حيـاة محمـد، أمـا حيـاة المسـيح فمجهولـة تقريبـاً، وإنـك لن تطمـع أن تبحث عن حياتـه في الأناجيل)

وذكـر الكـاتب والصـحفي والمستشـرق [كولونيـل رونالـد فيكتور كورتيناي] نفس المعنى حين قال: (لا نعرف إلا شـذرات عن حياة المسيح، أما في سيرة محمد فنعرف الشـيء الكثـير، ونجد التاريخ بدل الظلال والغموض)

وقـال عنـك المستشـرق والمهنـدس الإنكلـيزي [دونالـد روتليدج هيل]: (لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة اللـه في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعيـة، وأحـل النظـام والتناسـق والطاعـة والعـزة في أقـوام لا تعـرف غـير الفوضى)

وقال عنك رجل الدولة والسياسي الألماني [بسمارك]: (يا محمد أنا متـأثر جـداً إذ لم أكن معاصـراً لـك! إن البشـرية رأت قدوة ممتازة مثلك مرة واحدة، وأنا أعظمك بكمال الاحترام)

وقـال عنـك المـؤرخ والشـاعر الإنجلـيزي [كريسـتوفر دارسون]: (إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئاً بفعـل فـرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد)

وقال عنك البـاحث الفرنسـي [كليمـان هـوارت]: (لم يكن محمد نبياً عادياً، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، لأنـه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بـني قومـه ... نـبي ليس عاديـاً من يقسـم أنـه (لـو سـرقت فاطمة ابنته لقطع يـدها)! ولـو أن المسـلمين اتخـذوا رسـولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً)

هذه سيدي قطـرات من بحـر كلمـات الـذين أعجبـوا بـك، وأحبوك، ولو لم يكونوا على دينك.. ومن ذا يملك أن يعرفك، ثم لا يمتلئ قلبـه حبـا لـك... وهـل هنـاك من لا يسـتطيع أن يحب الزهرة الجميلة التي تفوح بكل أنواع الأريج العطر؟.. وأين منك الزهـرة وأريجهـا وجمالهـا.. وهـو لا يسـاوي قطـرة من بحـر جمالك؟

لقد رأيت ــ سـيدي ــ كـل العقلاء مجمعين على تعظيمـك، حتى أولئك الذين ناصبوك العداء في فترة ما من حياتهم، وقبـل أن يعرفوك.. لكنهم بمجرد أن عرفـوك، راحـوا يعتـذرون إليـك، مثلما فعل الفيلسوف الفرنسي [فولتير] الـذي أعلن توبتـه عن مواقفـه منـك ومن دينـك.. لكن المغرضـين والحاقـدين تناسـوا أقواله بعد توبته، وراحوا ينشرون أقواله قبل توبته.

لقد ذكر في توبته سبب بغضه لك وأنه كان ضـحية لأفكـار سائدة خاطئة كـان ينشـرها الحاقـدون عنـك، فقـال: (قـد هـدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقـة، ولكن يبـدو أنـه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

وقـال في قاموسـه الفلسـفي: (أيهـا الأسـاقفة والرهبـان والقسيســون إذا فُــرض عليكم قــانون يحــرم عليكم الطعــام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقـة.. إذا فُـرض عليكم إعطـاء 2،5 بالمائـة من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمـور ولعب الميسـر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحيانـاً، فجـاء من يحـذف أربـع عشـرة من هـذا العـدد، هـل يمكنكم الادعـاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات؟!)

وقال: (لقد قـام الرسـول بـأعظم دور يمكن لإنســان أن يقوم به على الأرض.. إن أقل ما يقال عن محمد أنه قـــد جـاء بكتاب وجاهـد، والإسـلام لم يتغـير قـط، أمـا أنتم ورجـال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)

سيدي يا رسول الله.. لسنا نحن البشر.. ولا الملائكـة.. ولا كـل أولئـك العقلاء من العـوالم الأخـرى.. وحـدهم من عرفـوا قدرك، وبجلوك وكرموك.. بل إن كل شيء فعل ذلك.. فقد بث الله محبتك في قلوب الكائنات.. حـتى تلـك الـتي نتـوهم أنـه لا عقول ولا قلوب لها.. وهل يعقل أن يخلق الله شيئا من دون أن يكون له عقل أو قلب؟.. لكن كبرياءنـا جعلنـا نتـوهم أن العقـل

لن يكـون إلا في جهـاز عصـبي، والقلب لن يكـون إلا في جهـاز دوري.

لقد ورد في الروايات الكثيرة المتواترة الـتي لا يـؤمن بهـا إلا الصادقون في إيمانهم، أولئك الذين يعلمون أن قدرة اللــه لا يعجزهـا شـيء.. مـا يـدل على أن الأرض بحجارتهـا وأشـجارها وحيواناتها، كانت تظهر لك ـ سيدي ـ كل ألوان المـودة والحـنين والحب..

فقد أخبرت عن جبـل أحـد، وحبـك لـه، وحبـه لـك، فقلت: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(1)

ووصلنا بأسانيد كثيرة(2) أنك كنت تخطب إلى جـذع نخلـة، فاتخذ لك منبر بدله، فلمـا فـارقت الجـذع، وغـدوت إلى المنـبر الذي صنع لك حن لك كمـا تحن الناقـة، فـنزلت إليـه، فضـممته إليــك، فســكن، وقلت عنــه: (لــو لم أحتضــنه، لحن إلى يــوم القيامة) (3)

لقد عبر الشاعر عن ذلك الحـنين الـذي أبـداه لـك الجـذع، فقال:

يحن الجـــــذع من و يذرف دمعه حزناَ
و يجهش بالبكـــــاء لفقد حـديثكم وكـذا
فمـالي لا يحن إليـك و حلمي أن أقبـــل
و أن ألقاك في يـوم و ينعم نــاظري من
فداك قرابتي وجميع و أبـــذل مهجـــتي
تدوم سعادتي ونعيم إذا بذلت حياتي في

1() رواه البخاري ومسلم.

2() روى القصـة جمـع من الصـحابة، منهم أبي بن كعب رواه الشـافعي وأحمـد وابن ماجه والبغوي وابن عساكر،ومنهم أنس بن مالك رواه أحمد والترمذي وصححه وأبو يعلى والبزار وابن ماجه وأبو نعيم من طرق على شرط مسـلم، ومنهم بريـدة، رواه الـدارمي، وجابر بن عبد الله، رواه أحمد والبخاري والترمذي، والمطلب بن أبي وداعة، رواه الزبـير بن بكار، وأبو سـعيد الخـدري، رواه عبـد بن حميـد وابن أبي شـيبة، وأبـو يعلى وأبـو نعيم بسند على شـرط مسـلم، وعائشـة رواه الطـبراني والـبيهقي، وأم سـلمة رواه أبـو نعيم والبيهقي بإسناد جيد.. كلها روي بألفاظ متقاربة المعنى وهو بذلك حديث متواتر المعنى.

3() الدارمي (39) و (1563)، وابن ماجه (1415)، والطبراني (12841)، والبيهقي 2/558.

حبيب القلب عذرا لا فحبي لا يحق في
ذنوبي أقعدتني عن و أطمح أن أُقرب
لعل محبتي تسمو فتجبر ما تصدع من

وقد ورد ـ سيدي ـ من الروايات ما يدل على شهادة تلك الكائنات التي نتهمها بعدم العقل لك في الوقت الذي جحدك فيه الغافلون قساة القلوب، ففي الحديث عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل أحد إلا شد عليه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه، فقال النبي ﷺ: (هاتوا خطامه)، ودفعه إلى صاحبه ثم التفت إلى الناس، فقال: (إنه ليس شئ بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الانس والجن)(1)

وقد روي بأسانيد مختلفة(2)، أنك مررت على قوم قد اصطادوا ظبية فشدوها على عمود فشطاط فقالت: يا رسول الله أخذت ولي خشفان في البرية، وقد انعقد اللبن في أخلافي، فلا هو يذبحني فأستريح، ولا يدعني، فأرجع إلى خشفي في البرية)(3)، فقلت لها: (إن تركتك ترجعين؟)، قالت: (نعم، وإلا عذبني الله عذابا أليما)، فقلت: (أين صاحب هذه؟)، فقال القوم: نحن يا رسول الله، فقلت: (خلوا عنها حتى تأتي خشفها ترضعها وترجع إليكم)، فقالوا: من لنا بذلك؟ قلت: (أنا)، فأطلقوها فذهبت فأرضعت ثم رجعت إليهم فأوثقوها، فمررت بهم فقلت: (أين صاحب هذه؟)، قالوا: هوذا نحن يا رسول الله، فقلت: (تبيعونها؟)، فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقلت: (خلوا عنها)، وأطلقوها، فذهبت، وهي تضرب برجلها فرحا وتقول: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله)

سيدي.. لقد رأيت من قومي من يضحك على مثل هذا..

1() رواه مسلم.

2() رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم.

3() وفي رواية أنس: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فمررنا بخبأ أعرابي وإذا بظبية مشدودة إلى الخباء، فقالت: يا رسول الله، إن هذا الاعرابي اصطادني.

ولست أدري ما الذي يضحكه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 17 -ـ 19]؛ فهل كان سليمان عليه السلام أعلم منك بلغة هذه الكائنات.. وهو ليس سوى تلميذ من تلاميذك.. فأنت سيد المرسلين، وأشرف خلق الله أجمعين.

ليس ذلك فقط سيدي.. بل إن الروايات الكثيرة تذكر شهادة الحصى لك.. وليس ذلك بمستغرب، وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]

لقد قال بعض أصحابك يحدث عن بعض ذلك: قدم ملوك حضرموت على رسول الله ﷺ وفيهم الاشعث بن قيس، فقالوا إنا قد خبأنا لك خبأ فما هو؟ قال: (سبحان الله إنما يفعل هذا الكاهن والكهانة في النار)، فقالوا: فكيف نعلم أنك رسول الله عز وجل، فأخذ رسول الله ﷺ كفا من حصى، فقال: (هذا يشهد أني رسول الله)، فسبح الحصى في يده، فقالوا: نشهد أنك رسول الله عز وجل(1).

وحدث آخر قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ فنسمع تسبيح الطعام، وهو يؤكل(2).

وحدث آخر قال: أتي رسول الله ﷺ بطعام ثريد، فقال: (إن هذا الطعام يسبح)، قالوا: يا رسول الله، وتفقه تسبيحه، قال: (نعم)، ثم قال لرجل: (ادن هذه القصعة من هذا الرجل)، فأدناها منه فقال: نعم، يا رسول الله، هذا الطعام يسبح فقال: (ادنها من آخر) وأدناها منه فقال: هذا الطعام يسبح ثم قال: (ردها) فقال رجل: يا رسول الله، لو أمرت على القوم جميعا، فقال: (لا إنها لو سكتت عند رجل لقالوا: من ذنب ردها)،

1() رواه أبو نعيم والحكيم الترمذي.

2() رواه البخاري ومسلم.

فردها(1).

وقـد ورد في الروايـات والأحـاديث الكثـيرة أنهـا لم تكن تكتفي بالشهادة لك فقط، وإنما كـانت تحييـك وتبجلـك وتسـجد تكريما لك، فعن الإمام علي قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكـة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبـل ولا شـجر إلا قـال: السلام عليك، يا رسول الله(2).

وعن بـرة بنت أبي تجـراة قـالت: إن رسـول اللـه ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتا ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجـر ولا شجر إلا قال: السـلام عليـك يـا رسـول اللـه، وكـان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا(3).

وذكر جابر بن عبد الله جملا جاء إليك، فلما كان قريبا منك خر ساجدا، فقلت: (يا أيهـا النـاس، من صـاحب هـذا الجمـل؟)، فقـال فتيـة من الأنصـار: هـو لنـا يـا رسـول اللـه، فقلت: (فمـا شأنه؟)، قالو: سنونا عليه عشرين سنة، فلما كبرت سنه، أردنـا نحره، فقلت: (تبيعونه؟)، فقالوا: هو لك يـا رسـول اللـه فقلت: (أحسنوا إليه حتى يأتيه أجله)، فقالوا: يا رسول الله، نحن أحـق أن نسـجد لـك من البهـائم، فقلت: (لا ينبغي لبشـر أن يسـجد لبشر ولو كان النساء لأزواجهن)(4)

هذا ـ سيدي ـ غيض من فيض ممـا منحـك اللـه من تعظيم وتبجيل وتكريم ومحبة في قلوب الكائنات.. وكيف لا يكـون لـك ذلك، وقـد قـال اللـه تعـالى في شـأنك: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشـرح:4).. فلا أحـد في العـالم يجحـد أن اسـمك هـو أشـهر الأسماء وأعظمها.. وأنه الوحيد الذي يردد كل يـوم وفي أوقـات متعددة في جميع أنحاء العالم.

فأسألك يا سـيدي أن يـردد قلـبي اسـمك كـل حين.. حـتى يصير فانيا فيك.. عاشقا لك.. مقبلا عليـك بكليتـه.. مسـلما لـك في كل شؤونه.. حتى يلقاك طاهرا نقيا جديرا بصحبتك والمعيـة معك.

1() رواه أبو الشيخ.

2() رواه الترمذي، وحسنه.

3() رواه ابن سعد.

4() رواه أحمد والبيهقي واللفظ له، ورجاله ثقات.

المتبتل العابد

سيدي يا رسول الله.. يا من تحققت فيك العبودية بأجمل صورها، وأكمل معانيها، فصرت نموذجها الأمثل، وفهرس مفرداتها الأعظم.. فمن أراد أن يكون عابدا لله، فأنت أسوته وقدوته وأنموذجه.. وليس عليه سوى أن يتبع هديك، ويسير على سنتك، لتكتمل له كل حقائقها وقيمها ومقاماتها ومنازلها.

لقد رحت سيدي أبحث عن سر ذلك الثناء العظيم الذي أثنى الله به عليك، وسر ذلك الكمال الذي حظيت به، فوجدت أنه محصور في عبوديتك.. فقد كنت عبدا حقيقيا لله.. ولم تكن فيك شائبة من عبودية لغيره.. ولذلك صرت مجلى للحقائق القدسية تتنزل عليك، ليراها غيرك من خلالك.. وصرت دليلا صافيا على الحق.. فمن أراد أن يعرفه، فليس عليه سوى أن يعرفك، ومن أراد أن يعبده، فليس عليه سوى أن يتبعك.

لقد عبر الله تعالى عن تلك العبودية التي امتلأت بها كل لطائفك المقدسة، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162، 163]

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى تلك العبودية التي امتلأت بها جوانحك، فصارت صلاتك ونسكك وحياتك ومماتك وكل تصرفاتك نابعة منها خاضعة لها.. لم تشرك في ذلك أحدا.. ولم ترتض بغير ربك بدلا.

ولذلك أطلق عليك ربك أشرف الألقاب.. لقب العبودية.. وفي أشرف المقامات والمحال، فقال ــ عند ذكرك في مقام تنزل القرآن الكريم ـ: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:23)، وقال: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (الفرقان:1)، وقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا (الكهف:1)، وقال: هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (الحديد:9)

وذكر عبوديتك لله في مقام دعوتك إليه، وخضوعك المطلق له، فقال: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ

عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجن: 19)

وذكر عبوديتك لله عند تكريمه لك برحلة الإسراء والمعراج، فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:1)

ولهذا، كنت ــ سيدي ــ تذكر للذين يطرونك ويمدحونك ويثنون عليك، بأن يذكروا هذا المقام الرفيع الذي هو أشرف المقامات، ولولاه لم يكن هناك مقام ولا منزلة ولا كرامة ولا رفعة، فقد ورد في الحديث عنك قولك: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله)(1)،

وقلت في حديث آخر مبينا فضل عبودية الله على كل شيء: (أتاني ملك إلى حجرة الكعبة، فقال: إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت كنت نبيا، ملكا وإن شئت نبيا عبدا، فقلت: نبيا عبدا)(2)

لقد تجلت ـ سيدي ـ عبوديتك لله في كل شيء.. ابتداء من حرصك على الشعائر التعبدية التي كنت تؤديها بخشوع عظيم.. بل بشوق عظيم.. وكنت تقضي معها معظم ليلك، بعد ذلك النهار الطويل الممتلئ بالمشاق والمتاعب.

وقد كان ذلك منك ـ سيدي ـ منذ الأيام الأولى من إرسال الله لك.. حينها أمرك بأن تقوم أكثر الليل، وأن تكثر من ذكره، وأن تتبتل إليه تبتيلا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 1 - 9]

وقد ظل ذلك ديدنك طيلة حياتك.. فويل لأولئك الذين راحوا يتهمونك بالاستغراق في الدنيا، وهم يرونك في نهارك داعية ومجاهدا وقائدا.. وفي ليلك متبتلا وقانتا وعابدا.. فهل يمكن لمن يكون هذا حاله أن يكون له ادنى اهتمام بالدنيا؟

1() رواه البخاري.

2() رواه البيهقي.

ليت أولئك الذين لا يعرفونك راحوا يقرؤون تلك الأوامر الإلهية الخاصة بك، والتي تأمرك بالقيام والتهجد لله، في الوقت الذي أعفيت أمتك فيه من هذا التكليف(1)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

وليتهم قرأوا معها شهادة الله لك بذلك، حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: 20]

وليتهم قرأوا معها تلك الشهادات الكثيرة التي شهد بها من عايشوك، ليعرفوا سر تفطر أقدامك، وأنت قائم وراكع وساجد لربك.

فقد حدث صاحبك حذيفة عن ليلة من ليالي تعبدك لربك، وكيف حاول أن يتأسى بك فيها، لكنه عجز عن ذلك، فقال: قام النبي ﷺ ليلة وهو يصلي في المسجد، فقمت أصلي وراءه يخيل إلي أنه لا يعلم، فاستفتح بسورة البقرة، فقلت: إذا جاء مائة آية ركع، فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا جاء مائتي آية ركع فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا ختمها ركع فختمها فلم يركع فلما ختم، قال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح آل عمران فقلت: إذا ختمها ركع فختمها ولم يركع وقال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح النساء، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فلم يركع وقال: (اللهم لك الحمد) ثلاثا ثم استفتح بسورة المائدة، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فركع فسمعته يقول: (سبحان ربي العظيم)، ويرجع شفتيه فأعلم أنه يقول غير ذلك، فلا أفهم غيره، ثم استفتح بسورة الأنعام، فتركته وذهبت(2).

وذكر موقفا آخر، فقال: أتيت رسول الله ﷺ ذات ليلة لأصلي بصلاته، فاستفتح الصلاة فقرأ قراءة ليست بالرفيعة ولا الخفيفة، قراءة حسنة يرتل فيها يسمعنا، قال: ثم ركع نحوا من سورة قال ثم رفع رأسه فقال: (سمع الله لمن حمده ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)، ثم قام نحوا من سورة، وسجد نحوا من ذلك حتى فرغ من الطول وعليه سواد

1() قال ابن كثير في [تفسيره (5/ 103)] واختلف في معنى قوله: ﴿نافلة لك﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبا في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي، رحمه الله، واختاره ابن جرير.

2() رواه عبد الرزاق.

من الليل(1).

وذكر موقفا آخر، فقال: لقد لقيت رسول الله ﷺ بعد العتمة، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أتعبد بعبادتك فذهب وذهبت معه إلى البئر، فأخذت ثوبه فسترت عليه، ووليته ظهري، ثم أخذ ثوبي فستر علي حتى اغتسلت، ثم أتى المسجد فاستقبل القبلة، وأقامني عن يمينه، ثم قرأ الفاتحة، ثم استفتح سورة البقرة، ولا يمر بآية رحمة إلا سأل الله، ولا آية تخويف إلا استعاذ، ولا مثل إلا فكر حتى ختمها ثم كبر، فرفع، فسمعته يقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) ويرد فيه شفتيه حتى أظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في ركوعه قريبا من قيامه، ثم رفع رأسه ثم كبر فسجد فسمعته يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى) ويرد شفتيه، فأظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في سجوده قريبا من قيامه، ثم نهض حين فرغ من سجدته فقرأ فاتحة الكتاب، ثم استفتح (آل عمران) لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا مثل إلا فكر، حتى ختمها، ثم فعل في الركوع والسجود كفعل الأول، ثم سمعت النداء بالفجر، قال حذيفة: فما تعبدت عبادة كانت علي أشد منها(2).

وذكر موقفا آخر، فقال: صليت مع رسول الله ﷺ من الليل فلما دخل في الصلاة قال: (الله أكبر، سبحان ذي الملك والجبروت والكبرياء والعظمة)، ثم قرأ (البقرة) قراءة ليست بالخفيضة ولا بالرفيعة، حسنة يرتل فيها ليسمعنا، ثم يركع، فكان ركوعه نحوا من قيامه، وكان يقول: (سبحان ربي العظيم) ثم يرفع رأسه فكان قيامه نحوا من ركوعه وهو يقول: (سمع الله لمن حمده)، ثم قال: (الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة)، فكان سجوده نحوا من قيامه، وكان يقول (سبحان ربي الأعلى) ثم رفع رأسه، وكان بين السجدتين نحوا من السجود وكان يقول: (رب اغفر لي، رب اغفر لي) حتى قرأ (البقرة) و(آل عمران) و(الأنعام)، و(النساء) و(المائدة) و(الأنعام) قال شعبة: لا أدري المائدة ذكر أو الأنعام(3).

1() رواه ابن أبي شيبة.

2() رواه الحارث بن أسامة.

3() رواه ابن مالك، وأبو الحسن بن الضحاك، وأبو نعيم.

وحدث صاحبك الوفي ابن مسعود عن موقف من مواقف تعبدك، فقال: (صليت مع رسول الله ﷺ ليلة، فلم يزل قائما، وأطال حتى هممت بأمر سوء)، قيل له: ما هممت؟ قال: (هممت أن أقعد وأذره)(1)

وقال: صليت مع رسول الله ﷺ في رمضان، فركع فقال في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) مثل ما كان قائما، ثم جلس يقول: (رب اغفر لي رب اغفر لي) مثل ما كان قائما ثم سجد فقال: (سبحان ربي الأعلي) مثل ما كان قائما، فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال إلى الغداة)(2)

وسئلت زوجتك الصالحة أم سلمة عن قراءتك وصلاتك، فقالت: (ما لكم ولصلاته وقراءته، كان يصلي العتمة ثم يسبح، ثم يصلي بعدها ما شاء الله من الليل ثم يرقد) وفي لفظ (كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ثم يصبح ثم نعتت قراءته، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا)(3)

وعنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يصلي ثم ينام قد ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح)(4)

وعنها قالت: كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام وكان يقرأ (بالبقرة) و(آل عمران) و(النساء) فلا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله تعالى ورغب إليه(5).

وحدث ابن عمك ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فصلى رسول الله ﷺ العشاء، ثم جاء فصلى أربع ركعات، ثم نام ثم قام فقمت عن يساره فجعلني عن يمينه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه، ثم خرج إلى الصلاة(6).

وحدث الوفي الصالح جابر بن عبد الله قال: كان رسول

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه النسائي.

3() رواه أحمد، والثلاثة، وأبو الحسن الضحاك.

4() رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي.

5() رواه أحمد.

6() رواه البخاري.

الله ﷺ يتسوك من الليل مـرتين، أو ثلاثـا، كلمـا رقـد فاسـتيقظ استاك وتوضأ، وصلى ركعتين أو ركعة(1).

وهكـذا ــ سـيدي ــ وردت الشـهادات الكثـيرة الدالـة على تبتلك وتعبـدك للـه، وفي كـل الأوقـات والأحـول حـتى في تلـك المواقف الصعبة التي اجتمع فيهـا أعـداؤك على حربـك.. لكنـك لم تكن تبالي بهم.. بل كنت تهـرع إلى الصـلاة، لترتـاح بهـا في جوار ربك، ولذلك كنت تقـول لبلال: (يـا بلال أقم الصـلاة أرحنـا بها)(2)

وحدث ابن عبـاس عنـك أنـك قلت: (قـال لي جبريـل: قـد حبب إليك الصلاة فخذ منها ما شئت)(3)

ولم يكن ذلك ـ سيدي ـ وحده الميدان الذي برز فيه تعبدك لله.. فقد كنت عابـدا للـه في كـل أحوالـك، وكـان لسـانك دائم الـذكر لربـك، ولم تكن تفـتر لحظـة واحـدة عن ذكـره، ولا عن القيام بأي شيء يكلفك به.

حتى في تلك الأوقات التي يتصور من معك فيها أنك نائم.. لم تكن كذلك، وإنما كان قلبك مستيقظا حاضرا مـع ربـك، وقـد قلت في ذلك: (تنام عيناي، ولا ينام قلبي) (4)

وقلت لمن عجب من وصالك للصوم، وصـبرك عليـه: (إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني) (5)

وهكذا كانت حياتك كلها ـ سيدي ـ عبوديـة خالصـة لربـك.. ولذلك كنت أهلا لكل تلك التكريمات العظيمة التي كرمـك اللـه بهـا.. فويـل لأولئـك الـذين راحـوا يشـوهونك ويحرفونـك ويدنسونك.. ما أجهلهم بك، وما أعظم حقدهم عليك.

فأتوسل بك ـ سـيدي ــ إلى اللـه أن يجعلـني من العابـدين المتبتلين القانتين الذين امتلأت قلوبهم وأرواحهم وكل لطائفهم بكـل ألـوان العبوديـة.. حـتى ألقى اللـه وأنـا جـدير بلقائـك، وصحبتك.. فلا يصحبك ـ سـيدي ــ إلا من كـان أهلا لـذلك.. وقـد قلت لمن قال لك: (يا رسول اللّه أسألك مرافقتك في الجنـة):

1() رواه الطبراني.

2() أحمد (5/364، رقم 23137)، وأبو داود (4/296، رقم 4985)

3() رواه أحمد، والطبراني، برجال الصحيح.

4() البخاري (138) و (859)، ومسلم (763) (186)

5() البخاري (1964)، ومسلم (1105)

(أعني على نفسك بكثرة السجود) (6)

6() رواه أبو داود والترمذي.

العفيف الزاهد

سيدي يا رسول الله.. أيها العفيف الزاهد.. الذي تزينت لـه الدنيا بكل محاسنها، وتعرضت له بجميع مباهجها.. فراح يعـرض عنها بكل كيانه، مقبلا على ربه، منشغلا بما طـوق بـه عنقـه من أصناف التكاليف.

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمـل حياتـك، وكيـف كنت تعيش في مكة التي كرمها الله بنشـأتك فيهـا، والمدينـة الـتي نورهـا اللـه بهجرتك إليهـا.. فوجـدت حياتـك وحـدها أكـبر دليـل على نبوتـك وعظمتـك واصـطفاء اللـه لـك.. فحياتـك ــ سـيدي ــ في فـترة الاضــطهاد والحصــار والمواجهــة لا تختلــف في أي شــيء عن حياتـك في فـترة التمكين والقيـادة.. ففي كليهمـا كنت الزاهـد العفيف الـذي يرضـى بـالعيش القليـل الـذي يربـأ عنـه الفقـراء أنفسهم.

أصدقك ـ سيدي ـ أني مع تقديسـي وتعظيمي لـك، تـألمت كثيرا لتلك الحياة التي كنت تعيشها، والـتي اختلـط فيهـا الجـوع مع التعب مع أنواع المواجهات التي كنت تقابلها جميعـا بصـبرك الجميل، ورضاك عن ربك الذي لا حدود له.

ولم يكن ذلك سبب ألمي الوحيد؛ فأنا أعلم أنك تعيش في عوالم الجمال والكمال التي تجعلـك تـرى الـدنيا كلهـا بصـورتها الحقيقيــة الممتلئــة بــالزيف والخديعــة.. لكــني أتــألم لأولئــك المجازفين بهجرانك، المصدقين لدعاوى الحاقدين عليك.

ولو أنهم ـ سيدي ـ نظـروا إلى حياتـك المليئـة بكـل ألـوان المشاق والمتاعب.. والـتي كنت تـأوي منهـا إلى بيتـك البسـيط الذي لا يختلف عن بيوت أفقر الفقراء والمساكين.. لو رأوا ذلك لكفاهم في الدلالة على صدقك.

فهل يمكن لمـدع وكـاذب ومخـادع أن يبـذل حياتـه جميعـا مضحيا، ثم لا ينال من الحياة إلا ذلـك الشـظف والمعانـاة الـتي وصفها بعض أصحابك عندما دخل عليك، فرآك متكئا على رمال حصير قد أثر في جنبك؛ فرفـع رأسـه في الـبيت، فمـا رأى فيـه شـيئا يـرد البصـر، إلا ثلاثـة بسـط معلقـة، وصـبرة من شـعير، فهملت عيناه، فقلت: ما لك؟ فقال: يا رسـول اللـه أنت صـفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هما فيـه؟.. فقلت لـه بكـل

هـدوء: (أفي شـك أنت.. أولئـك قـوم عجلت لهم طيبـاتهم في حياتهم الدنيا، أمـا ترضـى أن تكـون لهم الـدنيا، ولنـا الآخـرة؟)، فقال: (بلى، يا رسول الله، فأحمد الله عز وجل)، فقلت له: (لو شئت أن يسير الجبال الراسيات معي ذهبا لسارت)(1)

وحدث آخر، قال: اضطجع رسـول اللـه ﷺ على حصـير فـأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه، فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا فبسطت شيئا يقيك منه، تنام عليه، فقال: (ما لي وللدنيا، مـا أنا والدنيا إلا كراكب سار في يـوم صـائف، فقـال تحت شـجرة ثم راح وتركها)(2)

لم يكن أولئك ـ سيدي ـ فقط من أخطأ في حقك.. بل هنـاك غيرهم كثير.. حتى أن هناك من راح يدعي أنك إذا عدت إلى الـدنيا للبسـت بذلـة عصـرية، وامتلكت أغلى السـيارات، وسـكنت أرفـه القصور.. ولم يلتفت هؤلاء المحجوبون بزخارف الدنيا أن كل ذلك، وفوقه أضعافا مضاعفة أتيح لك.. لكنك كنت ترفض ذلك..

ولولاه ـ سيدي ـ لما كنت سـيد الزهـاد وأسـوتهم، فالـذي بـه فاقة ضرورية قد لا يفطن لكونه زاهدا، بل قد يكون راغبا، والفاقـة هي التي جعلته يبـدو من الزهـاد.. ولكنـك سـيدي لم تكن كـذلك.. فقد أتيحت لك كل الخيارات.. لقد كان الغنى أمامك، وبين يـديك.. بل كان الغـنى أقـرب إليـك من الفقـر.. والرفـاه أقـرب إليـك من الشـظف.. ولكنـك ــ سـيدي ــ آثـرت حيـاة الزهـاد على حيـاة المترفين.. ورضيت أن تكون كأبسط الناس، لتكـون أسـوة لجميـع الناس، وحتى لا يأتي أحد من الناس، فيتصور أن النبوة وسـيلة من وسائل الثروة، أو طريق من طرقها.

لقد حدثت ـ سيدي ــ عن هـذا الخيـار الـذي أتاحـه اللـه لـك، فقلت: (لو شئت لسارت معي جبال الذهب) (3)

وفي حديث آخر، قلت: (عرض علي ربي بطحـاء مكـة ذهبـا، فقلت: لا يـا رب، ولكـني أجـوع يومـا، وأشـبع يومـا، فـإذا شـبعت حمدتك، وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك، ودعوتك)(4)

وفي حديث آخر روي أنه قيل لك: يا رسول الله ﷺ إن شئت

1() رواه أحمـد وأبـو يعلى، وتمـام الـرازي، وابن عسـاكر وأبـو داود الطيالسـي، والترمذي، وصححه.. والجملة الأخير زادها أبو الحسن بن الضحاك.

2() رواه أحمـد وأبـو يعلى، وتمـام الـرازي، وابن عسـاكر وأبـو داود الطيالسـي، والترمذي.

3() رواه ابن عساكر.

أعطيناك خزائن الدنيا، ومفاتيحها لم نعطها أحدا قبلـك، ولا نعطيهـا أحدا بعدك، لا ينقصك ذلك عند الله شيئا، فقلت: (اجمعوها لي في الآخرة)، فأنزل الله تعالى عليك قوله: ﴿تَبَـارَكَ الَّذِي إِنْ شَـاءَ جَعَـلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَـكَ قُصُـوراً﴾ (الفرقان:10)(1)

وفي حديث آخر عن أم سلمة قالت: نام رسول الله ﷺ على وسادة حشوها ليف، فقـام وقـد أثـر بجلـده، فبكيت فقـال: (يـا أم سلمة ما يبكيك؟) قلت: ما أرى من أثر هـذه، فقـال: (لا تبكي، لـو أردت أن تسير معي هذه الجبال لسارت)(2)

وقد ظل هذا الخيار مفتوحا أمامك جميـع حياتـك، فقـد حـدث بعض أصـحابك عن الأيـام الأخـيرة لـك، فـذكر أنـك جلسـت على المنبر، فقلت: (إن عبدا خيره الله تعالى أن يؤتيه من زهـرة الـدنيا وما عنده، فاختار ما عنده)(3)

بل إنك ـ سيدي ـ كنت تدعو الله كل حين، وفي تلك الظروف الصعبة أن يرزقك الله القوت والكفاف من غير أن يتجاوزهما، فقد كنت تقول:(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)(4)

بل إنك ـ سيدي ـ كنت تسـأل اللـه حيـاة المسـكنة الـتي هي أقرب أنواع الحياة للعبوديـة، وكنت تقـول: (اللهم أحيـني مسـكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين)(5)

وكنت تقول: (اللهم توفني فقيرا، ولا توفني غنيـا، واحشـرني في زمرة المساكين، فـإن أشـقى الأشـقياء من اجتمـع عليـه فقـر الدنيا، وعذاب الآخرة)(6)

ولم تكن تكتفي بذلك ـ سيدي ـ بـل كنت تتهـرب من كـل مـا يمكن أن يملأ حياتك بـذخا وترفـا.. بـل من كـل مـا يملؤهـا هـدوءا ودعة.. فقد روي أن امرأة من الأنصار رأت فراشك عباءة خشـنة، فانطلقت، فبعثت إليك بفراش حشوه الصوف، فلمـا رأيتـه سـألت

4() رواه ابن سعد، والترمذي، وأبو الشيخ عن أبي هريرة وابن سـعد وابن حبـان عن أبي أمامة.

1() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (19/ 243)

2() رواه أبو ذر الهروي.

3() رواه البخاري، وغيره.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه ابن المبارك والترمذي.

6() رواه ابن عدي.

عنه، فقيل لك: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت، فرأت فراشك، فذهبت، فبعثت إلي بهذا الفراش، فأمرتهم برده، وقلت: (والله لو شئت لأجرى الله معي الجبال ذهبا وفضة)(1)

ولذلك تواترت الروايات ومعها الشهود الكثيرون على تلك الحياة البسيطة التي كنت تعيشها، والتي دعاك الله إليها، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]

بل أمرك بأن تخير أزواجك بين الرضا بها، وبين أن يعدن لحياتهن التي تعودن عليها، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 28، 29]

ومن تلك الشهادات ــ سيدي ــ شهادة زوجتك عائشة، والتي عبرت عنها مرات كثيرة، خاصة لأولئك الذي جرفتهم الدنيا بأهوائها، وغفلوا عن الوصية التي أوصيتهم بها، فقد كانت تقول لهم: (كان يأتي علينا الشهر، وما نوقد فيه نارا، إنما هوالتمر والماء، إلا أن نؤتى باللحم(2).

وقالت:(ما شبع آل محمد من خبز بر ثلاثة أيام متتابعات، حتى قبض ﷺ)

وقالت:(ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر)

وقالت: توفي رسول الله ﷺ حين شبع الناس من الأسودين، التمر والماء.

وقالت: ما شبعنا من الأسودين التمر والماء.

وقالت: والله لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز، وزيت في يوم واحد مرتين.

وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء قط، ولا اتخذ من شئ زوجين لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا من النعال ولا رئي فارغا قط في بيته، إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرمة(3).

1() رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، وابن عساكر.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.. والأقوال التي تلي قولها هذا روايات في الحديث، وقد اخترنا اعتبارها أحاديث قائمة بذاتها.

3() رواه ابن عساكر.

وقالت:(والذي بعث محمدا بالحق نبيا مـا رأى منخلا، ولا أكـل خبزا منخولا، منذ بعثه الله إلى أن قبض، قيل، كيف كنتم تصنعون؟ قالت: كنا نقول أف أف (1).

وقـالت: مـا كـان بيقى على مائـدة رسـول اللـه ﷺ من خـبز الشعير قليل ولا كثير (2).

وقالت: ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ من بين يديـه، وعليهـا فضلة من طعام قط (3).

وقالت: ما شبع رسول اللـه ﷺ ثلاثـة أيـام تباعـا حـتى مضـى لسبيله (4).

وكانت تقول لعـروة: يـا ابن أخـتي، إنـا لننظـر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال لها: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسـودان: التمر والماء، إلا أنه قد كـان لرسـول اللـه ﷺ جـيران من الأنصـار، وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسـول اللـه ﷺ من ألبانهـا، فيسقيناه.

وكانت تقول له:(وايم الله، يا ابن أختي إن كـان يمـر على آل محمد الشهر لم يوقد في بيت رسول اللـه ﷺ نـار، لا يكـون إلا أن حوالينـا أهـل دور من الأنصـار - جـزاهم اللـه خـيرا في الحـديث والقديم - فكل يوم يبعثـون إلى رسـول اللـه ﷺ بغزيـرة شـياههم، فينال رسول الله ﷺ من ذلك، ولقد توفي رسول اللـه ﷺ ومـا في رفى من طعام يأكله ذو كبد إلا قريبا من شطر شعير، فأكلت منـه حتى طال علي، لا تغني وكلته عني، فيا ليتـني لم آكلـه، وأيم اللـه، وكان ضجاعه من أدم حشوه ليف)

وقالت: لو أردت أن أخبركم بكل شبعة شبعها رسول الله ﷺ حتى مات، لفعلت(5).

وقالت: أهديت لنا ذات يوم يد شاة فوالله إني لأمسـكها على رسول الله ﷺ ويحزها، أو يمسـكها علي رسـول اللـه ﷺ وأحزهـا، قبل على غير مصباح؟ قالت: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه، إن

1() رواه أحمد برجال ثقات غير سليمان بن رومان.

2() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

3() رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن.

4() رواه البخاري ومسلم والبيهقي.

5() رواه ابن عساكر.

كان ليأتي على آل محمد الشهر ما يخبزون فيه خبزا، ولا يطبخـون فيه برمة (1).

وقالت: ما شبع آل محمد ثلاثـة أيـام من خـبز الـبر حـتى ذاق رسول الله ﷺ الموت، ومـا زالت الـدنيا علينـا عسـرة كـدرة حـتى مات رسول الله ﷺ، فلما مات أنصبت علينا صبا(2).

وقـالت: ربمـا قـال النـبي ﷺ: (يـا عائشـة هلمي إلى غـذاءك المبارك، وربما لم يكن إلا التمرتين)(3)

وقالت: ما اجتمع في بطن رسول اللـه ﷺ طعامـان قـط، إن أكل لحما لم يزد عليه، وإن أكل تمرا لم يزد عليـه، وإن أكـل خـبزا لم يزد عليه (4).

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة يومـا، فـدعت بطعـام فقـالت لي: كـل فلقـل مـا أشـبع من طعـام، فأشـاء أن أبكي أن بكيت، قـال: قلت: لم يـا أم المؤمـنين؟ قـالت: أذكـر الحـال الـتي فارقها رسول الله ﷺ، ما شبع رسول الله ﷺ في يـوم مـرتين من خبز شعير حتى لحق بالله (5).

وهكذا تواترت شـهادات غيرهـا، فقـد ذكـر أنس بن مالـك أن فاطمة جاءتك بكسرة خبز فقلت لها: (ما هـذه الكسـرة؟) قـالت: قرصة خبزتها، فلم تطب نفسي إلا أن آتيك بهـذه الكسـرة، فقلت: (أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام) (6)

وقال: مشيت إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير ولـه هالـة ولقـد سمعته يقول: (مـا أصـبح لآل محمـد، ولا أمسـى في آل محمـد إلا صاع، وإنهن يومئذ لتسعة أبيات) (7)

وقال: إن النبي ﷺ لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف (8).

1() رواه ابن سعد وأحمد برجال الصحيح وابن عساكر وابن الجوزي.

2() رواه ابن عساكر.

3() رواه ابن عدي.

4() رواه ابن سعد.

5() رواه ابن عساكر.

6() رواه أحمد، وابن سعد وأبو داود، والحارث بن أبي أسامة برجال ثقات.

7() رواه البخاري ومسلم.

8() رواه ابن أبي شيبة، أحمد، وأبو يعلى، والترمذي في الشمائل، وابن سعد بإسـناد صحيح.

وقال: شهدت وليمة للنبي ﷺ ما فيها خبز ولا لحم (1).

وقال: أكل رسول الله ﷺ بشعا ولبس خشنا، فسئل أبو الحسن ما البشع؟ قال: غليظ الشعير، وما كان يسفه إلا بجرعة من ماء(2).

وقال: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا بعينه، حتى لحق بربه، ولا شاة سميطا قط (3).

وغيرها من الشهادات الكثيرة التي لم يخالف فيها أحد من أصحابك، بل كلهم كانوا متفقين على ذلك الزهد الذي ملأ حياتك كلها، فجعلك المثل الأعلى له.

بل إنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما نقلوا لنا صورا عن مبلغ ذلك الزهد؛ فذكروا أنك كنت تعصب في أحيان كثيرة الحجر على بطنك من الجوع (4).. فعن ابن عباس قال: احتفر رسول الله ﷺ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع(5).

وعن جبير بن نفير قال: قال أبو البجير: أصاب رسول الله ﷺ يوما الجوع، فوضع على بطنه حجرا، وقال: (يا رب نفس ناعمة طاعمة، جائعة عارية يوم القيامة) (6)

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ يشد حبليه بالحجر من الغرث (7).

وعن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم يحفرون الخندق ثلاثا لم يذوقوا طعاما، قال جابر: فحانت مني التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرا من الجوع (8).

وعن أنس قال: قال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ

1() رواه ابن سعد.

2() رواه أبو الحسن بن الضحاك.

3() رواه ابن سعد.

4() وقد كان ذلك من عادة العرب عند الجوع، فإذا خوى البطن لم يمكن معه القيام، فيعمل الشخص حينئذ إلى صفائح رقاق في طول الكف، أو أكثر، فيربطها على بطنه، ويشدها بعصابة فوقها، فتعتدل قامته بعض الاعتدال، وقد قال بعض من وقع له ذلك: كنت أظن أن الرجلين تحملان البطن، فإذا البطن هو الذي يحمل الرجلين.

5() رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند.

6() رواه البيهقي وابن عساكر.

7() رواه ابن سعد.

8() رواه البخاري ومسلم.

الجوع، ورفعنا عن حجر حجر، فرفع النبي ﷺ عن حجرين(1).

وعن أبي البجير قال: أصاب النبي ﷺ جـوع يومـا، فعمـد إلى حجر فوضعه على بطنه (2).

وعن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ يوما فوجدته جالسـا مـع أصحابه يحدثهم، وقد عصب على بطنـه بعصـابة، قـال أسـامة: أنـا أشد على حجر، فقلت لبعض أصـحابه: لم عصـب رسـول اللـه ﷺ بطنه؟ قالوا: من الجوع (3).

وعن حصين بن يزيد الكلبي قـال: ربمـا شـد رسـول اللـه ﷺ على بطنه الحجر من الجوع (4).

لقد صور بعض الشعراء ذلك، فقال:

كأن عيال الناس طـرا ... فكلهم ممـــا لديـــه
عيالـه
يـبيت على فقـر، ولـو ... لـه ذهبـا محضـا ربي
وما كانت الـدنيا لديـه ... فقـد صـرمت فيهـا
رأى هذه الدنيا سـريعا ... فلم يـــرض شـــيئا
لعمرك مـا الأعمـار إلا ... ولكن آمـال الرجـال
أتتـه مفـاتيح الكنـوز ... وعافت يمين مسـها
وكان يفيض المال بين ... كمـا فضـت الـترب
فمـــا كـــان للمـــال ... وكم غـــر أربـــاب

ولذلك كنت ـ سيدي ـ لا تبالي بالطعام الذي تسد به جوعـك، لا كأولئك الذين لا يأكلون إلا ما يشتهون.. وقد روي عنك أنك قلت: (ما أبالي ما رددت به عن الجوع) (5)

وحدث ابن عباس قال: دخـل رسـول اللـه ﷺ يـوم فتح مكـة على أم هانئ بنت أبي طالب، وكان جائعا.. فقال رسـول اللـه ﷺ: (هل عنـدك طعـام آكـل) فقـالت: إن عنـدي لكسـرة يابسـة، وإني

1() رواه الترمذي بسند جيد قوي.

2() رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الزهد، وابن عساكر.

3() رواه مسلم والبيهقي.

4() رواه أبو نعيم وابن عساكر.

5() رواه ابن المبارك في الزهد عن الأوزاعي.

أستحي أن أقدمها، قال: (هلميها فكسرها في ماء)، فجاءته بملح، فقال: (ما من أدم؟) فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شئ من خل، فقال: (هلميه)، فلما جاءت صبه على طعامه، وأكل، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: (نعم الأدم الخل يا أم هانئ لا يفتقر بيت فيه خل) (1)

وحدثت أم سعد قالت: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وأنا عندها، فقال: هل من غداء؟ قالت: عندنا خبز وتمر وخل، فقال رسول الله ﷺ:(نعم الإدام الخل.. اللهم بارك في الخل، فإنه كان إدام الأنبياء قبلي، ولم يفتقر بيت فيه خل) (2)

هذه ـ سيدي ـ بعض الشهادات الدالة على الحياة التي كنت تعيشها، ولا يمكن فهمها، ولا تقدير قيمتها إلا عند جمعها مع خصالك جميعا.. تلك الخصال الممتلئة بالقوة والإيجابية والفاعلية والتأثير.. فلم تكن كأولئك الزهاد المنطوين على أنفسهم، المنشغلين بحالهم، بل كنت تحمل هم الأمة جميعا، بل البشرية جميعا.. لا تلك التي عاصرتها فقط، بل في كل العصور.

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول الله ــ وأتوسل بك إلى ربي أن يخرج حب الدنيا من قلبي، وأن يجعلني أعيش تلك العوالم الجميلة التي كنت تعيشها، والتي لا تساوي أمامها الدنيا بكل زخارفها شيئا.

وأسألك ــ سيدي ــ أن أكون من أولئك الذين وفوا لك بعهودهم؛ فلم تغرهم زينة الحياة الدنيا، ولم يتثاقلوا لأهوائهم، ولم يبتغوا عن صحبتك بديلا، حتى ألقاك وأنت راض عني، إنك أنت صاحب الوسيلة العظمى، والجاه العظيم.

1() رواه ابن المبارك في الزهد.

2() رواه ابن ماجة.

المقاوم المجاهد

سيدي يا رسول الله.. أيها المقـاوم المجاهـد.. الثـابت في كل المعارك.. المناضل على كـل الجبهـات.. الصـامد أمـام كـل التحديات.. الثـائر على كـل أنـواع التسـلط والاسـتبداد والبغي.. المقوّم لكل الانحرافات والضلالات والتيه.

لقد درست ـ سيدي ـ حياتك بكل تفاصيلها التي أوردها لنـا المحدثون والمؤرخون من المدارس المختلفـة، وقارنتهـا بحيـاة كل الأبطال والمقاومين الذين انبهر البشر بشجاعتهم وبطولتهم ومقاومتهم.. فلم أجـد سـيدي أحـدا يضـاهيك، بـل يـدانيك.. بـل وجدتهم جميعا تلاميـذ صـغارا أمـام بطولتـك وثباتـك وشـجاعتك وجهادك في كل المجالات.

لقــد رأيتهم ســيدي جميعــا يناضــلون في ميــدان واحــد.. ورأيتــك تناضــل في كــل الميــادين.. فــأنت لا تكتفي بمواجهــة الشرك والخرافة والدجل.. ولا بزرع القيم الأخلاقية والروحيــة.. ولا بالنشاط السياسي والعسكري.. وإنما كنت تمـارس النضـال في جميع مجالات الحياة.. وتعطي النموذج الأمثل فيهـا، لتكـون قدوة لكل مقاومة شريفة لا تكتفي بالجزئيات عن الكليـات، ولا بالأشياء عن الإنسان.

وقــد رأيتــك ســيدي فــوق ذلــك تثبت أمــام جميــع أنــواع التحديات.. ما يسر منها وما يضر.. فلم تلن ولم تساوم، ولم تبع دينك بشيء من الـدنيا.. بـل كنت تقـرأ عليهم في ذلـك الـوقت الذي كانوا يؤذونك فيه أعظم إذية، ويغرونك أعظم إغراء، قولـه تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَـا تَعْبُـدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَـا عَبَـدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ [الكافرون: 1 - 6]

لقد كنت ـ سيدي ــ تقرؤهـا عليهم في الـوقت الـذي كنت فيه مع أصحابك في حاجة لأي سند يخفف عنكم ذلك الاضطهاد الجائر الذي كان يمارس عليكم.

في ذلك الحين سـاومك المشـركون على دينـك، وعرضـوا عليك أن يعطوك مالا، لتكون أغنى رجل بمكـة، وعرضـوا عليـك أن يزوجوك أجمل نسائهم.. وقالوا لك بعدها: (هذا لك يا محمـد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنـا بسـوء؛ فـإن لم تفعـل فإنـا

نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح)، فقلت لهم: ما هي، فقالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة..

حينها لم تدر ما تقول لهم، لا ترددا، ولا ريبة، ولكن لعجبك من هذا الطرح الذي طرح عليك.. حينها نزلت عليك سورة الكافرون، لتتولى الإجابة عنك.. فهي السورة التي تعلن المفاصلة التامة بين الإيمان وقيمه الرفيعة، والكفر وقيمه الوضيعة.. فلا يمكن لمن أسلم وجهه لله أن يجمع بين تلك القيم المتنافرة، وإلا كان منافقا ومخادعا ودجالا.

في ذلك الحين أيضا، وبعدها، نزلت عليك الآيات الكثيرة تدعوك للمفاصلة التامة مع كل ما يعرضونه عليك من أصناف المساومات.. نزل عليك حينها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 40، 41]

ونزل عليك معها قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 25، 26]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعوك، وتدعو كل المؤمنين في كل الأجيال إلى الصمود والمقاومة وعدم الاستسلام للمساومات والإغراءات والاضطهادات.. وعدم تغليب المصالح الوقتية على المبادئ الدائمة.

وقد كنت ـ سيدي ـ القرآن الناطق لتلك الآيات جميعا؛ فقد واجهت في حياتك ما لو سلط على الحديد لذاب، أو على الجبال لاندكت.. فقد ألب أهلك عليك.. وأوذيت في أصحابك وأقاربك.. وحوصرت اقتصاديا.. واتّهمت بالجنون والسحر.. وسلط عليك الصبيان والمجانين.. وعرضت عليك في ذلك الوقت المليء بكل ألوان الأسى كل أنواع الإغراءات.. فواجهت ذلك جميعا، وبقوة وصلابة.. وكنت تقول في تحد لا يضاهى مخاطبا عمك المجاهد الصابر المحتسب: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)(1)

لقد ذكر القرآن الكريم بعض ما أوذيت به، ومنه رميهم لك

1() سيرة ابن إسحاق، السير والمغازي (ص: 154)

بالجنون، فقال حاكيًا عنهم: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:6)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ (القلم:51)

وكان القرآن الكريم يثبتك في تلك المواقف الصعبة، ويخبرك أن هذا ما حصل للأنبياء عليهم السلام من قبلك، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذريات:52)، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (القمر:9)

ومنها رميهم لك بالسحر، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ (يونس:2)، وقال: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (صّ:4)

وكان القرآن الكريم يثبتك، ويخبرك أن هذا ما حصل للأنبياء عليهم السلام من قبلك، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (لأعراف:109)، وقال: ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (يونس:77)، وقال: ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ (طه:63)

ومنها رميهم لك بالشعر، مع علمهم بأن القرآن الكريم ليس له أوزان الشعر ولا طريقته قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (الانبياء:5)، وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ (الصافات:36)، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ (الطور:30)، وقال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة:41)

ومنها رميهم لك بالكهانة، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور:29)، وقال: ﴿ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الحاقة:42)

ومنها احتقارهم لك، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف: 31)

وغيرها من الآيات الكريمة التي رسم فيها القرآن الكريم

بعض الصور لما كان المشركون وغيرهم يؤذونك به.. ولم تكن تقابل ذلك إلا بالصبر والرضى والثبات والمقاومة الباسلة.

ائذن لي سيدي أن أشنف آذان قلبي ومرآة خيالي بتلك المشاهد العظيمة التي وقفتها.. والتي كلما قرأتها أو تذكرتها شعرت بالنشاط يسري في عروقي، ويدفعني لمواجهة كل العالم من أجلك.. فتلك المشاهد ـ سيدي ــ هي زادي وزاد كل حر يريد أن يخرج من البوتقة التي فرضها عليه قومه.

دعني ـ سيدي ـ أذكر ذلك الموقف الشديد القاسي الذي مر عليك في أول دعوتك، والذي تولى كبره بعض أقاربك المقربين، ذلك العم القاسي أبو لهب، الذي نزلت في حقه سورة كاملة تبين الخسارة التي وقع فيها حين باعك بأهوائه وأموال قريش..

فقد روي بأسانيد مختلفة (1) أنك لما أنزل الله عليك قوله: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ(الشعراء:214) قمت على الصفا، فعلوت أعلاها حجرا، ثم ناديت: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟.. وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما الذي يحصل.

حينها جاء عمك أبو لهب ومعه وجهاء قريش، فاجتمعوا إليك؛ فقلت لهم: (إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟)

وطبعا لم يجدوا إلا أن يصدقوا، فقد كنت تدعى بينهم الصادق الأمين، ولم يجربوا عليك كذبا قط، فلذلك قالوا: (ما جربنا عليك كذبا)

حين أقروا لك بذلك، وأقمت عليهم الحجة بكونك صادقا، قلت لهم: (يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله ﷺ أنقذ نفسك من النار، فإني لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار، فإني لا أملك لكما

1() رواه البخاري ومسلم والبلاذري وغيرهم.

من الله شيئا، غير أن لكما رحما سأبلها ببلالها، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد)[1]

في هذا الموقف، وبعد هذه الكلمات المؤثرة الناصحة واجهك عمك أبو لهب بكل قسوة قائلا: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

لم يقف أبو لهب ذلك الموقف فقط.. بل ظل خلفك يتعقبك، وفي كل مكان تذهب إليه لينفر الناس عنك؛ فقد حدث بعض المعاصرين لذلك، فقال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحولُ ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب.. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب[2].

وقال آخر: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذَ عن الله ما بعثني به)، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلُخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أَقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب[3].

وذكر آخر أنك لما دعوت قومك إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقا، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (المسد:2)

ومثل أبي لهب زوجته المارقة أم جميل بنت ألد أعدائك، وأختهم[4] تلك التي سماها الله تعالى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [المسد: 4]، فقد كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده

1() دلائل النبوة للبيهقي (2/ 177)

2() رواه أحمد.

3() رواه أحمد والطبراني.

4() اسمها أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان.

وعناده، وقد كانت تضع الشوك في طريقك(5).. وكانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار.

عندما تأملت ــ سيدي ــ هذه المواقف، وحاولت أن أعيشها، وجدت مدى الآلام التي كنت تحملها، وأنت ترى عمك، وهو يكذبك، وينفر الناس عنك.. ووجدت معها ذلك التأثير الخطير الذي يقوم به ذلك العم الحقير.. فالناس في العادة يستمعون لآراء الأقارب بعضهم في بعض، ويبنون عليها مواقفهم، ولذلك كان موقف عمك ليس مؤذيا لك فقط، بل كان مؤذيا لدعوتك أيضا.. لأن المغفلين سيقولون حين يسمعوه: لو كان فيما جاء به خير لاتبعه عمه، وهو أقرب الناس إليه.

لكن الله تعالى بكرمه ولطفه شاء أن يمنع هذه الحجة، ويرفع عنك بعض ذلك الإيذاء العظيم الذي وقفه عمك أبو لهب بعمك الآخر الطيب المؤمن الصالح أبي طالب.. ذلك الذي رباك على عينك، وشاهد إكرام الله لك في صغرك.. فلذلك آمن بك قبل بعثتك، وكان أول المؤمنين بك بعدها.

لقد جاء أئمة الشرك حينها إلى عمك أبي طالب بعد أن رأوا مواقفه في صالحك، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

وكان أبو طالب هينا لينا، لذلك ردهم بسلاسة، ليكفوا عنك؛ فقد كان يدرك أن المواجهة الشديدة مع أولئك الأجلاف الغلاظ لن تجدي شيئا، بل قد تكون مضرة بك وبدعوتك.

وبعد أن فعل ذلك ــ سيدي ــ لم تلن، ولم تتوقف عن دعوتك، خشية على عمك الذي بذل كل شيء في سبيلك.. وإنما مضيت في دعوتك، كما أمرك الله تعالى، لا تبالي بكل ما يحول بينك وبينها.

بعد أن رأى رؤوس الشرك ما أنت عليه من ثبات، وأن كلامهم مع عمك لم يؤثر فيك.. جاءوا إلى عمك مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وإن لك شرفا ومنزلة فينا،

5() رواه العوفي عن ابن عباس، وعطية الجدلي، والضحاك، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

في ذلك الموقف الشديد، وبعد أن سمعت ما قالوا، جئت لعمك الصالح، لا لتعده بالتراجع حرصا عليه، وإنما قلت له كلمتك العظيمة التي أصبحت شعارا لكل المقاومين: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)

ثم رحت تبكي ألما لعمك الذي لم يرحم المشركون كبر سنه، فلما رآك كذلك قال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا، ثم راح ينشد:

والله لن يصلوا إليك حتى أوسد في
فامضي لأمرك ما وابشر وقر بذاك
ودعوتني وزعمت أنك فلقد صدقت وكنت

لقد رحت سيدي أتخيل هذه المشهد.. فوجدته في منتهى الألم ذلك أن أبا طالب كان بمثابة أبيك، فقد تربيت في بيته، وكفلك في صغره بعد موت جدك.. ولو أنه لم يكن لك من الثبات والصدق ما كان لك لم تكن لتترك عمك يعاني كل ذلك العناء؟

ليس ذلك فقط.. فلم تيأس قريش من تأليب أهلك عليك، بل راحت تمارس كل أنواع المساومة، وأشرسها وأحقرها.. ومنها تلك المساومة التي تدل على مدى انحطاط القيم التي كان يتبناها أعداؤك؛ فقد جاءوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة، وهو ابن لألد أعدائك، وقالوا لعمك: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف ديننا ودين آبائك وفرق جماعة من قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

حينها قال عمك لهم: والله لبئس ما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا، أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها؟

حينها أعلنوا الحرب الشرسة على كل من اتبعك، عسى أن يثنيك ذلك عن دعوتك.. لكنك ـ مع ألمك الشديد لما حصل لهم ـ

لم تكن تتنازل عن الحق، وقد روي أن بعض أصحابك من المعذبين جاءك في ذلك الحين، وقال لك: (ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟)، فقلت له: (إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأس أحدهم، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه(1).

لقد ذكرتهم سيدي بما كان يحصل للأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من المستضعفين، والذي كان القرآن الكريم يقص عليهم قصصهم ليثبتهم، ويثبتك معهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]

ولم تكن تملك ـ سيدي ـ في تلك المواجهة الشرسة إلا أن تدعو لأصحابك، من دون أن تبدي لأعدائك أي لين مقابل مبادئك.. وقد روي أنك مررت على عمار بن ياسر وأبيه وأمه سمية وأخيه عبد الله، وهم يُعذبون، فلم تملك إلا أن قلت لهم: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)(2)

هذا كل ما كنت تملك تجاههم سيدي، فلم تعدهم بأي مناصب ولا بأي دنيا، حتى لا يصحبك إلا الصادقون المخلصون.. ولذلك لم يكن للمستضعفين في ذلك الوقت من أنيس غير القرآن الكريم، وحقائق القرآن الكريم التي كانت أعظم مثبت لهم.

وكيف لا يفعلون ذلك، والقرآن الكريم يقص عليهم قصص البطولة والمقاومة التي مارسها أتباع الأنبياء من قبلهم، كما قال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) ﴾ [البروج: 4 - 12]

1() رواه البخاري ومحمد بن عمر الأسلمي والبيهقي.

2() رواه البلاذري والحاكم.

ولما اشتد الأذى بأصحابك أمرتهم بالهجرة إلى الحبشة، ولم تدعهم قريش يهاجرون بدينهم، بل تعقبتهم تحاول استئصالهم، لكن الله تعالى أبطل كيدهم، وصارت الحبشة مأوى المستضعفين.. لكنك لم تهاجر، بل بقيت تمارس دعوتك، وفي ظل تلك الأجواء القاسية.

ولم يكتف أعداؤك بذلك، بل راحوا يمارسون حصارهم الاقتصادي عليك، وعلى قرابتك، وأصحابك، فقد كانوا إذا قدمت العير مكة، ويأتى أحد قرابتك أو أصحابك إلى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله، يقوم المشركون بمنعه، ويقولون للتجار: (يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم)، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى لا يستطيع شراءها.

وهكذا مارس أعداؤك في مكة المكرمة كل أساليب الحقد والمواجهة لك ولدعوتك، لكنك كنت ثابتا كالجبال الرواسي، لا تزعزعك الرياح، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾ [الإسراء: 73 - 77]

وعندما ذهبت إلى المدينة المنورة، لم يكف أعداؤك عنك، بل زاد عددهم، وزادت معها أساليب مكرهم، وخاصة بعد أن انضم إليهم اليهود، الذين استعملوا كل ما كانوا يستعملونه مع الأنبياء عليهم السلام في مواجهتك.

فقد كانوا يسيئون الأدب معك، ويسخرون منك كما كان يسخر المشركون، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)﴾ [النساء: 44- 46]

وكان من حيلهم البشعة، أنهم كانوا يؤمنون في الصباح، ثم يكفرون آخره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: 72، 73]

وهي مكيدة عظيمة أرادوها ليلْبسُوا بها على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، ليقولوا: إنما رَدّهم إلى دينهم إطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، قال ابن عباس: (قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فَصَلّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا) (1)

ولم يكتف أعداؤك بكل ذلك، بل راحوا يفرضون عليك كل أنواع الحروب؛ فلم تكن تخرج من حرب معهم حتى تدخل في حرب أخرى.. إلى أن نصرك الله عليهم نصره المؤزر من غير أن تلين، أو تستسلم، أو تكف عن المواجهة.

هذه ـ سيدي ـ بعض مشاهد مقاومتك وبطولتك وجهادك.. وهي كافية للعقلاء ليعرفوا صدقك وإخلاصك.. فلا يُميز الصادقون إلا بثباتهم في المواقف المختلفة.. أما أولئك المتزعزعون المائلون مع كل هوى، الذين يعبدون الله على حرف، فإنهم أبعد الناس عن الصدق والإخلاص.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله تعالى أن أكون من الصادقين معك، ومع دينك، ومع هديك، الثابتين الذين لم يغيروا، ولم يبدلوا، ولم يبيعوا دينهم بشيء من الدنيا.. أولئك الذين وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

وأسألك ـ سيدي ـ أن تمدني بمددك الذي كنت تمد به أصحابك، حتى تكون لي القدرة على المواجهة والمقاومة والثبات.. واجعلني أتمتع برؤيتك، كما كانوا يتمتعون، وبسماع كلماتك كما كانوا يستمعون، فقد كانت كلماتك ورؤيتك سيدي أعظم مصدر لثباتهم وجهادهم ومقاومتهم.. إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

---

1 () تفسير ابن كثير (2/ 59)

التقي النقي

سيدي يا رسول الله.. أيها التقي النقي الطاهر.. يـا من لم تخدش مرآة قلبه بأي خطأ أو خطيئة، قبل النبـوة وبعـدها، وفي صغره وكبره.. وفي كـل شـؤونه.. فصـار لـذلك مـرآة للحقـائق والقيم التي لم تشوه، ولم تغير، ولم تحرف.

وصرت بذلك ـ سيدي ـ أنموذجا لكل من يريد السلوك إلى الله، والتحقق بالإنسانية الرفيعة، والسمو إلى الـدرجات العليـا، كما قال تعالى في حقك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَذَكَـرَ اللَّهَ كَثِـيرًا﴾ [الأحزاب: 21]

ولولا ذلك ـ سيدي ـ ما أمرنا الله بالتأسـي بـك، ولا السـير خلفـك.. وهـل يمكن لمن يهم بالخطيئـة أو يقـوم بهـا أن يكـون مرشدا للتائهين، أو دليلا للمتحيرين؟

ولذلك كنت أتقى الأتقياء وأطهر الطـاهرين، وكـل مـا روي عنك خلاف ذلك، فهو من دس المغرضين الحاقدين الحاسدين.. أو من رواية المغفلين المخدوعين الذين اهتموا بكثرة الحـديث، ولم يهتموا بمعانيه، فدس الشيطان في حديثهم ما يسيء إليك، وإلى الهدي العظيم الذي جئت به.

وقد كان من ذلـك الـدس تلـك التشـويهات العظيمـة الـتي أرادوا بهـا أن يرفعـوا بعض غـيرك، فوضـعوك، شـعروا أو لم يشعروا..

ومن الأمثلـة على ذلـك الـدس الخطـير الـذي أرادوا بـه تشويهك، ورفع غيرك تلك الرواية التي يروونهـا، ويعظمونهـا، لا لأنها تعظمك وتقدسك، وإنما لأنها تعظم وتقدس زيـد بن عمـرو بن نفيل عم عمـر بن الخطـاب، الـذي اعتـبروه أكـثر ورعـا عن الشرك وأسبابه منك.

فقد رووا أنك لقيت زيد بن عمـرو بن نفيـل بأسـفل بلـدح، قبل أن ينزل عليك الوحي، فقدمت إليه سفرة فيها لحم، فـأبى أن يأكل منها، وقال: (إني لا آكل مما تذبحون على أنصـابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه)(1)

1() رواه البخـاري (3826)، والـبيهقي في الـدلائل2/121، والطـبراني في الكبـير (13169)، والبيهقي في السنن 9/249-250، قال شعيب الأرنـؤوط: (وفي روايـة فضـيل

وراحوا لا يكتفون بـذلك، بـل يضـيفون إليـه اعتبـار زيـد بن عمرو هو الذي كان يدعو إلى التوحيد قبـل أن تـدعو إليـه، فقـد رووا أنه كان يعيب على قريش ذبائحها، ويقـول: (الشـاة خلقهـا الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ، ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله؟!) (1)

وبذلك أصبح زيد بن عمـرو ــ عنـدهم ــ أكـثر عقلا وحكمـة وورعا منك سيدي.. وهم يذكرون ذلك من دون حياء، ويعتبرونـه من منـاقب زيـد، ولم ينظـروا أبـدا إلى أنهم بـذلك يشـوهونك، ويعتبرونك أقل عقلا وعلما وحكمة من غيرك.

وهكذا أوردوا الروايات الكثيرة الـتي تشـوهك، وغفلـوا عن تلك التي تتوافـق مـع مـا ذكـره القـرآن الكـريم في حقـك، بـل راحوا يضعفونها، ويردونها، في نفس الـوقت الـذي يقـوون تلـك الأحاديث التي رضي عنها المدلسون البغاة الذين حذرت منهم.

ولهذا، فإن الـذين قبلـوا تلـك الروايـة الـتي تعتـبرك جـاهلا بالشرك، يرفضون تلك الرواية التي تخبر عن توحيدك وإيمانـك، وأنت في صـباك البـاكر، ومنهـا مـا روي في رحلتـك الأولى إلى الشام، وأنت صبي صغير، حينها مـرت القافلـة ببحـيرا الـراهب، الــذي طلب لقــاءك، بعــد أن رأى بعض العلامــات الدالــة على وجودك في الركب، جعل يلحظك لحظـاً شـديداً، حـتى إذا فـرغ القوم من الطعام وتفرقوا، قام بحيرا إليك، فقال لك ــ مختـبرا ـ: يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه.

هو لم يقـل ذلـك إلا ليختـبرك، فهـو لم يكن يـؤمن بـاللات والعزى، وإنما ذكرهما لأنه رأى قومك يحلفون بهمـا، فقلت لـه: (لا تسلني باللات والعزى شيئاً، فـو اللـه مـا أبغضـت شـيئاً قـط بغضهما)(2)

وهكذا ـ سيدي ـ كنت في حياتك جميعا متورعا عن كل مـا لا يتناسب مع مكانتك الرفيعة الـتي هيأهـا اللـه لـك.. وقـد روى المحدثون أنك ـ سيدي ـ مع تلك الفاقة العظيمة التي مررت بها طيلة فترة رسالتك، لم تمد يدك إلى طعام لا تعـرف مصـدره..

بن سليمان: فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها. وهذا من أوهـام فضـيل بن سـليمان، والصـواب مـا في روايـة وهيب بن خالـد وغـيره عن موسـى بن عقبـة من أن رسول الله ﷺ هو الذي قدم إلى زيد بن عمرو بن نفيل سفرة فيها لحم، فأبى الأخـير أن يأكل منها)[مسند أحمد ط الرسالة (9/ 270)

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

2() سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي (ص: 75)

وقـد حـدث أنس قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ ليصـيب التمـرة، فيقول: (لولا أخشى أنها من الصدقة لأكلتها)(1)

وحدث آخر أنك وجدت تمرة تحت جنبك من الليل فأكلتهـا، فلم تنم تلك الليلة، فقالت بعض نسـائك: يـا رسـول اللـه أرقت البارحة، فقلت: (إني وجدت تمرة فأكلتها، وكان عندي تمـر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه)(2)

ولم تكن متورعا عن ذلك فقط، بـل كنت تتـورع أن تخـزن شيئا من المال أو الطعام في نفس الوقت الـذي قـد يوجـد من هو بحاجـة إليه(3)، ففي الحـديث عن بعض صـحبك قـال: (كـان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد)(4)

وحدث آخر قال: نظر رسول اللـه ﷺ إلى أحـد فقـال: (مـا يسرني أنه ذهب لآل محمد، أنفقه في سـبيل اللـه، أمـوت يـوم أموت وعندي منه ديناران، إلا دينـارين أعـدهما للـدين إن كـان)(5)

وحدث آخر قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ فقال يوما: (ما عنـدك شـيء تطعمنـا؟) قلت: نعم يـا رسـول اللـه، فضـل من الطعام الـذي كـان أمس، قـال: (ألم أنهـك أن تـدع طعـام يـوم لغد؟)(6)

هذه بعض شواهد ورعك سيدي عن الحلال الذي أباحه الله لك؛ فكيف يتجرؤون على مـا يرمونـك بـه من الفضـائع الـتي لا يجيزونها لأنفسهم..

ولم يكن ذلك وحـده ــ سـيدي ــ شـاهدا على ورعـك، بـل كانت حياتك كلها حياة تقوى وورع وطهارة، فلم تكن لتمتد يدك

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أحمد برجال ثقات.

3() أما ما روي من أنه كان يدخر قوت سنة، فقد أجاب عنه الحافـظ البجلي بقولـه: سألت نعيم بن حماد قلت: جاء عن رسول الله ﷺ أنه لم يشبع في يوم من خـبز مـرتين، وجاء عنه أنه كان يعد لأهله قوت سنة، فكيف هذا؟ قال: كان يعد لأهله قوت سنة، فتنزل النازلة، فيقسمه، فيبقى بلا شيء.

ومما يؤيد هذا ما رواه أحمد، وأبو يعلى برجال ثقـات عن أنس قـال: أهـديت لرسـول الله ﷺ ثلاثة طوائر فأطعم خادمه طائرا، فلما كان من الغد أتته به، فقال لها رسول اللـه ﷺ: (ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد؟ فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد)

4() رواه البخاري.

5() رواه أحمد وأبو يعلى بسند جيد.

6() رواه ابن أبي شيبة في المصنف.

لما حرم الله أو كرهه.. وكيف تفعـل ذلـك وأنت عبـده المطهـر المنقى الذي هو أعرف الخلـق باللـه، وأكـثرهم تقـوى لـه، كمـا عبرت عن ذلك بقولك: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)(1)

فأسألك ـ يا سيدي يا رسول اللـه ــ وأتوسـل بـك إلى ربي أن يملأ قلبي بحبك والتعلـق بـك، حـتى يتـنزل علي من بركـات حبك ما يطهر قلبي من كل الأدران الـتي تجذبـه للـدنيا، وتبعـده عنك.. فمن اقترب منك ـ سـيدي ــ نـال التقـوى، وصـار طـاهرا نقيا.. ومن ابتعد عنـك تنجس قلبـه.. ومن تنجس قلبـه لم يـزدد منك إلا بعدا.. ومن ابتعـد عنـك ابتعـد عن ربـه.. ومن ابتعـد عن ربه غرق في المعاصي.. حتى لو بدا في ظاهره تقيا صالحا.

1() رواه البخاري.

المتواضع الأبي

سيدي يا رسول الله.. أيها المتواضع الـذي جعلتـه عبوديتـه لله قريبا من كل المستضعفين المظلومين المحتقـرين.. فكـان سندهم الذي به يفرحون، ومنه يقـتربون، فيسـتغنون بـالاقتراب منه من كل أولئك الذين يستكبرون عليهم، ويذلونهم.

سيدي يا رسول الله.. يا من اخترت العبوديـة على الملـك، والمسكنة على الـترف، ورضـيت بـأن تكـون كالعبيـد والفقـراء والمساكين، تأكـل كـأكلهم، وتلبس كلبسـهم، وتـأوي إلى بيت لا يختلـف عن بيـوتهم.. وتعيش مثلهم، لا بـل دونهم، تجـوع يومـا وتشبع يوما.. فإذا شبعت شكرت، وإذا جعت صبرت.

مـاذا عسـاي أذكـر من تواضـعك، وأنت الـذي رضـيت بـأن تضحي بالكثير من المكاسب المرتبطة بدعوتك في سبيل أولئك العبيد والفقراء والمستضعفين الذين التفوا بك، فحال التفـافهم بك أولئك المستكبرين من الجلوس معك، أو الاستماع إليك.

سيدي.. ائذن لي أن أذكر بعض مشاهد تواضـعك، لأرد بهـا على أولئك الذين لم يعرفوك، فراحوا يرسمون صـورا مشـوهة عنك، هي أقرب إلى صور أبي سـفيان وأبي جهـل منهـا إليـك.. أولئك الذين اتبعوا دين البغاة والمحـرفين، وتركـوا الـدين الـذي أوصيتهم به، دين عترتك الطاهرة، وأصحابك المنتجبين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، وعاشوا حياة التواضع والمسكنة التي أمرتهم بها إلى آخر أيام حياتهم.

لقد حدث بعضهم عنك يصـفك، فقـال: (كـانت في رسـول الله ﷺ خصـال ليسـت في الجبـارين، كـان لا يـدعوه أحمـر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيـه، وإنـه ليخشـى أن تكـون من الصـدقة، وكـان يـركب الحمار عريا، ليس عليه شيء)(1)

وحدث آخر قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي مع أصحابه إذ أخذ رجل منهم، فستره بثوب فلمـا رأى مـا عليـه، رفـع رأسـه، فإذا هو علاه قبلي سـتر، فقـال: (مـه)، فأخـذ الثـوب، فوضـعه، وقال: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (الكهف: 110)(2)

1() رواه ابن سعد.

2() رواه ابن أبي شيبة وعلي بن عبد القدير البغوي.

وحـدث آخـر، قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ، ومن قبلـه من الأنبياء ـ عليهم السلام ــ يمشـون على العصـا، يتوكئـون عليهـا، تواضعا لله عز وجل(1).

وحـدث آخـر، قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ يـركب الحمـار، ويردف بعده، ويجيب دعوة المملوك(2).

وحدث آخر، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقـل اللغـو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي لهما حاجتهما(3).

وحدث آخر، قال: كان رسـول اللـه ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك (4).

وحدث آخر، قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعـود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يـوم بـني قريظـة على حمـار مخطـوم بحبـل من ليـف، على إكـاف من ليف(5).

وحدث آخر، قال: والله ما كان رسول اللـه ﷺ تغلـق دونـه الأبواب، ولا يقـوم دونـه الحجـاب، ولا يغـدى عليـه بالجفـان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كـان بـارزا، من أراد أن يلقى نـبى اللـه ﷺ لقيه، كـان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليـظ، ويـركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده(6).

وذكر آخر أنك كلمت رجلا فأرعد، فقلت له مطمئنا: (هـون عليك، فإني لست بملك، إنمـا أنـا ابن امـرأة من قـريش كـانت تأكل القديدة)(7)

وذكر آخـر أنـك أهـديت إليـك شـاة فجثـوت على ركبتيـك، فأكلت، فقال أعرابي: يا رسول اللـه مـا هـذه الجلسـة؟ فقلت: (إن الله عزوجل جعلني عبدا كريما، ولم يجعلـني جبـارا عنيـدا)

1() رواه ابن الأعرابي.

2() رواه ابن سعد.

3() رواه الدارمي.

4() رواه أبو الشيخ عن ابن عباس، وابن سعد عن أنس.

5() رواه الترمذي.

6() رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر - وقال هذا حديث مرسـل - وقـد جـاء معنـاه في الأحاديث المسندة.

7() رواه ابن ماجه.

(1)

واتفـق الجميـع على أنـك كنت تسـلم على كـل من لقيتـه صغيرا كان أو كبيرا، تعرفه أو لا تعرفه، فعن أنس أنـه مـر على صبيان، فسلم عليهم وقال: (كان النبي ﷺ يفعله)(2)، وعن هنـد بن أبي هالة قال: (كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام)(3)

واتفقوا على أنك كنت تسير مع أي أحد تعرفه أو لا تعرفه، فعن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النـبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت(4).

واتفقـوا على أنـك كنت تـركب الحمـار كمـا يركبـه سـائر العوام، فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك، وكان يـوم بـني قريظـة على حمـار مخطـوم بحبـل من ليـف، على إكـاف من ليف(5).

بل اتفقوا على أنك كنت تردف خلفك.. وقـد ذكـر العلمـاء أسماء من ردفتهم، وهم كثيرون جدا، فقد حدث أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر، وغزا أردف كل يـوم رجلا من أصـحابه (6).

واتفقوا على أنك كنت تلبس لباسا بسـيطا كسـائر النـاس، ففي الحديث: خرج رسول الله ﷺ وقـد عقـد عبـاءة بين كتفيـه فلقيه أعـرابي، فقـال: لم لبسـت هـذا يـا رسـول اللـه؟ فقـال: (ويحك، إنما لبست هذا لأقمع به الكبر)(7)

واتفقوا على أنـك كنت تجيب كـل من دعـاك، ولأي شـيء دعاك، حتى لو كان حقـيرا، فعن ابن عبـاس قـال: كـان رسـول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقـل الشـاة، ويجيب دعوة المملوك، ويقول: (لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو

1() رواه ابن ماجه.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه الترمذي وصححه والبيهقي.

4() رواه البخاري.

5() رواه الترمذي.

6() رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى.

7() رواه ابن عدي.

أهدي إلي كراع لقبلت)(1)

وقد بلغ الأمر ببعض أصحابك المشفقين عليك، لِما رأوه من تواضعك أن يطلبوا منك أن تتخذ محلا خاصا بك، بحيث لا تؤذيك مخالطتهم، فأبيت ذلك بشدة، وقلت له: (لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبى وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)(2)

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ــ سيدي ــ مع دلالته على تواضعك، وإنما كنت تضم إليه مشاركتك لهم في كل أعمالهم، حتى الشديدة منها، بل كنت تستأثر بها من دونهم..

فمن مشاركتك لهم مشاركتهم في بناء المسجد بعد هجرتك إلى المدينة المنورة بالرغم من العناء الكبير الذي لاقيته في هجرتك؛ فعن الحسن قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال: ابنوا لنا مسجدا، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: عرش كعرش موسى، ابنوا لنا بلبن، فجعلوا يبنون ورسول الله ﷺ يعاطيهم اللبن على ما دونه ثوب، وهو يقول:

اللهم إن العيش فاغفر للانصار

عيش الآخ[illegible]

فمر عمار بن ياسر فجعل النبي ﷺ ينفض التراب عن رأسه، ويقول: ويحك يا ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية(3).

وحدث يعقوب بن يزيد قال: كان رسول الله ﷺ يتبع غبار المسجد بجريدة(4).

وفي غزوة الخندق.. بعد أن أحاطت الأحزاب بالمدينة المنورة.. وفي ذلك الموقف الشديد الذي تزلزلت له القلوب.. والذي يكتفي فيه القادة بالجلوس في غرفهم المكيفة للتخطيط وإلقاء الأوامر.. كنت ـ سيدي ـ مع أصحابك تشاركهم في كل صغيرة وكبيرة..

وقد حدثت أم سلمة عن موقف من مواقفك يوم الخندق، فقالت: ما نسيت يوم الخندق، وهو يعاطيهم اللبن، وقد اغبر شعره، تعني النبي ﷺ (5).

1() رواه أبو الشيخ، وابن سعد.

2() رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.

3() رواه ابن عساكر.

4() رواه ابن أبي شيبة.

5() رواه أحمد برجال الصحيح وأبو يعلى.

وحدث البراء قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يحمل التراب على ظهره، حتى حال التراب بيني وبينه وإني لانظر إلى بياض بطنه(1).

بل كنت ـ سيدي ـ في ذلك الموقف الشديد تتكفل بكل عمل شاق يتوقفون عنده، فقد ذكر جابر بن عبد الله أن المسلمين عرض لهم في بعض الخندق كدية عظيمة شديدة بيضاء مدورة، لا تأخذ فيها المعاول، فكسرت حديدهم، وشقت عليهم، فشكوا ذلك إليك، فقمت إليها، وبطنك معصوب بحجر من الجوع، لأنك لم تأكل منذ ثلاثة أيام، فدعوت بإناء من ماء فتفلت فيه، ثم دعوت بما شاء الله أن تدعو به، ثم نضحت من ذلك الماء عليها، فعادت كالكثيب المهيل ما ترد فأسا ولا مسحاة(2).

ولم تكن ــ سيدي ــ في ذلك الموقف الشديد تكتفي بالعمل فقط.. بل كنت تسليهم وترتجز بما يرتجزون، وتضحك كما يضحكون، وقد حدث بعضهم قال: ارتجز المسلمون في الخندق برجل يقال له (جعيل) أو جعالة بن سراقة، وكان رجلا دميما صالحا، وكان يعمل في الخندق، فغير رسول الله ﷺ اسمه يومئذ فسماه عمرا، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

وجعل رسول الله ﷺ لا يقول شيئا من ذلك، إلا إذا قالوا: عمرا، وإذا قالوا: ظهرا، قال: ظهرا)

وحدث البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى وارى التراب بياض بطنه، وكان كثيف الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات لابن رواحة:

واللـه لـولا مـا ولا تصـدقنا ولا
[illegible]
فـأنزلن سـكينة وثبت الاقـدام
[illegible]
والمشركون قد إذا أرادوا فتنة
[illegible]

ورفع بها صوته: أبينا أبينا)(3)

1() رواه محمد بن عمر.

2() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

3() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وكنت ـ سيدي ـ في ذلك الموقف الشديد الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10، 11]، تدعو لهم، وتشجعهم بكل ما أطقت أن تشجعهم به، وقد حدث سهل بن سعد قال: جاءنا رسول الله ﷺ ونحن نحفر في الخندق، وننقل التراب على أكتادنا في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك، فلما رأى ما هم فيه من النصب والجوع قال:(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للانصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا على الجهاد ما

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ــ سيدي ــ.. لم تكن تكتفي بمجرد المشاركة والمواساة والخلطة المجردة.. بل كنت فوق ذلك كله، ومع ذلك كله، تبادر لأي خدمة سواء شوركت فيها أم لم تشارك، وسواء كانت في بيتك أو خارجه، لا تسأل على ذلك أجرا ولا شكرا.

وقد حدث أنس عن بعض مواقفك في ذلك، فقال: ذهبت بعبد الله بن أبي طلحة إلى النبي ﷺ يوم ولد، والنبي ﷺ في عباءة يهنأ بعيرا له(1).

ووصفت عائشة ما كنت تصنع في بيتك، فقالت:(كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم، ويكون في مهنة أهله، يعني خدمة أهله، فإذا سمع المؤذن خرج إلى الصلاة)(2)

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعمل عمل أهل البيت وأكثر ما يعمل للخياطة(3).

وكنت خارج بيتك تقوم بكل ما يحتاجه المسلمون، لا تستكبر عن أي عمل، وخاصة إن ارتبط بوظيفتك التي كلفك الله بها، وهي تعليم الناس، وقد حدث أبو رفاعة تميم بن أسيدٍ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول

1() رواه أبو داود.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن سعد.

الله، رجلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينه لا يـدري مـا دينـه؟ فأقبـل علي رسـول اللـه ﷺ، وتـرك خطبتـه حـتى انتهى إلي، فـأتي بكرسيٍ، فقعـد عليـه، وجعـل يعلمـني ممـا علمـه اللـه، ثم أتى خطبته، فأتم آخرها(1).

وكنت ــ سـيدي ــ لا تـترك هـذه الوظيفـة حـتى في حـال انشغالك بحاجاتك الأساسـية، وقـد حـدث بعضـهم أنـك كنت إذا أكلت طعامـاً لعقت أصـابعك الثلاث، ثم قلت معلمـا لهم: (إذا سقطت لقمة أحـدكم، فليمـط عنهـا الأذى، وليأكلهـا، ولا يـدعها للشيطان وأمر أن تسلت القصعة. قال: فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة)(2)

هذه ـ سـيدي ــ بعض مشـاهد تواضـعك، ولا يمكن معرفـة قيمتها إلا لمن عرف ما آتاك الله من فضـله ومقاماتـه الرفيعـة التي لا يمكن لغيرك أن يعرفها، أو يدركها، أو يصل إليها..

ولا يمكن معرفـة قيمتهـا إلا لمن عـرف مـا آتـاك اللـه من عـزة الإيمـان، وإبـاء المقاومـة؛ فلم تكن ــ سـيدي ــ كأولئـك المتواضعين الذين يستسلمون لكـل شـيء.. بـل كنت متواضـعا للمؤمنين، تخفض جنـاح الـذل والرحمـة لهم، في نفس الـوقت الذي كنت فيه شديدا أبيـا على كـل من يريـد أن يسـاومك على دينك، أو على الحقائق التي جئت بها.

فأسألك ـ سيدي ــ وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يجعلـني من أولئك الذين وصفهم، فقال: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلَاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُمْ رَاكِعُـونَ (55) وَمَنْ يَتَـوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِـزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَـالِبُونَ﴾ [المائـدة: 54 - 56]

أولئـك الـذين لم يرتضـوا أن ينتمـوا لأي حـزب غـير حـزب الله.. ولم يرتضوا قائدا غيرك.. ولا وليـا غـير ذلـك الـذي أمـرت بموالاتـه.. ذلـك الـذي يجمـع بين الذلـة للمؤمـنين والعـزة على

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

الكافرين.

المؤدب الحيي

سيدي يا رسول الله.. يا من أدبك ربك، فأحسن تأديبك، وهذبك فأحسن تهذيبك، فلم يكن لك معلم غير ربك، ولم تكن لك مدرسة غير مدرسته.. لذلك كنت الأمي الذي لم يتعلم من بشر، وإنما تعلم من رب البشر، فصار لذلك سيد البشر.

لقد قرأت القرآن الكريم، فوجدته يخاطبك ويعاتبك ويعلمك، ليكون كل ذلك تأديبا وتهذيبا لنا.. لنرقى إلى سموات القيم العالية والأدب الرفيع الذي بوأك الله إياه.

لقد قرأت قوله تعالى وهو يخاطبك: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: 6]، والتي عقب عليها قوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 9]، فعلمت أن الله تعالى ما أراد بجعلك يتيما إلا تأديبا لك لتشعر بالمستضعفين واليتامى، لأنك ستصير الأب والسند الروحي لهم.

ولهذا امتلأت أحاديثك ووصاياك بالحنان عليهم والرأفة بهم، فلا نجد من اهتم بهم مثلك، ولا من أوصى بهم مثلما أوصيت بهم، فقد كنت تقول مخاطبا أصحابك، والأمة من بعدك: (خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه)(1)

وكنت تقول مخبرا عن فضل المسح على رأس اليتيم عطفا وحنانا ورحمة:(من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كانت له في كل شعرة مرت عليها يده حسنات)(2)

وكنت تعتبر الساعي عليهم كالمجاهد والقائم، فتقول: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله تعالى، وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر)(3)

وكنت تخبر عن أنواع الجزاء العظيم الذي يناله المهتمون باليتامى، والراعون لمصالحهم، فتقول:(ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم الشيطان)(4)، وتقول: (من ضم

1() ابن ماجه.

2() أحمد وغيره.

3() الشيخان.

4() الحارث، والطبراني في الأوسط عن أبي موسى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وهناك حديث آخر قريب منه هو « ما من مائدة أعظم بركة من مائدة

يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه البتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر، ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه)(1)، وتقول: (والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله)(2)، وتقول: (من قبض يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة ألبتة إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له)(3)، وتقول:(أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول ما لك ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي)(4)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي كانت ثمرة لتأديب الله لك، ودعوتك إلى حفظ اليتيم وعدم قهره والإحسان له..

وهكذا ـ سيدي ـ كان القرآن الكريم يؤدبك، ويهذبك بكل كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه..

ولهذا صارت سنتك وهديك هي القرآن الناطق الذي مثل الحقائق والقيم القرآنية أحسن تمثيل.

وقد ذكر تلميذك الأكبر الإمام علي، ذلك الذي كان أكثر الناس صحبة لك، ومعرفة بك تعاهد الله لك بالتأديب والتربية، فقال: (ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره) (5)

وكان يذكر كل حين لأولئك المبدلين والمغيرين عظيم صفاتك وحسن أدبك، وكيف كنت الأسوة الحسنة في كل المجالات، فقال يصف شجاعتك: (كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله، ﷺ، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه) (6)

وعندما طلب منه أن يصفك بدقة، قال: (كان نبيّ اللّه ﷺ أبيض اللّون، مشربا حمرة، أدعج العين، سبط الشعر كثّ

جلس عليها يتيم » رواه لديلمي عن أنس.

1() ابن سعد، والطبراني في الكبير.

2() الطبراني بسند رواته ثقات إلا واحدا ومع ذلك ليس بالمتروك.

3() الترمذي وصححه.

4() أبو يعلى بسند حسن.

5() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٩٢، ص ١٥٧.

6() نهج البلاغة، ج ٤، خطبة ٩، ص ٦١.

اللّحية، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأنّ عنقه إبريق فضّـة، يجـري في تراقيه الذهب، له شعر من لبّته إلى سـرّته، كقضـيب خيـط إلى السـرّة، و ليس في بطنـه و لا صـدره شـعر غـيره. شـئن الكفّين و القـدمين، شـئن الكعـبين، إذا مشـى كأنّمـا يتقلـع من الصخر، إذا أقبل كأنّما ينحدر من صبب، إذا التفت التفت جميعـا بأجمعه كلّه، ليس بالقصير المتردد، ولا بالطويل الممغط، وكان في الوجه تدوير، إذا كان في النـاس غمـرهم، كأنّمـا عرقـه في وجهه اللؤلـؤ، عرقـه أطيب من ريح المسـك، ليس بالعـاجز و لا باللئيم. أكرم الناس عشرة، و ألينهم عريكة، و أجودهم كفّا، من خالطه بمعرفة أحبّه، من رآه بديهة هابه، عزّه بين عينيه، يقــول ناعته: لم أر قبله و لا بعده مثله، ﷺ)(1)

وهكذا كان يصف تواضـعك، ويقـول: (ولقـد كـان ﷺ يأكـل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصـف بيـده نعلـه، ويرقـع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفـه، ويكـون السـتر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: (يـا فلانـة ــ لإحـدى أزواجه ـ غيبيه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها) (2)

وكان يصف موقفـك من الـدنيا، فيقـول: (قـد حقـر الـدنيا وصغرها، وأهون بها وهونهـا، وعلم أن اللـه زواهـا عنـه اختيـارا، وبسطها لغيره احتقارا، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمـات ذكرهـا عن نفســه، وأحب أن تغيب زينتهـا عن عينـه، لكيلا يتخـذ منهـا رياشا، أو يرجو فيهـا مقامـا. بلـغ عن ربـه معـذرا، ونصـح لأمتـه منذرا، ودعا إلى الجنة مبشرا، وخوف من النار محذرا) (3)

ويقــول في خطبــة أخــرى: (أهضــم أهــل الــدنيا كشــحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الـدنيا فـأبى أن يقبلهـا، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شـيئا فحقـره، وصغر شـيئا فصـغره. ولـو لم يكن فينـا إلا حبنـا مـا أبغض اللـه ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شـقاقا للـه، ومحادة عن أمر الله... فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمـات ذكرهـا من نفســه، وأحب أن تغيب زينتهـا عن عينـه، لكيلا يتخـذ منهـا

1() حلية الأبرار في أحوال محمد و آله الأطهار، ج1، ص: 164.

2() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٦٠، ص ٥٩.

3() نهج البلاغة، ج ١، خطبة ١٠٩، ص ٢١٠.

رياشا، ولا يعتقدها قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر. وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده) (1)

ولهذا كان يدعو إلى اعتبارك الأسوة والقدوة، ويرد على أولئك الذين وضعوا الكثير من البدائل التي استبدلوك بها، حتى اعتبر بعضهم كل قومك وصحبك صالحين لأن يكونوا قدوة.. ومن أقوالهم في ذلك في بعض وصاياه: (تأس بنبيك الأطيب الأطهر ﷺ فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضما، ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شيئا فحقره، وصغر شيئا فصغره. ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقا لله ومحادة عن أمر الله) (2)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي وصف فيها أخلاقك وآدابك العظيمة التي أمرنا الله تعالى بالتأسي بها..

لكن المغرضين والحاقدين ـ سيدي ـ راحوا يشوهون جمال صفاتك، وعظيم أدبك، حتى ينفر العقلاء منك، وتكون أسوة للانحراف لا للصلاح، وللصلف لا للأدب..

فائذن لي سيدي أن أذكر لك بعض ما ذكروا حول حيائك، تلك الصفة التي كنت مثالها الأعلى، وأسوتها الحسنة، وكنت تعظمه، وتعتبره من أمهات الأخلاق، لكنهم حرصا على من يعظمونه من الصحابة راحوا ينزعون الحياء منك، ويضعونه لغيرك.

لقد رووا ــ كاذبين ومدلسين ــ أنك كنت مضطجعا في بيتك، كاشفا عن فخذيك، فاستأذن أبو بكر فأذنت له، وأنت على تلك الحال، ثم استأذن عمر، فأذنت له، وأنت على تلك الحال، ثم استأذن عثمان، فرحت تسوي ثيابك، وتستر فخذك، فعندما سئلت عن ذلك، ذكرت أنك استحييت منه، وقلت: (ألا

1() نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٦٠، ص ٥٨.

2() نهج البلاغة، ص ٥٨ ـ ٦٠.

أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)[1]

لقد تلقف المدلسون والمشوهون لك هذا الحديث كما يتلقفون القرآن الكريم، يأبون أن يتكلم فيه أحد، مع أنهم يوردون الأحاديث الكثيرة التي تثبت أن الفخذ عورة[2].. وأن كشفها حرام.. ومع ذلك يرضون أن ترتكب الحرام في سبيل أن ينال عثمان تلك المنقبة.

فإن جادلهم أحد في شأنك، وراح يذب عنك تلك التهمة العظيمة التي اتهموك بها، قالوا: ولكن الحديث في صحيح مسلم.. وهم لا يعلمون أن صحيح مسلم وصحيح البخاري وكل كتب الدنيا فداء لشعرة من شعراتك.. فأيهما أعظم أن يرد حديث قد يتوهم راويه أو يخطئ كاتبه، أو أن تمس كرامتك، ويمس أعظم ميزة فيك، وهي أخلاقك العالية التي لا يضاهيها أي كان صحابيا كان أو نبيا أو حتى ملاكا مقربا.. فكيف تتصورون أن صحابيا ــ لا يرون عصمته ــ يكون أعظم خلقا منك؟

وليت الأمر توقف على هذا.. بل إنهم ــ سيدي ــ راحوا يصورونك في مشاهد لا يرضونها لأنفسهم، ولا لمن يجلونهم من الناس، حرصا على إثبات المناقب لمن يرغبون في تحسين صورهم، ولو على حسابك، ومن الأمثلة على ذلك ما رووه عن عائشة، وأنها قالت: كان رسول الله ﷺ جالسا فسمعنا لغطا وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن والصبيان حولها، فقال: (يا عائشة تعالي فانظري)، فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: (أما شبعت، أما شبعت؟). قالت: فجعلت أقول لا لأنظر منزلتي عنده إذ طلع عمر، قالت: فارفض الناس عنها: قالت: فقال رسول الله ﷺ: (إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر)، قالت: فرجعت[3].

هل رأيت سيدي تلك الصورة المشوهة التي صوروك بها.. لقد ذكروا أنه كانت هناك جارية.. وأنها عاقلة بالغة.. بدا لها أن

1() رواه مسلم.

2() ومنها ما روي عن محمد بن عبد الله بن جحش أن النبي ﷺ مر على معمر بفناء المسجد محتبيا كاشفا عن طرف فخذه فقال له النبي ﷺ: (خمر فخذك يا معمر فإن الفخذ عورة)، رواه أحمد ورواه الطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات.

3() رواه الترمذي.

ترقص كما يرقص الحبشة في الشارع.. وأمام الناس.. وكان الصبية يلتفون حولها، وهي بتلك الحالة.. وأنك لمحتها، فأسرعت إلى عائشة، وطلبت منها أن تحضر مجلس الرقص.. وعندما حضرت وضعت عائشة ـ بحسب الحديث ـ ذقنها على منكبك.. وأمام الناس.. وبعد مدة طلع عمر فانفض الناس عن الجارية خوفا منه.. مع أنك كنت معهم.. ومع ذلك لم يشعروا بشيء..

وليت الأمر توقف عند هذا.. بل إنهم ذكروا أنك عندما رأيت الناس يفرون لحضور عمر قلت معظما له ومثنيا عليه: (إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر)

وهذا عجب عجاب.. وتصور المشهد وحده كاف لضرب كل القيم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، التي تمثلك ـ سيدي ـ أحسن تمثيل.

ولم يكتفوا بهذا سيدي في تشويهك، بل راحوا يروون الروايات الكثيرة التي تجعلك فاحشا ومتفحشا، لا تختلف عن قومك الأجلاف الغلاظ الذين لم ينالوا حظهم من التأديب الذي أدبك به ربك(1).

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن يجعلني من الذابين عنك، الرادين لتلك التشويهات.. فلا يمكن للأمة أن تعرفك، أو تحسن علاقتها بك، وهي تعتقد في تلك الروايات المريضة التي وضعها مرضى القلوب ليشوهوك، ويحولوا بين العقلاء وبينك.

وأسألك سيدي أن أكون من المتأدبين على يديك، الراعين للحقوق والأخلاق التي أمرت برعايتها، حتى أكون أقرب الناس إليك في الدنيا والآخرة، فلا فوز إلا لمن كان قريبا منك.

1() ذكرنا الكثير من الأمثلة على ذلك، ورددنا عليها في كتاب [رسول الله ﷺ والقلوب المريضة]، وذكرنا فيه القاعدة التي نتبناها في الموقف من أمثال تلك الأحاديث.

الذاكر النجي

سيدي يا رسول الله.. أيها الـذاكر الـذي لا يغفـل.. والعابـد الذي لا يفتر.. والخاشع الـذي لا يتيـه قلبـه في أوديـة الأمـاني.. والنجي(1) المنــاجي الــذي لا يكــف عن الحــديث إلى ربــه، والحضور بين يديه.

لقد رحت ـ سيدي ــ إلى مـا ورد في سـنتك المطهـرة من الأدعية المحفوظة عنك، أرتلها، وأقارنها بكل مـا ورد في تـراث العالم من أدعية؛ فوجدت أن زمام التواصل مع الله كلـه بيـدك، وأن كل من يريد أن يتعلم كيف يناجي ربه يحتاج إلى التعلم في مدرستك.. فأنت أستاذ الذكر والـدعاء، وشـيخ مريـدي الحضـرة الإلهية ودار البقاء.. ومن لم يتعلم على يديك تلـك الفنـون ظـل جاهلا في التعامل مع ربه، مسيئا للأدب معه.

فـإذا ضـممت إلى ذلـك ــ سـيدي ــ مـا ورد عن عترتـك الطـاهرة الـتي ورثتهـا علومـك وأحوالـك وآدابـك، ثم أوصـيت باتباعها، وركوب سفينة نجاتها، وجـدت من الأدعيـة والمناجيـات والأذكار، التي لم تكن سوى أثر من آثـارك، وقبس من أنـوارك، مـا لا يمكن عـده ولا حصـره.. وبـذلك تكـون هـذه الأمـة هي المتفردة بكل الوسائل المؤدية إلى الحضور مع اللـه، ولا يوجـد في الأمم من يضاهيها فيه أو يدانيها.

ولذلك كان هذا الجانب وحـده كافيـا للعقلاء والبـاحثين عن الله، ليستدلوا به على نبوتك، واستمرارها، فأول أهـداف النبـوة وأعظمها الدلالة على الله، والتواصل معه، والـذكر والمناجيـات هي الحبال الموصولة من الله لعباده لتحقيق ذلك..

ولذلك كنت ــ سـيدي ــ من أعظم الناصـحين لنـا بـذكر اللـه ودعائه واللجوء كل حين إليه، بل إنك اعتـبرت حياتنـا متوقفـة على الذكر.. لا على مـا نتنفسـه من هـواء، أو نشـربه من مـاء.. فالمـاء والهواء يغذيان الطين، ويمدانها بالحيـاة، أمـا ذكـر اللـه، فهـو غـذاء الروح ومددها، ولا حياة لمن لم تحيـا روحـه.. لقـد قلت معـبرا عن ذلك: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يـذكر ربـه مثـل الحي والميت) (2)

1() المراد بالنَّجي: المُناجِي، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: 80]، أي يناجي بعضهم بعضا.

2() رواه البخاري ومسلم.

ولهذا كنت تستعمل كل أساليب الترغيب والترهيب لتحض القلوب والألسن على كثرة ذكر الله، فتقول لها ـ مرغبا في جوائز الله المعدة للذاكرين ــ: (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده) (1)

وتقول لأصحابك أثناء مروركم في طريق مكة على جبل جمدان: (سيروا هذا جمدان، سبق المفردون)، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قلت: (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) (2)

وترغب الفقراء إلى الله، الذين لا يريدون من الله إلا الله، بأن الله يذكرهم حالما يذكرونه، وكيفما يذكرونه، وتقول في ذلك: (قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)(3)

وهكذا كنت ترشد من يريد من الأشياء عصارتها، ومن الطرق أخصرها، إلى ذكر الله.. فقد جاءك رجل، فقال: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، فقلت له: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله)(4)

وهكذا كنت ترشد من يريد أن يظفر بالخير بجميع أصنافه، وبالصلاح بجميع أنواعه، وبالحسنات بجميع أشكالها إلى ذكر الله، فتقول له: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى)(5)

ولم تكتف بذلك ــ سيدي ــ بل إنك وضعت لنا الكثير من الأذكار التي تعمق جميع جوانب الإيمان، وبأجمل صياغة وأرقها.. فمن داوم عليها وصل إلى الله، وبأقصر الطرق، وأيسرها، وأضمنها.

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه الترمذي وابن ماجه..

5() رواه الترمذي وابن ماجه.

ومن الأمثلة على ذلك ـ سيدي ـ تلك الصيغ التي علمتنا فيها كيف نسبح ربنا وننزهه ونقدسه، في نفس الوقت الذي نحمده ونعظمه ونمجده ونذكر كمالاته.. وهي صيغ كثيرة كافية لملأ القلب بكل هذه المعاني الإيمانية.

ومنها ما ذكرت لصاحبك أبي ذر، حين قلت له: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟)، ثم قلت: (إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)(1)

وقلت: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)(2)

وقلت: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)(3)

وكنت تقول مرغبا فيها: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة)(4)

وروي أن ناسا من أصحابك الفقراء شكوا إليك عدم قدرتهم إلى الصدقة، فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، ولا نتصدق، فقلت لهم: (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة)(5)

وروي أن أعرابيا جاءك، فقال: علمني كلاما أقوله؟ فقلت: قل: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)، قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ فقلت: قل: (اللهم

1() رواه مسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه مسلم.

5() رواه مسلم.

اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني)[1]

وهكذا كنت تذكر لهم الكثير من صيغ الذكر، وترغبهم فيها بكل أصناف الترغيب، ومن ذلك قولك: (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[2]

وكنت تقول لهم: (ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفرت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر)[3]

وكنت تقول: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)[4]

وغيرها من الأذكار الكثيرة التي لا يزال طالبو الله ومريدوه في كل العالم، وفي كل الأزمنة يترددون عليها، ويرددونها، ليترقوا بها إلى منازل القرب التحققية والتخلقية.

ولم تكتف بذلك ـ سيدي ــ بل إنك وضعت لنا منظومة كاملة من الأذكار والأدعية، ولكل المناسبات، حتى نرتبط مع الله في جميع أحوالنا، مثلما كنت مرتبطا به في جميع أحوالك.

ومن الأمثلة عنها تلك الأذكار التي علمتنا فيها كيف نطبق تلك الأوامر الإلهية التي تدعونا إلى الذكر صباحا ومساء، كقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الانسان: 25)، وقوله: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (الروم:17)

ومن الأمثلة عنها ما ورد في قولك: (ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث

1() رواه مسلم.

2() رواه الترمذي.

3() رواه أحمد والترمذي.

4() رواه البخاري ومسلم.

مرات، لم يضره شيء)(1)

ومنها هذا الدعاء الجميل الجامع الذي تقول فيه: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، والذي سميته]سيد الاستغفار[، وذكرت الجزاء الذي أناطه الله به، فقلت: (من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)(2)

ومنها هذا الدعاء الخاشع: (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر) (3)

وغيرها من الأذكار والأدعية الكثيرة التي خصصت بها ذينك الوقتين المباركين.

وهكذا تركت لنا ـ سيدي ـ ثروة كبيرة من الذكر والدعاء ترتبط بكل الجوانب.. منها القصير ومنها الطويل حتى تراعي الظروف المختلفة لأصناف الناس، فمن الأدعية المأثورة عنك في السفر ما حدث به بعضهم عنك، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج في السفر قال: (اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك الضبنة في السفر، اللهم إني أعوذ بك من وعث السفر، كآبة المنقلب، اللهم اقبض لنا الأرض، وهون علينا السفر)(4)

وحدث آخر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى سفر قال: (اللهم بلغ بلاغا يبلغ خيرا، ومغفرة منك ورضوانا، بيدك الخير، إنك على كل شئ قدير، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم هون علينا السفر، واطو لنا الأرض، اللهم إني أعوذ

1() رواه الترمذي.

2() رواه البخاري.

3() مع تبديل الصيغة بقوله: (: أصبحنا وأصبح الملك لله) رواه مسلم.

4() رواه مسدد وابن أبي شيبة وأحمد، والطبراني، والبزار.

بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب)(1)

وحدث آخر قال: لم يرد رسول الله ﷺ سفرا قط إلا قال حين ينهض من جلوسه: (اللهم بك انتشرت، وإليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم أنت رجائي، اللهم اكفني ما أهمني، وما لا أهتم له، وما أنت أعلم به مني، وزودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير حيث ما توجهت)(2)

ومن الأدعية المأثورة عنك عند الدخول إلى السوق قولك: (باسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة)(3)

ومن الأدعية المأثورة عنك عند الدخول إلى البيت قولك: (اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا.. الحمد لله الذي كفاني وآواني والحمد لله الذي أطعمني وسقاني والحمد لله الذي من علي أسألك أن تجيرني من النار)(4)، ثم تسلم على أهلك.

ومن الأدعية والأذكار المأثورة عنك عند الطعام ما ورد في قولك: (إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى في أوله، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره)(5)

وقولك: (من أكل أو شرب فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه)(6)

وقولك عند الانتهاء من الطعام: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين)(7)، وقولك: (اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت واجتبيت فلك الحمد على ما أعطيت)(8)،

1() رواه أبو يعلى برجال ثقات.

2() رواه أبو يعلى.

3() رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم.

4() ذكره النووي في الأذكار.

5() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

6() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

7() رواه أبو داود والترمذي.

8() رواه النسائي.

وقولك: (الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا)(1)

ومن الأدعية والأذكار المأثورة عنك عند النوم قولك: (اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شئ، وإله كل شئ، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا ﷺ عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، اللهم أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي إثما أو أجره على مسلم)(2)

وقولك: (باسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي وأخسئ شيطاني، وفك رهاني واجعلني في الندى الأعلى)(3)

وقولك: (اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وبكلماتك التامات، من كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم، اللهم لا ينهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك)(4)

وقولك: (اللهم أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، اللهم لا أستطيع ثناء عليك ولو حرصت، لكن أنت كما أثنيت على نفسك)(5)

وقولك: (اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، إله أو رب كل شئ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شئ أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شئ، وأنت الآخر، فليس بعدك شئ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ، اقض عنا الدين واغننا من الفقر)(6)

وقولك: (اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شئ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شئ،

1() رواه البخاري.

2() رواه الطبراني.

3() رواه أبو داود.

4() رواه أبو داود.

5() رواه الطبراني.

6() رواه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مردويه، والبيهقي.

أنت آخـذ بناصـيته، أنت الأول فليس قبلـك شـئ، وأنت الآخـر فليس بعـدك شـئ، وأنت الظـاهر ليس فوقـك شـئ، اقض عنـا الدين، واغننا من الفقر)(1)

ومن الأدعيـة والأذكـار المـأثورة عنـك عنـد قيامـك للتهجـد قولــك: (اللهم رب جبرائيــل وميكائيــل وإســرافيل، فــاطر الســماوات والأرض، عــالم الغيب والشــهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحـق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)(2)

وقولــك بعــدها: (اللهم لــك الحمــد، أنت قيم الســماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمـد، لـك ملـك السـماوات والأرض ومن فيهن، ولــك الحمــد، أنت نــور الســماوات والأرض، ولــك الحمد، أنت ملـك السـماوات والأرض، ولـك الحمـد أنت الحـق، ووعدك الحق، ولقاؤك حـق، وقولـك حـق، والجنـة حـق، والنـار حــق، والنــبيون حــق، ومحمــد حــق، والســاعة حــق، اللهم لــك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصـمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)(3)

وقولــك بعــدها: (لا إلــه إلا أنت ســبحانك، اللهم أســتغفرك لذنوبي، وأسـألك رحمتـك، اللهم زدني علمـا ولا تـزع قلـبي بعـد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)(4)

وغيرهــا من الأذكــار والأدعيــة الكثــيرة الــتي ألفت فيهــا المصنفات الطويلة.. بالإضافة إلى تعليمك لنا كيف نستعيذ بالله من كل ما يمكن أن يؤذينا.. حتى نصحب الله في كـل أحوالنـا.. وحتى لا تؤثر فينا الظروف المختلفـة، لنبتعـد عن ربنـا، ونتعلـق بما سواه، أو نرى نفعنا عند غيره.

فقد علمتنا كيف نسـتعيذ باللـه من الكسـل، وسـوء القضـاء ودَرْك الشقاء، وشماتة الأعداء، وجَهْد البلاء، والعجز والهرم والمأثم والمغرم، وشر ما خلـق اللـه، وضَـلَع الـدَّين وغَلَبـة الرجـال، وشـر

1() رواه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مردويه، والبيهقي.

2() رواه مسلم.

3() رواه البخاري.

4() رواه أبو داود.

الغنى والفقر والقلة والذِّلَّة، وزوال النعمة وتحويل العافية، وفُجاءة النِّقمة وجميع سخط الله، والشِّقاق والنفاق وسوء الأخلاق، والجوع والخيانة، وعلماً لا ينفع وقلباً لا يخشع ونفساً لا تشبع ودعاءً لا يُسمع، وشر السمع وشر البصر وشر اللسان وشر القلب وشر المنيِّ، والهدم والتردِّي والغرق والحرق، وتخبُّطَ الشيطان والموت في سبيل الله مدبراً، والموت لديغاً، والبرص والجنون والجُذام وسئ الأسقام، ومنكراتِ الأخلاق والأهواء والأعمال.

كما علمتنا ـ سيدي ـ كيف ندعو الله، ولكل حاجاتنا، ومنها هذا الدعاء الرقيق: (اللهم إني أسألك خير المسألة وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العمل، وخير الثواب، وخير الحياة، وخير الممات، وثبتني وثقل موازيني وأحق إيماني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئتي، وأسألك الدرجات العلا من الجن.. اللهم إني أسألك فواتح الخير، وخواتمه، وجوامعه، وأوله، وآخره، وظاهره، وباطنه والدرجات العلا من الجنة.. اللهم إني أسألك خلاصا من النار سالما، وأدخلني الجنة آمنا، اللهم إني أسألك أن تبارك لي في نفسي، وفي سمعي، وفي بصري، وفي روحي، وفي خلقي، وفي خليقتي، وأهلي، ومحياي، وفي مماتي.. اللهم تقبل حسناتي، وأسألك الدرجات العلا من الجنة آمين)(1)

ومنها: (اللهم متعني بسمعي، وبصري، واجعلهما الوارث مني، وعافني في ديني، واحشرني على ما أحييتني وانصرني على من ظلمني، حتى تريني منه ثأري، اللهم إني أسلمت ديني إليك، وخليت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت برسولك الذي أرسلت، وكتابك الذي أنزلت)(2)

ومنها: (اللهم اجعلني أخشاك حتى كأني أراك أبدا حتى ألقاك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، واجعل غنائي في نفسي، وامتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من ظلمني، وأرني فيه ثأري، وأقر بذلك عيني)(3)

1() رواه الطبراني برجال ثقات.

2() رواه الطبراني.

3() رواه الطبراني والبزار.

ومنها: (اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، حـتى أعلم أنـه لا يصيبني إلا ما كتب لي، ورضا من المعيشة بما قسمت لي)(1)

ومنها: (اللهم بارك لي في ديني الذي هو عصمة أمـري، وفي آخرتي الـتي إليهـا مصـيري وفي دنيـاي الـتي فيهـا بلاغي، واجعـل حياتي زيادة في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر)(2)

ومنها: (اللهم اجعلني شكورا، واجعلـني صـبورا واجعلـني في عيني صغيرا، وفي عين الناس كبيرا) (3)

ومنها: (اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمــري، ومـا أنت أعلم بـه مـني، اللهم اغفـر لي جـدي وهـزلي، وخطـئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسـررت ومـا أعلنت، ومـا أنت أعلم بـه مـني، أنت المقـدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شئ قدير)(4)

ومنها: (اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلــبي من الخطايـا كمـا نقيت الثـوب الأبيض من الـدنس، وباعـد بيـني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب)(5)

ومنها: (اللهم طهرني بالثلج والبرد والمـاء البـارد، اللهم طهـر قلبي من الخطايـا كمـا طهـرت الثـوب الأبيض من الـدنس، وباعـد بيـني وبين ذنـوبي كمـا باعـدت بين المشـرق والمغـرب اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع ودعـاء لا يسـمع، وعلم لا ينفع، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع اللهم إني أسألك عيشة نقية، وميتة سوية، ومردا غير مخز ولا فاضح)(6)

ومنها: (اللهم إني ضعيف فقـو في رضـاك ضـعفي، وخـذ إلى الخير بناصيتي، واجعـل الإسـلام منتهى رضـائي، اللهم إني ضـعيف فقوني، وإني ذليل فأعزني، وإني فأغنني، اللهم بلغني من رحمتـك ما أرجو من رحمتك، واجعل لي ودا عند الذين آمنوا وعهدا عنـدك) (7)

1() رواه الطبراني.

2() رواه البزار برجال ثقات.

3() رواه البزار برجال ثقات.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه أبو يعلى، ورواه مسلم والترمذي والنسائي مختصرا.

7() رواه ابن الضحاك.

ومنها: (اللهم إني أسـألك الطيبـات، وتـرك المنكـرات، وحب المسـاكين، وأن تتـوب علي، وإن أردت بعبـادك فتنـة أن تقبضـني إليك غير مفتون)(1)

ومنها: ((اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلـق أحيـني مـا علمت الحياة خـيرا لي، وتوفـني إذا علمت الوفـاة خـيرا لي، اللهم أسـألك خشـيتك في الغيب والشـهادة وكلمـة الإخلاص في الرضـا والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمـا لا ينفـذ، وقرة عين لا تنقطـع وأسـألك الرضـى بالقضـاء، وبـرد العيش بعـد الموت، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بـك من ضراء مضرة، وفتنة مضلة، اللهم زينا بزينـة الإيمـان واجعلنـا هـداة مهديين)(2)

ومنها: (اللهم أصلح لي في ديني الـذي هـو عصـمة أمـري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحيـاة لي زيـادة في كـل خـير، واجعـل المـوت راحة لي من كل شر)(3)

ومنهـا: (اللهم ارزقـني حبـك، وحب من يحبـك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله قـوة لي فيمـا تحب)(4)

ومنهـا: (اللهم انفعـني بمـا علمتـني، وعلمـني مـا ينفعـني، وارزقني علما تنفعني به)(5)

ومنها: (اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعـذاب الآخـرة)(6)، (ومن كـان ذلـك دعـاءه مـات قبـل أن يصيبه البلاء)(7)

ومنهـا: (اللهم احفظـني بالإسـلام قائمـا، واحفظـني بالإسـلام قاعدا، واحفظني بالإسـلام راقـدا، لا تشـمت بي عـدوا ولا حاسـدا،

1() رواه البزار بسند حسن.

2() رواه النسائي وابن ماجه، والحاكم.

3() رواه مسلم.

4() رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

5() رواه الحاكم، والنسائي.

6() رواه ابن حبان، والحاكم.

7() زيادة للطبراني.

اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك وأعوذ بك من كـل شـر خزائنه بيدك أنت آخذ بناصيته)(1)

ومنهـا: (اللهم اجعلـني أعظم شـكرك، وأكـثر ذكـرك، وأتبـع نصيحتك، وأحفـظ وصـيتك.. اللهم أقلـني عـثرتي، واسـتر عـورتي، واكفني، وأعـني على من ظلمـني، وأرني ثـأري.. للهم إنـك لسـت بإله استحدثناه، ولا برب ابتدعناه ولا كـان لنـا قبلـك إلـه نلجـأ إليـه ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد، فنشك فيك ــ أو نشـركه فيـك ـ تباركت وتعاليت إنك أنت التواب الرحيم)(2)

ومنها: (اللهم لا تسلط علي عـدوا أبـدا، ولا تشـمت بي عـدوا أبـدا، ولا تـنزع مـني صـالحا اكتسـبته أبـدا، وإذا أردت فتنـة قـوم، فتوفني إليك غير مفتـون، وأرني الحـق حقـا أتبعـه، وأرني المنكـر منكرا أجتنبه، ولا تجعل شيئا من ذلك علي اشتباها فأتبع هواي بغير هدى منك، وأتبع هواي محبتك ورضـا نفسـك، واهـدني لمـا اختلـف فيه من الحب بإذنك)(3)

ومنها: (لبّيك اللهمّ لبّيك وسعديك، والخير في يـديك ومنـك وبك وإليك، اللهمّ ما قلت من قـول أو نـذرت من نـذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديـه، مـا شـئت كـان، ومـا لم تشـأ لم يكن، ولا حول ولا قوّة إلّا بك، إنّك على كـلّ شـيء قـدير، اللهمّ وما صلّيت من صلاة فعلى من صلّيت، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت، إنّـك أنت وليّي في الـدّنيا والآخـرة، توفّـني مسـلما وألحقـني بالصّـالحين، أسـألك اللهمّ الرّضـا بعـد القضـاء، وبـرد العيش بعد الممات ولذّة نظر إلى وجهك، وشوقا إلى لقائك من غير ضرّاء مضـرّة ولا فتنـة مضـلّة، أعـوذ بـك اللهمّ أن أظلم أو أظلم، أو أعتدي أو يعتدى عليّ، أو أكتسـب خطيئـة محبطـة، أو ذنبـا لا يغفـر، اللّهمّ فـاطر السّـماوات والأرض عـالم الغيب والشّهادة ذا الجلال والإكرام، فإنّي أعهـد إليـك في هـذه الحيـاة الدّنيا وأشـهدك وكفى بـك شـهيدا، أنّي أشـهد أن لا إلـه إلّا أنت وحدك لا شريك لك، لك الملك ولك الحمد وأنت على كلّ شيء

1() رواه الحاكم، عن ابن مسعود وابن حبان.

2() رواه ابن الضحاك، وأحمد.

3() رواه ابن الضحاك.

قدير، وأشهد أنّ محمّدا عبدك ورسولك، وأشهد أنّ وعدك حـقّ، والجنّـة حـقّ، والسّـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وأنت تبعث من في القبـور، وأشـهد أنّـك إن تكلـني إلى نفسـي؛ تكلـني إلى ضـيعة وعورة وذنب وخطيئة، وإنّي لا أثق إلّا برحمتك فـاغفر لي ذنـبي كلّـه إنّـه لا يغفـر الـذّنوب إلّا أنت، وتب عليّ إنّـك أنت التّـوّاب الرّحيم)(1)

وغيرها من الأدعية الكثيرة الـتي لا يـزال محبيـك ومتبعيـك يرددونها، فيشعرون بالقرب من الله، ومنك، ويتقون بها من كل ذلـك الـدجل والخرافـة الـذي حـاول المحرفـون أن يغـيروا بهـا دينك.. لكن الله شاء أن يحفظه بكتابـه، وبتلـك الآثـار العظيمـة المروية عنك، وعن أهل بيتك.

فأسـألك ــ سـيدي ــ وأتوسـل بـك إلى اللـه أن أكـون من الذاكرين الله كثيرا، أولئك الذين لا تفـتر ألسـنتهم وقلـوبهم عن ذكر ربهم.

وأسألك ـ سيدي ـ أن ينيلني اللـه من الأحـوال والفضـائل ما وعد به الذاكرين، حـتى يكـون ذكـري مرقـاة أرقى بـه إليـه، ومعراجا أرحل به من عـالم نفسـي الأمـارة بالسـوء، إلى عـالم النفس المطمئنة بذكر الله، الراضة عن اللـه، المرضـية بفضـل الله.

1() رواه أحمد والطبراني.

العفو الحليم

سيدي يا رسول الله.. يا من أدبه ربه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته.. وكان من تأديبه له قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89]

لقد رحت أقرأ هذه الكلمات المقدسة في سفر حياتك؛ فوجدتها منطبعة بحروفها في كل لحظة من لحظاتها.. أو موقف من مواقفها.. حتى تلك المواقف الشديدة التي تهتز لها القلوب.. ويأبى الطبع إلا أن يغلب صاحبه فيها.. لكنك ــ يا سيدي يا رسول الله ـ كنت تملك زمام نفسك، وتواجهها بما أدبك ربك من الصفح الجميل.

لا أزال أرى بعيني ذلك الأعرابي الذي راح يدنس المسجد.. فهم به الأصحاب لينهروه.. لكنك نهرتهم بكل لطف.. وقلت لهم بكل هدوء: (دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء فإنّما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين) (1)

ولا أزال أرى بعيني ثمامة بن أثال، ذلك الذي حاربك، فلما تمكنت منه، وأصبح أسيرا لديك، خرجت إليه، وقلت له: (ما عندك يا ثمامة؟) فقال: (عندي خير يا محمّد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت).. فأطلقته من غير أن تطالب بفدية ولا مال.. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثمّ دخل المسجد، وقال مخاطبا لك، بعد أن أسرت قلبك بصفحك وجميل أخلاقك: (أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أنّ محمّدا رسول اللّه. يا محمّد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ. واللّه ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ. واللّه ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ) (2)

ولا أزال أرى ذلك الذي سل سيفه عليك، ليقتلك، فلما تمكنت منه بفضل الله عفوت عنه، وتركته يعود إلى أهله من غير أن تفرض عليه أن يصحبك، أو أن تكرهه على الإسلام..

---

1 () البخاري- الفتح 10 (6128) ومسلم (284)

2 () مسلم (1764)

لقد حدث حديثه جابر بن عبد الله، فقال: غزونا مع رسول اللـه ﷺ قبل نجد، فلمّـا قفـل رسـول اللـه ﷺ قفـل معـه، فـأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق النّاس يستظلّون بالشّجر. فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بهـا سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيّ فقال: (إنّ هذا اخترط عليّ سيفي وأنـا نـائم، فاسـتيقظت وهـو في يده صلتا، فقال: من يمنعك منّي؟ فقلت: (الله) (ثلاثا)، ولم يعاقبه وجلس) (1)

ولا أزال أرى أولئـك اليهـود والمنـافقين الـذين كـانوا يسخرون منك كل حين، فلم تكن تبـادلهم إلا بصـفحك الجميـل، وقـد روي عن عائشـة أنهـا قـالت: دخـل رهـط من اليهـود على رسول الله ﷺ فقالوا: (السّام عليكم)، فهمتها، فقلت: (وعليكم السّام واللّعنة)، فقال رسول الله ﷺ: (مهلا يـا عائشـة، إنّ اللـه يحبّ الرّفق في الأمر كلّه)، فقلت: يا رسول اللـه، أو لم تسـمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: (قد قلت: وعليكم) (2)

ولا أزال أرى ذلـك الموقـف الـذي اختـبرك فيـه بعضـهم، ليتقين من نبوتك.. وقد حدث عنه عبـد اللـه بن سـلام قـال: إن الله تبارك وتعـالى لمـا أراد هـدى زيـد بن سـعنة، قـال زيـد بن سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقـد عرفتهـا في وجـه محمـد ﷺ حين نظـرت إليـه، إلا اثنـتين لم أخبرهمـا منـه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليـه إلا حلمـا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، قال: فخرج رسول اللـه ﷺ من الحجـرات، ومعـه علي بن أبي طـالب، فأتـاه رجـل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قريـة بـني فلان قـد أسـلموا ودخلـوا في الإسـلام، وكنت أخـبرتهم أنهم إن أسـلموا أتاهم الرزق رغـدا، وقـد أصـابهم شـدة وقحـط من الغيث، وأنـا أخشى، يا رسول الله، أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلـوا فيـه طمعـا، فـإن رأيت أن ترسـل إليهم من يغيثهم بـه فعلت، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل جانبه، أراه عمر، فقال: مـا بقي منه شيء يا رسول الله، قال زيـد بن سـعنة: فـدنوت إليـه فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعـني تمـرا معلومـا من حائـط

1() البخاري- الفتح 6 (2910) ومسلم (843)

2() البخاري- الفتح 10 (6024) ومسلم (2163)

بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان، قلت: نعم، فبايعني ﷺ، فأطلقت هميانى، فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، قال: فأعطاها الرجل وقال: اعجل عليهم وأغثهم بها، قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما صلى على الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب بمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال: ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي هذا عنقك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا من غيره مكان ما رعته، قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: نعم، الحبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟ فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا، وأشهدك أن شطر مالي فإني أكثرها مالا صدقة على أمة محمد ﷺ.. وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر) (1)

ولا أزال أذكر أولئك العتاة الغلاظ من قومك الذين حاربوك لأكثر من عشرين سنة، لكنك بمجرد أن تمكنت منهم، قلت لهم: (ماذا تظنّون أنّي فاعل بكم؟)، فقالوا (خيرا، أخ كريم

1() رواه الطبرانى (5/222 رقم 5147) قال الهيثمى (8/240): رجاله ثقات. والحاكم (3/700، رقم 6547) وقال: صحيح الإسناد.

وابن أخ كـريم)، فقلت لهم: (لا تـثريب عليكم يغفـر اللـه لكم.. اذهبوا فأنتم الطّلقاء)(1)

وحكى ابن مسعود حالك، فقال: (كـأنّي أنظـر إلى رسـول الله ﷺ يحكي نبيّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسـح الـدّم عن وجهه ويقول: (ربّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون)(2)

بعـد أن عـرفت كـل هـذا وغـيره ممـا يعجـز اللسـان عن وصفه، عرفت عظم الكيد الذي كادك به المحرفون المدلسـون الذين راحوا يتهمونك بأنك قلت: (اللهم إنما أنا بشـر فأيمـا عبـد سببته أو جلدته أو دعوت عليه، وليس لـذلك أهلا، فاجعـل ذلـك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة)(3)

ولم يكن قصدهم من هـذا الحـديث الـذي كـذبوه عليـك إلا تبرئة أولئك الطلقاء من أصحاب الملك العضوض الذين حــذرت منهم، ونبهت الأمــة إلى خطـرهم.. وبـدل أن يأخــذوا أحاديثـك عنهم مأخذ الجد، ويعملوا بها، راحوا يتهمونـك بأنـك لم تقلهـا إلا في حالة غضب.. وأنك في تلك الحال لم تكن واعيا لما تقول.

ولـو أن أولئـك الـذين قبلـوا هـذا الحـديث، واتهمـوك بأنـك تسب وتلعن من لا يستحق السـباب واللعنـة، عرفـوك، وعرفـوا صـفحك الجميـل، وخلقـك الرفيـع، وأنـك أكـبر من أن تصـيبك نـزوات الغضـب الـتي تصـيب من اسـتحوذت عليهم نفوسـهم وشياطينهم.. لعلموا أنه يستحيل عليك أن تقول ذلك.

وكيـف تقولـه، وأنت نفسـك قـد حـدثتهم.. وهم رووا عنـك قولك لبعض أصحابك عندما قال لك: (يا رسـول اللـه، أكتب مـا أسمع منك؟)، فقلت له: (نعم)، فقال: (في الرضا والسـخط؟)، فقلت: (نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقا) (4)

بـل إنهم لـو عرضـوا ذلـك الحـديث على القـرآن الكـريم، وسمعوا منه قوله تعالى في حقك: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَـا غَـوَى (2) وَمَـا يَنْطِـقُ عَنِ الْهَـوَى (3) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى (4)﴾ [النجم: 2 -ـ 4] لعلموا أنك أرفع من أن يصـيبك ذلـك الضـعف الذي يصيب غيرك، فيتكلم في حال غضبه بما لا يرضي الله.

1() رواه ابن سعد 2/ 141- 142.

2() البخاري- الفتح 6 (3477)، مسلم (1792)

3() مسلم (4/ 2008، رقم 2601)، وأحمد (2/ 493، رقم 10408)

4() رواه الحاكم 1/105، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص 89.

الجواد الكريم

سيدي يا رسول الله.. أيها الجواد الكـريم الـذي لا يضـاهيه أحـد في جـوده، ولا في كرمـه.. وأنى لـه ذلـك، وجـودك شـمل الأزمنة، ومدد فضلك تعالى أن تحصره الأمكنـة.. فنحن لا نـزال نعيش في فيض كرمـك ومـددك.. فكـل من أقبـل عليـك أقبلت عليه بأنواع الإكرام والتفضل.

وكيف لا تفعل ذلك سيدي، وقد قال الله تعـالى عن أولئـك الجاحدين الذين لم يعرفوا قيمتك: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: 74]؟

وما لك لا تكون كذلك سـيدي، وأنت عبـد اللـه الـذي تجلى عليه الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فتخلق بهـا، وتحققت فيه، فصـار مـرآة لهـا، وقبسـا من نورهـا، وقـد قلت معـبرا عن ذلك: (ألا أخبركم عن الأجود؟ الله الأجـود، وأنـا أجـود ولـد آدم، وأجـودهم من بعـدي رجـل تعلم علمـا فنشـر علمـه، يبعث يـوم القيامة أمة وحده، ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل)(1)

وما لك لا تكون كذلك سـيدي، وأنت الـذي كنت تعطي من سألك، وتبدأ من لم يسألك، ولا تحتفظ في بيتـك بـدينار واحـد.. وعندما دخلت على بلال الـذي وكلتـه بكـل مـال يحصـل لـديك، فوجدت عنده صبرة من تمر، قلت له: (ما هذا يا بلال؟) فقـال: تمر أدخره، فقلت: (ويحك يا بلال، أو ما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا) (2)

ولذلك كنت تنفـق كـل مـا يصـل إليـك من المـال في كـل مواضع الخير، ولا تحتفظ لنفسك بشـيء، وقـد روي أنـك دخلت على أم سـلمة، فرأتـك كئيبـا حزينـا، فسـألتك عن سـبب ذلـك، فقلت لها: (من أجـل الـدنانير السـبعة الـتي أتتنـا بـالأمس، ولم نقسمها)(3)

وحدثت عائشة قـالت ــ مخاطبـة شخصـين جـاءا يسـألانها عنك ـ: لو رأيتما رسـول اللـه ﷺ في مـرض لـه، وكـانت عنـدي ستة دراهم أو سبعة، فأمرني أن أفرقها، فشـغلني وجعـه حـتى

1() رواه بقي بن مخلد وأبو يعلى..

2() رواه البيهقي، والبزار، والطبراني، وأبو يعلى.

3() رواه ابن حبان والبيهقي.

عافاه الله، ثم سألني عنها، فقال: (ما فعلت، أكنت فرقت الستة الدنانير أو السبعة؟) فقلت: لا، والله، لقد كان شغلني وجعك.. فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟)(1)

وحدث بلال قال: دخل رسول الله ﷺ، وعندي شيء من تمر، فقال: (ما هذا؟) فقلت: ادخرنا لشتائنا، فقال: (أما تخاف أن ترى له بخارا في جهنم؟)(2)

وحدث أبو ذر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في صرة المدينة فاستقبلنا أحدا، فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا، تمضي على ثلاثة، وعندي منه دينار، إلا شيئا أرصده لدين، إلا أن أقول في عباد الله هكذا، وهكذا)(3)

وحدث ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر، ويأكل، فقال لي: (يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟) قلت: يا رسول الله لا أشتهيه، قال: (لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة لم أذق طعاما، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم ويضعفون؟ قال: فو الله ما برحنا، ولا زمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت:60)، فقال رسول الله ﷺ: (لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا اتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز دينارا، ولا درهما، ولا أخبئ رزقا لغد) (4)

وهكذا كنت ـ سيدي ـ لا تحتفظ بشيء من المال لنفسك، بل كنت تقدمه جميعا في سبيل الله، ولا تحتفظ لنفسك إلا بمقدار حاجتها المحدودة جدا، وقد روي أنكم ذبحتم شاة، فرآها بعض الفقراء، فرحت تأمر أهلك بتقديمها لهم، ثم سألتهم: ما بقي منها؟، فقالوا: ما بقي منها إلا كتفها، فقلت: (بقي كلُّها غير

1() رواه ابن سعد والبيهقي.

2() رواه الطبراني والبزار.

3() رواه البخاري.

4() رواه أبو بكر الحميدي.

كتفها) (1)

وقد كان ذلك الخلق العظيم سببا في إسلام من لم تبهرهم المعجزات الواضحات.. لكنهم عندما رأوا يديك المرسلتين بالعطاء، مع حاجتك الشديدة، عرفوا أنك لست طالب دنيا، وأنه لا يمكن لكاذب أن يحمل أوصافك.

لقد ذكر الإمام علي ذلك قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شيء، فأراد أن يفعله قال: (نعم) وإن أراد ألا يفعله سكت، وكان لا يقول لشيء لا) (2)

وذكره أنس، فقال: (ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه) (3)

ثم ذكر نموذجا لذلك، فقال: (فسأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر) (4)

وقال: (وإن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ وما يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا وما بينها) (5)

وحدث سهل بن سعد قال: (كان رسول الله ﷺ حييا لا يسأل شيئا إلا أعطى)(6)

وذكر أن امرأة جاءت لك ببردة منسوجة فيها حاشيتها، وقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها فخذها، فأخذتها، وأنت في أشد الحاجة إليها، ثم خرجت بها أمام أصحابك، فرآها أعرابي، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، فقلت: (نعم)، ثم رجعت إلى بيتك، فطويتها، وأعطيتها له(7).

وحدث هارون بن أبان قال: قدم للنبي ﷺ سبعون ألف درهم، وهو أكثر مال أتي به قط، فوضع على حصير من

1() رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

2() رواه الخرائطي، والطبراني، و المراد من عدم قوله: (لا) ما يفهم منها عدم الإعطاء مع القدرة عليه، أما إذا كانت من باب الاعتذار، فلا حرج في ذلك، وقد قالها ﷺ، ففي القرآن الكريم حكاية عن النبي ﷺ: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة:92)

3() رواه مسلم.

4() رواه مسلم.

5() رواه مسلم.

6() رواه الدارمي.

7() رواه البخاري، وابن ماجه، وابن سعد، والطبراني، والإسماعيلي والنسائي

المسجد، ثم قام بنفسه، فما رد سائلا، حتى فرغ منه(1).

وقال: أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: انظروا، يعني صبوه في المسجد، وكان أكثر مال أتى به ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ من المسجد، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطى إلى أن جاء العباس، فقال: يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلا، فقال: (خذ) فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: يا رسول الله مر بعضهم يرفعه إلي قال: (لا)، قال: فارفعه أنت، قال: (لا أستطيع)، ثم نثر منه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: يا رسول الله: مر بعضهم يرفعه علي، قال: (لا)، قال: فارفعه أنت، قال: (لا) ثم نثر منه فاحتمله، فألقاه على كاهله، فانطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا، عجبا منه، فما قام رسول الله ﷺ، وثم منها درهم) (2)

ولم تكن تكتفي بكل ذلك ــ سيدي ــ بل كنت تعطي كل من سألك، ولو علمت أنه لم يفعل ذلك عن حاجة، وإنما لما اشتهر من جودك وكرمك، وقد حدث أبو سعيد قال: دخل رجلان على رسول الله ﷺ يسألانه عن ثمن بعير فأعانهما بدينارين، فخرجا من عنده، فلقيا عمر، فأثنيا خيرا، وقالا معروفا، وشكرا ما صنع رسول الله ﷺ بهما، فدخل عمر على النبي ﷺ فأخبره بما قالا، فقال رسول الله ﷺ: (لكن فلانا أعطيته ما بين العشرة والمائة فلم يقل ذلك، إن أحدهم يسألني، فينطلق بمسألته يتأبطها، وما هي إلا نار)، فقال عمر: يا رسول الله، فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: (يأبون إلا أن يسألوني ويأبي الله لي البخل) (3)

وذكر في حديث آخر أن ناسا من الأنصار سألوك، فأعطيتهم، ثم سألوك، فأعطيتهم، ثم قلت: (ما يكون عندي من خير، فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء هو

1() رواه الدارمي.

2() رواه البخاري

3() رواه ابن أبي الدنيا وغيره.

خير، وأوسع من الصبر) (1)

وحدث جبير بن مطعم أنه بينما كان معك مقبلا من حنين علقت بك الأعراب يسألونك، حتى اضطروك إلى سمرة فخطفت رداءك، فوقفت، وقلت لهم: (أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته عليكم لا بخيلا، ولا كذابا، ولا جبانا) (2)

وحدث أنس أنك عام حنين سألك الناس، فأعطيتهم من البقر والغنم والإبل، حتى لم يبق من ذلك شئ فقلت: (ماذا تريدون؟ أتريدون أن تبخلوني؟ فوالله ما أنا ببخيل، ولا جبان، ولا كذوب)، فجذبوا ثوبك حتى بدت رقبتك(3).

وحدث سهل بن سعد قال: حكيت لرسول الله ﷺ حلة أنمار صوف أسود، فجعل حاشيتها بيضاء، وقام فيها إلى أصحابه، فضرب بيده إلى فخذه فقال: (ألا ترون إلى هذه ما أحسنها!) فقال أعرابي: يا رسول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، وكان رسول الله ﷺ لا يسأل شيئا أبدا فيقول: لا، فقال: (نعم)، فأعطاه الجبة(4).

ولم يقف كرمك ـ سيدي ــ بهذا الحد، بل كنت في حال عدم قدرتك على العطاء تتكلف كل السبل لترضي من سألك، حتى لا يذهب إلا راضيا، وقد حدث عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ما عندي شئ أعطيك، ولكن استقرض، حتى يأتينا شئ فنعطيك، فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك، فإذا لم يكن عندك فلا تكلف، فكره رسول الله ﷺ ذلك، حتى عرف في وجهه، فقال الرجل: يا رسول الله، بأبي وأمي أنت، فأعط، ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسم وجه رسول الله ﷺ وقال: (بهذا أمرت) (5)

هذه سيدي بعض مشاهد جودك وكرمك، وهي كافية للمستبصرين المؤمنين بك، الذين يعلمون أنك المثل الأعلى في كل شيء.. فأسألك سيدي، وأتوسل بك إلى الله أن يملأ القلب بالمعارف التي تجعلني جوادا كريما، لا أقبض يدي عن

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2() رواه البخاري.

3() رواه ابن الأعرابي.

4() رواه الطبري.

5() رواه الترمذي والخرائطي.

معروف، ولا أبخل بهـا عن إحسـان، حـتى أكـون أهلا لصـحبتك، ومعيتك في الدنيا والآخرة، إنك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

الصادق الأمين

سيدي يا رسول الله.. أيها الصادق الذي شهد له كل شيء بالصدق.. الأمين الذي أقر له كل شيء بالأمانة.. حتى صار لقبه في العالمين: الصادق الأمين.

وكيف لا تكون كذلك سيدي، وأنت الذي حُّملت أعظم رسالة، وكُلّفت بأضخم مهمة، وأنيطت بك أثقل أمانة.. فأديتها بكل دقة ورعاية وإتقان، وبجميع تفاصيلها، ظاهرا وباطنا، حتى لقيت الله تعالى، وقد أديت كل ما عليك من تكاليف..

وقد شهد الله لك بذلك، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 32، 33]

وقد أثبتت الأيام صدق كل ما ذكرته، فلا استطاع العلم ولا التطور ولا التقدم التقني ولا العقول البشرية الكثيرة، ولا المؤسسات العلمية الضخمة، أن تكذب حرفا واحدا مما جئت به، بل كلها أقرت لك بالصدق، وأنك بلغت كل ما كُلفت به من غير زيادة ولا نقصان.

وأثبتت الأيام معها عظيم نصحك لأمتك التي خالفتك في كثير من وصاياك؛ فنزل بها ما نزل بالأمم قبلها من البعد عن كتابها وهديك، فآل حالها إلى الضعف والاستبداد والتفرق، ولو أنها اتبعت وصاياك، ونفذت تعاليمك كما بلغتها، لكانت أفضل الأمم، وأقواها، وأطهرها، وفي جميع العصور.

ولم تكن الأيام فقط هي التي شهدت لك بذلك ــ سيدي ـ بل إن قومك أنفسهم، أولئك الذين نصبوا لك العداء، كانوا أكثر الناس تصديقا لكم، لكن الكبر والظلم والعتو حال بينهم وبين اتباعك، كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]

وقد روي في سبب نزولها أن أبا جهل لقيك؛ فقال: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به (1).

وحدث بعضهم قال: لقي النبي ﷺ أبا جهل فصافحه، قال

1() رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟

وروي أنه جاء يستمع لقراءتك من الليل، هو وأبو سفيان، والأخْنَس بن شِرِيْق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر، فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَم الصبح تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظَنًّا أن صاحبيه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أجمعوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حَنْظَلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، حملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تَجاثينا على الرُّكَب، وكنا كَفَرَسي رِهَان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه(1).

وروي أنه لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شَرِيق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه، فإنه إن كان نبيًا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِبَ محمد رجعتم سالمين، وإن غَلَب محمد فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئا.. فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا؛ فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو

1() رواه ابن إسحق وغيره.

قُصيّ باللواء والسقاية والحجـاب والنبـوة، فمـاذا يكـون لسـائر قريش؟)(1)

وحدث آخر قال: إن أول يوم عـرفت فيـه رسـول اللـه ﷺ أني كنت أمشـي أنـا وأبـو جهـل في بعض أزقـة مكـة إذ لقينـا رسول الله ﷺ، فقـال رسـول اللـه ﷺ لأبي جهـل: يـا أبـا الحكم هلمَّ إلى اللـه ورسـوله، أدعـوك إلى اللـه. فقـال أبـو جهـل: يـا محمد هل أنت منتهٍ عن سبَ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشـهد أنـك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لـو أني أعلم أن مـا تقول حق لاتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبـل عليَّ فقـال: والله إني لأعلم أن ما يقول حـق ولكن يمنعـني شـيء: أن بـني قصي قالوا: فينـا الحجابـة، قلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا السـقاية، قلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا النـدوة، فقلنـا: نعم، ثم قـالوا: فينـا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الـركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل(2).

بل إنهم ـ سيدي ـ شهدوا لك بذلك، ومن أول يوم دعـوتهم فيه إلى دينك، فكل المؤرخين متفقون على أنه لما نـزل عليـك قولـه تعـالى: ﴿وَأَنْـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الْأَقْـرَبِينَ ﴾ [الشـعراء: 214] صعدت على الصفا، فجعلت تنـادي: يـا بـني فهـر يـا بـني عـدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فقلت لهم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قـالوا: نعم مـا جربنا عليك إلا صـدقاً، فقلت: فـإني نـذير لكم بين يـدي عـذاب شديد، قال أبو لهب حينها: تبّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فـنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:1)(3)

ومن الأعـداء الـذين شـهدوا لـك بالصـدق رغم عـداوتهم الشديدة النضر بن الحارث الذي خاطب قومه قائلا: (يـا معشـر قريش إنه والله قد نـزل بكم أمـر مـا ابتليتم بمثلـه، ولقـد كـان محمــد فيكم غلامــاً حــدثاً، أرضــاكم عقلاً، وأصــدقكم حــديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحراً! لا والله ما هو بساحر، لقـد رأينـا السـحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكـاهن، قـد رأينـا

1() رواه ابن جرير.

2() رواه البيهقي، وابن أبي شيبة بنحوه.

3() رواه البخاري ومسلم.

الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم: مجنون! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه)، ثم قال لهم: (يا معشر قريش، انظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم)(1)

هذا كلام النضر بن الحارث الذى كان شيطاناً من شياطين قريش، ومثله قال سائر أعدائك كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهما.

ولم تكن هذه الشهادة خاصة بحياتك ـ سيدي ـ بعد البعثة، بل إنه قبل البعثة اشتهرت باسم الصادق الأمين، وقد ذكر شريكك في التجارة السائب المخزومي كيف كنت تتعامل معه، فقال ــ بعد أن لقيك يوم الفتح ــ:(مرحبا بأخي وشريكي لا تداري ولا تماري)، وقال:(كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك لا تداري ولا تماري) (2)

ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثتك تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب، فكنت أول داخل؛ ففرحوا جميعا، وقالوا: جاء الأمين، جاء محمد.. وقد كانوا يلقبونك بلقب الأمين؛ لما يعلمونه من أمانتك.

وهكذا عندما ذهبت إلى المدينة المنورة، علم أحبار اليهود صدقك، لكن كبرهم حال بينهم وبينك، ولهذا فإن أول من أسلم كان من كبار أحبارهم بشهادتهم، ومنهم عبد الله بن سلام الذي قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: (أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)(3)

وهكذا ـ سيدي ــ لا تزال الأيام والتجارب تكشف صدق كلماتك ونصائحك ووصاياك.. لكن من النفوس ما هو لين طيب، يقبل ما جئت به، ويُقبل عليك.. ومنها ما هو قاس غليظ

1() سيرة ابن هشام (1/ 270)

2() رواه أحمد.

3() رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

كالحجارة يأبى أن يسلّم لك، ولو أنه موقن بصدقك..

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أكـون من ذلـك الصنف الذي يسلم لك، ويصدقك، ويصدق كل ما جئت به، بلغـه عقله أو لم يبلغه.. فأنت عقل العقول، وأنت نـور الأنـوار.. ومن لم يسلّم لك عاش في ظلال نفسه الأمّارة بالسوء، يستقي من أهوائها، ويجتني من غيها ودسائسها مـا يحـول بينـه وبين الحـق وأهله.

وأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله أن أكون من أولئك الصادقين الذين صدقوا في صحبتك، قولا وفعلا، وإرادة وعزمـا، ومـاتوا على ذلـك، فتحقـق فيهم قولـه تعـالى: ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـافِقِينَ إِنْ شَـاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 23، 24]

الملهم الخبير

سـيدي يـا رسـول اللـه.. أيهـا الملهم المسـدد.. المعلّم المؤيد.. يا من علمك ربك ورباك، وفهمك ووعاك.. وأعطاك من كل أنواع الإدراك.. فصـار الكـل تلاميـذك، وصـرت أنت إمـامهم وخبيرهم وقائدهم وحكيمهم.

وكيف لا تكون كـذلك ـ سـيدي ـ و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَـلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].. فما كـان لمن يتـولى ذلـك المنصـب الرفيـع الـذي توليتـه، والـذي صـرت بسـببه الواسـطة بين اللـه وعبـاده.. إلا أن يكـون لـك من قـوة العلم والإدراك والفهم والحكمـة، مـا يجعلـك مسـددا تضـع كـل الأمـور في مواضـعها الصحيحة: إما بإرشاد مباشر من اللـه تعـالى وذلـك هـو الإلهـام والوحي.. أو بالصفاء والقدسية، وتلك هي العبقرية والخبرة.

فلذلك كنت ـ سـيدي ـ تملـك من القـدرات الإدراكيـة مـا يفوق بـدرجات كثـيرة جميـع العقـول، ولـو اجتمعت مـع بعضـها بعضا؛ فقد كنت تملك قوة الذكاء والذاكرة وحـدة الـذهن ودقـة الملاحظة واستبصار العواقب وغير ذلك مما تحتاج إليه الوظيفة التي أنيطت بك.

بالإضافة إلى ذلك كله، ذلك الصفاء والقدسية التي تجعلـك محلا لتنزل إلهامات الله وملائكته، فترى العواقب، والأمـور كمـا هي من غير تشويه ولا تحريف ولا تبديل.

ومن يجادل في امتلاكـك لكـل تلـك القـدرات جاهـل بقـدر النبوة وعظمتها، ذلك أن النبوة تتناقض مع كل ما يخـل بـأدوات الإدراك، والاستقبال؛ فيستحيل أن يكـون النـبي أبلـه أو غبيـا أو مغفلا أو غـير ذلـك من النقـائص الـتي يتـبين من خلالهـا نقص جوهره، وضعف إدراكه.

وكيف يكون ذلـك سـيدي؟.. وهـل يمكن لمن اسـتطاع أن يعاين الملكوت أن يعجز عن معاينـة الملـك؟.. وهـل يمكن لمن استطاع أن يتواصل مع عالم الغيب أن يعجـز عن التواصـل مـع عالم شهاده؟.. وهل يمكن لمن استطاع أن تمتـد عينـاه للأفلاك العليا، فيرى من أسرارها ما لا يراه غيره أن يعجز عن رؤيـة مـا هو أمامه؟

إن الذي يقول ذلك سيدي، لا يختلف عن ذلك الذي يتصـور

أنه يمكن لمن استطاع عقله أن يحل أعقد المسائل الرياضية أن يعجز عن حل مسألة جمع أو طرح أو ضرب.

بل إن الأمر بالنسبة لك أعظم؛ فأنت لم تكن تملك الذكاء المجرد، ولا العبقرية البشرية المحدودة فقط، وإنما كنت تملك معهما حكمة مسددة من الملأ الأعلى متواصلة تواصلا دائما معك..

ولذلك كنت غنيا عن استشارة غيرك، وقد قلت في ذلك: (أما إنَّ الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا)(1)

بل إن القرآن الكريم أشار إلى ذلك عندما أمرك باستشارة أصحابك، فقد أخبرك أن ذلك من مقتضيات رحمتك بهم، وتأليفك لقلوبهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]

إن مثلك في ذلك ـ سيدي ـ مثل الأستاذ الذي يتيح لطلبته أن يدلوا بآراهم في مسألة من المسائل، ثم يظهر عجبه من عبقريتهم وذكائهم، وإن كان هو نفسه يعلم بذلك مسبقا.. ولكن رحمته بهم تجعله ينهج ذلك المنهج.

وقد ورد هذا في شمائلك ـ سيدي ــ فقد وصفك هند بن أبي هالة، فقال: (يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق)(2)

وقريب منه ما وصفك به أنس حين قال: (كان إذا لقيه أحد من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه)(3)

وقريب من ذلك أيضا ما ورد في القرآن الكريم من عتاب الله تعالى لك، وهو عتاب المحب لمحبه، فعند التأمل في مواردها نجدها جميعا تنبعث من رحمتك بمن تريد أن تؤلف قلوبهم.. ولذلك فإن ذلك العتاب لم يكن حقيقيا، وإنما هو من باب [إياك أعني واسمعي يا جارة]

1() رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب.

2() شمائل الترمذي.

3() رواه ابن سعد.

إن مثله ـ سيدي ـ مثل أن يقول الوالـد لمعلم ابنـه: لم لم تعاقبه عندما أخطأ؟.. ولم لنت له مـع أنـه كـان في إمكانـك أن تعاقبه؟.. وهو لا يقصد بذلك عتـاب المعلم، وإنمـا يقصـد توجيـه اللوم لابنه وتربيته من خلال ذلك.

ولهذا، فإن قوله تعالى مخاطبا لك: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ لَـكَ تَبْتَغِي مَرْضَـاتَ أَزْوَاجِـكَ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1] ليس من ذلـك العتـاب الـذي يفهمـه المحجوبـون، وإنما هو من عتاب المحبين..

فأنت لم تحرم ما أحل اللـه لـك إلا لأنـك كنت تشـعر أنـك مأمور بـأن تحسـن لزوجاتـك، وأن تعطي المثـل للمؤمـنين في الرفق بهن مهما أسأن التصرف معـك، ولـذلك كنت تسـعى في مرضـاتهن، لا لأجلهن، وإنمـا لأجـل تحقيـق عبوديـة اللـه في التعامل معهن، ولهذا نبهـك اللـه، أو نبههن بطريـق غـير مباشـر إلى أن يراعين حسن العشرة معك..

ولهذا جاء بعد تلك الآيات ذلك التهديد الشـديد لنسـائك إن أسأن العشرة معك، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَـغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَـإِنَّ اللَّهَ هُـوَ مَـوْلَاهُ وَجِبْرِيـلُ وَصَـالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْـدَ ذَلِـكَ ظَهِـيرٌ (4) عَسَـى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْـرًا مِنْكُنَّ مُسْـلِمَاتٍ مُؤْمِنَـاتٍ قَانِتَـاتٍ تَائِبَـاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)﴾ [التحريم: 4، 5]

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى مخاطبا لـك: ﴿عَفَـا اللَّهُ عَنْـــكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَـــكَ الَّذِينَ صَـــدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43]، فقد كنت ـ سيدي ــ في قمـة الصـفاء والرقة والرحمة.. ولذلك كنت تقبل كل من اعتذر لـك حـتى لـو كنت تعلم كذبه حرصا عليه ورحمة به، فنبهك اللـه أو نبههم إلى أن إذنك لا ينفع إلا الصادقين.

ومثل هذا أيضا تلـك الرحمـة الـتي كنت تبـديها للمنـافقين، والتي تصور البعض أنـك كنت مخطئـا فيهـا حـتى جـاء من جـاء ليصحح لك خطأك.

وهكذا يقال في كـل مـا ورد في الروايـات من استشـارتك لأصحابك؛ فلم تكن عن نقص حكمة، ولا عن حاجتك لهم، وإنمـا كانت تأليفا لقلوبهم وتربية لهم.

لكن المغرضين سـيدي، راحـوا يفهمونهـا من غـير مراعـاة لقدرك، ولا احترام لنبوتك، ولذلك رمـوك بالعظـائم، وجـردوك ـ

من حيث يشعرون أو لا يشعرون ــ من كل معاني الحكمة والذكاء والبصيرة، وجعلوك عاجزا تنتظر ما يقرره أصحابك..

وكل ذلك ـ سيدي ـ في سبيل أن يرفعوا أصحابك، ويثبتوا مناقبهم، التي توهموا أنها لا يمكن أن تثبت إلا بالحط من شأنك، وإبراز ضعفك، لتبرز من خلال تلك المواقف قدرة أصحابك وذكاؤهم وحكمتهم، وأن الله اصطفاهم لك، وأنك ـ لولاهم ـ لنزل بك العذب، ولأخرجت من ديوان النبوة.

لا يمكنني ـ سيدي ـ أن أورد لك هنا ما ذكروا، فهو كثير جدا، وهم يذكرونه بفخر واعتزاز، معظمين لذلك الصحابي الذي جرت تلك المواقف على يديه، متناسين أنهم برفعهم له وضعوك.. وبتبيينهم لذكائه وفطنته وحكمته واستبصاره للأمور اتهموك بالغباء والغفلة والعجلة وغيرها من الصفات التي لا تتوافق مع نبوتك.

ومن الأمثلة على ذلك ما يسمونه [موافقات عمر]، والتي ألفت فيها الكتب التي حاول أصحابها ـ من أجل إعطاء المزيد من القدسية للصحابة ـ أن يعتبروا عمر هو صاحب الفضل في تلك الأحكام الإلهية.. وهو ما يعطي بعد ذلك ذريعة لكل مشكك في أن يعتبر عمر ممن أسسوا هذا الدين، وممن وضعوا بعض الأحكام المرتبطة به..

فمن تلك الموافقات: الصلاة عند مقام إبراهيم، والتي ورد بشأنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: 125)

ومنها دعوته للحجاب، والذي نزل في شأنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب: 53)

ومنها قوله لأمهات المؤمنين: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ....﴾ (التحريم: 5)، فنزلت كما قال.

ومنها ما ورد في تحريم الخمر في عدة آيات، كقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (البقرة: 219)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: 43)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(المائدة: 90)

ومنهـا مـا ورد في سـورة المؤمنـون من قولـه تعـالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(المؤمنون: 14)

ومنها الصلاة على المنافقين عند مـوتهم في واقعـة مـوت عبد الله ابن أبي ابن سلول ونزول قول الله تعـالى: ﴿وَلاَ تُصَـلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾(التوبة: 84)

ومنهـا الإسـتغفار للمنـافقين، قـال تعـالى: ﴿سَـوَاء عَلَيْهِمْ أَسْـتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(المنافقون: 6)

ومنها واقعة الإفـك في قولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْلاَ إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُـونُ لَنَـا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَـانٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: 16)

ومنها واقعة اليهود وعداوة جبريل وقول الله تعـالى: ﴿قُـلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(البقرة: 97)

ومنها واقعة قتـل عمـر لمن رفض حكم رسـول اللـه حيث قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُواْ تَسْـلِيماً ﴾ (النساء: 65)

ومنها واقعة الإستئذان في الدخول وقول اللـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَـدْخُلُوا بُيُوتـاً غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَـا ذَلِكُمْ خَيْـرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ ﴾(النـور: 27)،

ومنها حكمه في أسارى بـدر، فـنزلت كمـا ذكـر:﴿مَـا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُـونَ لَـهُ أَسْـرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ... ﴾ (الأنفـال: 67)

وفي هـذا المقـام يـذكر الخطبـاء والوعـاظ كثـيرا، وببعض التباهي أنك حين نزلت هـذه الآيـة:﴿مَـا كَـانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُـونَ لَـهُ أَسْـرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ (الأنفـال: 67) قلت: (لـو نـزلت نار من السماء لأحرقتنا إلا عمر)(1)

وهم لا يكتفـون بـذلك ــ سـيدي ــ بـل إنهم يمططـون في القصـة، ويضـيفون إليهـا بعض التوابـل ليخـرج النـاس منبهـرين

1() ذكر القصة الطبري وابن كثير والقرطبي وابن العربي والماوردي وغيرهم.

بعبقرية عمر وذكائه وحكمته، وينسوا أنهم خرجوا أيضا وقد بنوا كل ذلك البنيان على حساب تقديرهم لك ولنبوتك ولإلهام الله لك.

ونحن لا يهمنا ــ سيدي ــ أن يقدروا عمر أو غيره من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم.. ولكن لا على حسابك.. فنحن مأمورون بالتأسي بك وتعظيمك وتعزيرك وتوقيرك.. ولسنا مأمورين بفعل ذلك مع غيرك.

لم يكتفوا بذلك ـ سيدي ــ بل إنهم راحوا لأخطر موقف وقفه بعض أصحابك معك، وذلك عند احتضارك، في ذلك الحين الذي كان الأصل أن يطلبوا منك فيه الوصية، ليعرفوا من هو خليفتك من بعدك.. لكنهم لم يفعلوا، بل راحوا يمنعونك أن توصي..

لقد ذكر ابن عباس ما حدث في ذلك اليوم متأسفا حزينا، فقال: (لما حضر رسول الله، وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فقال عمر: (إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله)، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو، والاختلاف عند النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (قوموا)، قال عبيد الله: (راوي الحديث عن ابن عباس، وهو ابنه): فكان ابن عباس يقول: (إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم، ولغطهم)(1)

لقد روى ابن عباس هذه الحادثة متألما متأسفا، وكان الأصل في كل الأمة أن تفعل ذلك، فكيف يحال بين نبي وبين أن يوصي؟.. لكنهم للأسف ــ سيدي ــ لم يفعلوا، بل راحوا يعتبرونك مخطئا بطلب كتابة الوصية، ويعتبرون الحكمة في قول من منعك.. وكل ذلك جهلا بقدرك.

لقد عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك، لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنه ظهرت منه أي من كلام الرسول ﷺ قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم، بل

1() رواه البخاري.

على الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصد جازم، وعزمه ﷺ كان إما بالوحي وإما بالاجتهاد، وكذلك تركه إن كان بالوحي فبالوحي وإلا فبالاجتهاد أيضاً..)(1)

وما قاله عجيب جدا، فكيف يقال لأمرك ـ سيدي ــ أنه لم يكن على سبيل الحتم واللزوم، وقد ورد في القرآن الكريم التشديد على إجابتك مطلقا، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، بل حذر بعدها من الفتنة التي قد تنجر من عدم إجابتك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]

ثم كيف يقال بأن ذلك الأمر لم يكن على سبيل الحتم واللزوم، وقد قلت ـ سيدي ـ مبينا أهميته وخطره: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده)، فهل هناك شيء أهم من عدم الضلال.. بل عدم الضلال الأبدي؟

ومثل ذلك ـ سيدي ـ ما ذكره آخر مبررا فعل عمر، حيث قال: (إنما قصد عمر التخفيف على رسول الله ﷺ حين غلبه الوجع، ولو كان مراده ﷺ أن يكتب ما لا يستغنون عنه لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره لقوله تعالى ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 67] كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه ومعاداة من عاداه، وكما أمر في ذلك الحال بإخراج اليهود من جزيرة العرب وغير ذلك مما ذكره في الحديث)(2)

وما ذكره هذا لا يقل غرابة عما ذكره من قبله، لأنه يتنافى مع ما ورد في الحديث من اهتمامك بالوصية، أما تركك للكتابة، فليس تقصيرا منك ـ سيدي ـ حاشاك.. وإنما يفسر الأمر فيها كما يفسر سكوتك عن تحديد ليلة القدر بعدما حصل التنازع، فقد ورد في الحديث عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا ليلة القدر فتلاحى (أي تخاصم وتنازع) رجلان من المسلمين، فقال: (خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرُفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في

1() هو قول المازري، كما نقله الحافظ في الفتح (7/740)

2() نقله عنه النووي في شرح مسلم (11/132).

التاسعة والسابعة والخامسة)(1)

وهكذا كان التنازع سببا في الحرمان من تحديد ليلة القدر.. لأنها نعمة كبرى.. فلما لم يقدروها حق قدرها حرموا من ذلك.. وهكذا كان حرمانهم من تلك الوصية العظيمة بسبب التنازع.. لأنه حصل لك علم ـ سيدي ـ بأن هؤلاء الذين اجترأوا على التنازع بين يديك لن يصعب عليهم أن يمزقوا وصيتك أو يؤولوها أو يفعلوا بها ما شاءوا.

وهكذا قال آخر مبررا فعل عمر: (ائتوني أمر، وكان حق المأمور أن يبادر للامتثال، لكن ظهر لعمر مع طائفة أنه ليس على الوجوب، وأنه من باب الإرشاد للأصلح، فكرهوا أن يكلفوه من ذلك ما يشق عليه في تلك الحالة مع استحضارهم لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، ولهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله، وظهر لطائفة أخرى أن الأولى أن يكتب لما فيه من زيادة الإيضاح، ودل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار، ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر فإذا عزم امتثلوا)(2)

وقال آخر: (أما كلام عمر فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث على أنه من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب ﷺ أموراً ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا محالة للاجتهاد فيها، فقال عمر: حسبنا كتاب الله لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]؛ فعلم أن الله تعالى أكمل دينه فأمن الضلالة على الأمة وأراد الترفيه على رسول الله ﷺ، فكان عمر أفقه من ابن عباس وموافقيه)(3)

1() رواه البخاري.

2() نقله ابن حجر في الفتح 1/252).

3() النووي في شرح مسلم (11/132).

هذه ـ سيدي ـ مواقفهم من طلبك لكتابة الوصية، ومنعك منها.. والتي جعلهم حرصهم على الصحابة يتهمونك بأنك كنت المخطئ في طلب ذلك، وأن الحكمة فيمن منعوك من كتابة وصيتك.

لكنهم في نفس الوقت يقفون موقفا متناقضا تماما مع وصايا أصحابك الذين أحلوهم من المنزلة ما لم يحلوك.. بل أجازوا لهم ما لم يجيزوا لك.. فهم يذكرون بإعجاب شديد موقف أبي بكر في مرض موته عند وصيته لعمر، ويعتبرون ذلك من حرص أبي بكر على الأمة من بعده، ورحمته بها، مع أن الحالة التي أملى فيها أبو بكر وصيته أخطر من الحالة التي كنت فيها.. فقد حدث بعضهم قال: (دعا أبو بكر عثمان خالياً فقال له: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد.. قال: ثمّ أغمي عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أمّا بعد: فإنّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً منه. ثمّ أفاق أبو بكر فقال: أقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبّر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أفتتلت نفسي في غشيتي! قال: نعم! قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر من هذا الموضع)(1)

وهكذا نجدهم يروون عن أم المؤمنين عائشة قولها مخاطبه عبدالله بن عمر: (يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة)(2)

وهم يثنون عليها، وعلى كل من أوصى من الخلفاء، ويذكرون أن ذلك من حرصهم الشديد على مصالح الأمة.. إلا أنت ــ سيدي ــ فإنهم يحتقرون وصيتك، ويعتبرون الأولى ألا توصي.. لتقوم الأمة بأمر نفسها من غير أن تستند إلى ما تراه صالحا لها.

هذه مجرد نماذج عن تلك الصورة التي يصورونك بها ـ سيدي ــ ولهذا يرون أنك يمكن أن تخطئ وتتوهم وتغفل.. وتصيبك كل الآفات التي تحول بينك وبين الإدراك الصحيح

1() تاريخ الطبري 2: 618. تاريخ مدينة دمشق 3: 411. الطبقات الكبرى 3: 200. الثقات 2: 192..

2() الإمامة والسياسة: 1 | 28..

للأشياء.. وكل ذلـك لجهلهم بـالنبوة، ومرتبتهـا العاليـة السـامية التي لا يمكن إدراكها.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسـل لـك إلى اللـه أن أعرفـك كمـا أنت، لا كما عرفوني بك.. فأنت ـ سيدي ـ أحكم الحكماء، وأعلم العلماء، وأذكى الأذكياء.. وأنت الذي لو اجتمعت عقول العالمين جميعا ما عدلت عقلك.. ولو اجتمع إيمانهم ما عدل إيمانك.. ولو اجتمعت حكمتهم ما عدلت حكمتـك.. وأنى لهم ذلـك وأنت ولي الله الأعظم، ورسوله الأكرم.

وأسـألك ـ سـيدي ـ وأتوسـل بـك إلى اللـه أن يهبـني من الذكاء والحكمة وكل أدوات الإدراك، ما يعينني على فهم حقائق الأشياء كمـا هي، لا كمـا يصـورونها لي، وأن يسـددني في ذلـك كلـه، ويلهمـني، حـتى أكـون أهلا لصـحبتك ومعيتـك، إنـك أنت الوسيلة العظمى، وصاحب الجاه العظيم.

الهادي البصير

سيدي يا رسول الله.. أيها الداعي إلى اللـه على بصـيرة.. يــا من لا يســتنير بنــور هــدايتك إلا الموفقــون المتــأدبون المتواضـــعون.. ولا يغض الطـــرف عنهـــا إلا المخـــذولون المستكبرون المتفيهقون.

لقد رحت ـ سيدي ـ أتأمل فيما جئت به من ألـوان الهدايـة ومعانيها، وقارنتها بكل ما جـاء بـه غـيرك؛ فوجـدت أنـك الأوحـد الذي جاء بالهداية الشاملة التي تجيب عن كل الأسئلة، وتصـحح كل الأخطاء، وتكشف كل الغـوامض، وتـرد على كـل الشـبهات، وتشمل جميع لطائف الإنسـان، وتعم كـل منـاحي حياتـه.. فمن اكتفي بهدايتك هُدي إلى السـراط المسـتقيم، ومن ابتغى عنهـا بدلا، أو خلطها بغيرها، انحرف عنه إلى أهوائه وشياطينه.

ولم تكن هدايتك سيدي قاصرة على تلك التفسيرات الـتي أعطت للحياة صورتها الجميلة التي يراهـا عليهـا المؤمنـون، ولا تلك القيم الرفيعـة الـتي ضـبطت بهـا حيـاتهم، ولا تلـك الأذواق اللطيفة التي جعلت المؤمنين يستشعرون الطمأنينـة والسـعادة والسلام التي لا يمكن تذوقها من منـابع غـيرك.. وإنمـا في تلـك الأساليب والوسائل الكثيرة التي وضحت بها الحقائق، وبينت بها القيم حـتى فقههـا عامـة النـاس وخاصـتهم.. كـل على حسـب قدرته وفهمه.

ولم يجتمع كل ذلك ـ سيدي ـ لأحد غيرك.. فلذلك كـان من أتباعــك الفلاســفة والحكمــاء.. والأدبــاء والشــعراء.. والعلمــاء والفقهــاء.. والمتخصصــون في كــل المجــالات.. كمــا كــان من أتباعك العامة البسـطاء.. وغـيرهم من أصـناف النـاس.. ممـا لا نراه اجتمع عند غيرك.

وكلهم سيدي يذكر أنه نهل من منابعك العذبة، وارتوى من حوضـك الشـريف، وأنـك كفيتـه وأغنيتـه وآويتـه.. وأنـه لم يجـد السعادة إلا في صحبتك، ولا السلام إلا في اتباع تعاليمك.

وكيف لا تكون كذلك ـ سـيدي ــ وأنت الـذي لم تـدعو إلى الله من تلقاء نفسك، وإنما دعوت إليه بإذنه، ولذلك وصفك الله تعالى، فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) ﴾ [الأحزاب: 45

- 47]

وكيف لا تكون كذلك، وأنت الذي آتاك الله البصيرة، فلم تختلط دعوتك بالأهواء، وإنما كانت عن رؤية خالصة، قال تعالى مخاطبا لك: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108]

ولذلك ـ سيدي ـ انتشرت دعوتك بين ملايير البشر، وفي جميع الأجيال، وبين جميع اللغات والأعراق والبلدان.. واحتوتهم جميعا، وشعروا جميعا أنك النبي الذي يمكنهم أن يفهموه ويتبعوه ويحبوه.

لذلك ـ سيدي ـ كنت أنت الهادي البصير.. الذي يقود لواء الدعوة إلى الله.. فلا ينجح داعية إلا إذا استن بسنتك.. ولا يفشل أو يُخذل إلا بابتعاده عنها.

ائذن لي سيدي، أن أشكو إليك بعض ما فعله من يسمون أنفسهم دعاة وهداة من قومي.. فقد راحوا يتركون اتباع سنتك في الهداية إلى الله، تلك التي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وراحو يستعملون بدلها طرقا كثيرة، خلطوها بأهوائهم.. فزادوا دينك تشويها، وزادوا الخلق تنفيرا.

فبعضهم ـ سيدي ـ راح يعرض الإسلام كما تعرض الأحزاب السياسية مشاريعها، ولذلك استعمل كل الحيل، ولجأ إلى كل أنواع التمييع لدينك، حتى يراه الناس بالصورة التي يرغبون فيها.. ولذلك بدل أن يرفع الخلق إلى دينك، والهداية التي جئت بها، راح ينزل بدينك إلى مستواهم، ليتحللوا من كل شرائعه وقيمه.. وقد غفل هؤلاء أن دين الله أعظم من أن يكون حزبا من الأحزاب، أو جمعية من الجمعيات التي تخلط الدين بالدنيا، والقيم بالأهواء.

وراح آخرون يأخذون من الدين بعض مظاهره البعيدة عن حقائقها، فاعتبروا سنتك مجرد لحية طويلة، ولباس قصير، ومعهما الكثير من الجفاء والغلظة.

وراح آخرون يصورون الدين بصورة السيف والعنف والإرهاب..

وهكذا راح الكثير يستعملون وسائل منحرفة للدعوة إلى

دينـك.. بعيـدا عن الهـدي الـذي جئت بـه، واتباعـا للأهـواء الـتي حذرت منها.

ولـو أنهم سـيدي تخلـوا عن أهـوائهم، ولجـأوا إليـك، وإلى القــرآن الكــريم الــذي لم يــترك شــاردة ولا واردة إلا بينهــا وفسـرها.. ولجـأوا ــ مثلهـا ــ إلى سـنتك الصـحيحة الموافقـة للقرآن.. ولجأوا ـ معهما ــ إلى اعترتـك الطـاهرة الـتي حفظت هديك.. لاهتدوا.. ودعوا إلى اللـه على بصـيرة.. ولـدخل النـاس حينها في دين الله أفواجا.

فأسألك ـ سيدي ـ وأتوسل بك إلى الله.. أن يعصــمني من كـل تلـك التحريفـات، وأن تكـون أنت قـدوتي في الـدعوة إلى الله.. حتى لا أشـوه دينـك أو أحـرف القيم العظيمـة الـتي جئت بهـا.. وحـتى أكـون أهلا لصـحبتك ومعيتـك، إنـك أنت صـاحب الوسيلة العظمى، والجاه العظيم.

هذا الكتاب

تهدف هذه الرسائل إلى ثلاثة أهداف كبرى:

أولا ـ بيان كمالات رسول الله ﷺ في المجالات المختلفة، فالحب لا يكون إلا بعد إدراك الكمال.

ثانيا ــ رد الشبهات والتحريفات عن رسول الله ﷺ، ذلك أنها تتنافى مع الكمال، وقد تسيء إليه، وقد تكون هي الحجاب الذي يحول بين القلب وبين المحبة.

ثالثا ـ التوسل برسول الله ﷺ لتحقيق ما يرتبط بالكمال من سلوك وأخلاق وغيرها، وقد جعلنا ذلك في خاتمة كل رسالة، مثلما يقدم للدعاء بالثناء على الله، ثم يختم بطلب الحاجات.

ولم يكن هدفنا من التوسل طلب الحاجة فقط، وإنما كان هدفنا الأكبر منه تبيين الأثر السلوكي لمحبة رسول الله ﷺ في كل جانب من الجوانب، لأن العقيدة التي لا تثمر عملا عقيدة الكسالى والمدعين، لا المجدين والصادقين.

وقد جمعنا في هذه الرسائل أربعين صفة من صفات رسول الله ﷺ، وشرحناها، وبينا أدلتها المختلفة من خلال تلك الخطابات الموجهة إليه.